المنشور ـ2

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

د. عبد الرازق أحمد

تقديم

ثَّمَّةَ حركاتٌ اجتماعيّةٌ متنوّعةٌ ظهرت على الساحة الإدارية والسياسية والدينيّة والعسكريّة والاجتماعيّة والثقافيّة تُمارِسُ دورَها في تحديدِ مسار البشرية عبر تاريخها، وإنّ القاسمَ المشتركَ الذي يجمعُ بين هذه الحركاتِ كلِّها هو الفِكْرُ، ومن المؤكَّدِ أن هناك مجموعة معيّنة من الأسُسِ الفكرية قد قامت عليها كل هذه الحركات الاجتماعية -إيجابية كانت أو سلبية، أُقرّت أو لم تُقرّ- والتي ظهرت على الساحة بهدف إدارة الناس وتوجيههم.

وهذا هو الفَرْقُ الأساسيُّ الذي يُمَيِّزُ البشرَ في الوقت نفسه، ومن ثم فالفِكْرُ موجودٌ في كل مكان يتوفَّرُ فيه تعاملٌ إنسانيٌّ تجاه الإنسان والإنسانية، ولا شكَّ أن الوقتَ ومرورَ الزمان هو الذي سيقرِّرُ الحكم الأصح: إن كان هذا الفكر متوازنًا أو غير متوازنٍ؟

وفي هذا الإطار عندما ننظر إلى الحركات التي تحدَّثنا عنها، نظرةَ راصدٍ وباحثٍ؛ نرى أن هذه الحركات نوعان، **الأوّل:** الحركات التي استطاعت بناء أُسُسِهَا الفكريّة على أرضية سليمةٍ تمامًا، وهذه قد حالَفَهَا النجاحُ بشكلٍ عام، بينما فشل النوع **الثاني** وهو تلك الحركات التي لم تستطع فعل ذلك، وبينما استهدَفت الغالبية العظمى من هذه الحركات عبر التاريخ النوعَ الأوّلَ، إذ بالنوع الثاني منها لَمَعَ كالبرق ثم خبا ضوؤه، وبينما كان النوع الأول يتطوَّرُ على نحوٍ مُوازٍ لِصِدْقِ وإخلاصِ واعتقادِ وتضحيةِ مُمَثِّلي تلك الفكرةِ وتفانيهم؛ ضَمَرَ النوعُ الثاني وتخلَّفَ لأنه أغفل هذه الأمور، وبينما خلَّفَ النوعُ الأوّلُ لنا وللتاريخِ كثيرًا من الآثار القيّمة التي تليقُ بأن تكون مفخرةً للإنسانية خلّفَ النوعُ الثاني لمن وراءه أشياء يندى لها الجبين؛ كالدماءِ والدموعِ والظلمِ والاعتداءِ والتخريبِ والنهبِ، ومن ثمَّ ذكر الخَلَفُ النوعَ الأولَ بالخير ودعوا له، بينما تذكَّرُوا النوعَ الثاني باللعنة والدعاء عليه.

وهنا فائدة في توضيح أنه: يمكنُ اعتبارُ الإسلامَ -الذي بلّغَهُ ومثّلَهُ سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم- المصدرَ الدائمَ والمنهلَ العذبَ للنوعِ الأول من حيث الأساس الفكري الذي بيّنّاه آنفًا؛ إذ إنَّ دعوته ليست في مجالِ العقيدة والاعتقاد فحسب، بل تحتوي كثيرًا من التعاليمِ المهمّة الصالحةِ التي تعني الإنسان والمجتمع في شتّى مجالاتِ الحياة. أجل، إن حملةَ الإحياءِ أو الإنشاءِ التي حقَّقَها الإسلامُ لا تَشْمَلُ بعضًا

من قضايا المجتمعِ كالسياسية والإدارية والأخلاقية والدينية فحسب، بل إنها حركةٌ كلّيَّةٌ تشمل المجتمعَ برُمَّتِهِ.

ورغم مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنّ الإسلام لا زالَ حتى اليوم نظامًا حياتيًّا يحافظُ على وجودِهِ ونضارَتِهِ وكأنَّهُ ظهرَ بالأمس، ومن المعروفِ أنه بالرغمِ من كثرةِ التيّارات الفكريّة التي ظَهَرَتْ في أواخرِ السبعينيّات من القرن المنصرم وكانت أسماؤُها في لغتها الأصليّة تنتهي باللاحقة السمية "ism..." مثل "الشيوعيّة (Communism)" التي وجدت الفرصةَ والقدرةَ على السيادةِ والهيمنةِ فوق مساحات جغرافيّة واسعةٍ أو أنّها كانت تبدو كذلك على الأقل؛ فإنها بدأت مرحلة خطيرةً من التفكُّكِ والتمزُّقِ مع انْمِحَاءِ ورحيلِ الكوادِرِ التي كانت تنفثُ الروحَ فيها، وبالطبعِ يستحيلُ تشبيه الإسلام بشيءٍ من هذا القَبيلِ.

وهكذا فإذا ما نظرنا إلى مجال اهتمام الإسلام وانتشاره فسنجد أن هذين الأمرين كافيان لإظهار مدى سلامة البنية الأساسية الفكرية التي يختصّ بها الدين الإسلامي، علاوة على أن هذا في الوقت نفسه يمثّلُ أصدقَ برهانٍ على أن الإسلامَ نظامٌ إلهيٌّ وعالميٌّ، وأن ما عداه من الأنظمةِ ظلٌّ ظِلّهِ...

والشيء الأساسي الذي نريد التطرُّقَ إليه في مقدِّمَتِنا هذه هو أنَّ "حركة الخدمة" التي حظيت بتقدير الكثيرين نتيجة نشاطاتها التي لا تزال تضطلع بممارستها في كثير من المجالات وعلى رأسِها التربية والتعليم هل تمتلِكُ أُسُسًا فكريّةً أو لا؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب فما هي؟

إنني واثقٌ بأنكم ستجدون المبادئ التي تُعْتَبَرُ الأسسَ الفكريّة لهذه الحركة الاجتماعيّة ومعها التفسيراتُ الجديدة لتلك المبادئ في ثنايا كتاب "الموشور-2" الذي بين أيديكم، والذي يتكوَّنُ من الأجوبةِ التي قدَّمها فضيلةُ الأستاذ فتح الله كولن على ما طُرِحَ عليه من أسئلةٍ في مناسبات مختلفة.

وهنا أريدُ التطرُّقَ إلى أمرٍ مُلفِتٍ للانتباهِ؛ وهو أنَّ الكثيرَ من الناسِ من مختلَفِ شرائحِ المجتمَعِ التركيِّ من المعنيّين وغيرهم، والمسؤولين وغيرهم، والعلماء وغيرهم يُقيّمُونَ هذه الحركةَ جزئيًّا، ويعجزون عن الإحاطةِ بها كُلّيًّا مرّة واحدةً.

وللتعقيب على هذه التقييمات والتحليلات نقول: **أوّلًا** ينبغي ألّا تُتَناول هذه التقييمات والدراسات التي تؤثر في ماضي الحركة وحاضرها ومستقبلها -ويمكن وصفُها بأنها مادّة يستفاد منها في أيّ وقت- تناوُلًا يخضعُ لِرؤًى جزئيّة.

ثانيًا: من الأهمّيّة بمكانٍ هويّةُ المضطَلعين بتلك التحليلات والتفسيرات، ويا تُرى إلى أيّ مدى يعرفُ الإسلامَ إنسانٌ يمكنه أن يقول عن أية فعالية تحققها "الحركة" "إن هذا ليس إسلاميًّا" أو "هذا إسلاميّ"؟! وعلى أيّة حال؛ فإن كونَ الإنسانِ كاتبَ عمود في صحيفةٍ ما، أو أستاذًا ومحاضِرًا جامعيًّا، أو مؤيِّدًا لحزبٍ سياسيٍّ، أو صوفيًّا أو درويشًا لا يعني امتلاكه الكفاءةَ العلميّة، والمكونَ المعرفيَّ اللازم ليتمكَّن من القيامِ بهذا التقييم.

ثالثًا: تُرى كيفَ يُمكِنُ التعريفُ بالحركة أو التعرُّفُ إليها؟ هل يمكن التعرف إلى حركة بالنظرِ إلى قصاصاتِ الجرائدِ ونشراتِ الأخبار؟ أو إلى أيِّ مدى يمكن التعرف عليها؟ ومن هذه الناحية وانطلاقًا من كلِّ هذه التساؤلاتِ فإن الشروحَ والإيضاحات التي قام بها فضيلة الأستاذ فتح الله كولن بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ حول الأساسِ الفكريِّ تستحوذُ على أهمية كبيرة.

أجل، يتكون "الموشور 2" من خمسةِ أقسام مختلِفة كما هو الحالُ في الكتابِ الأوَّلِ من هذه السلسلة[1]، وهي: "المنظور، والبُعد الفكري، وحول محور الدين، والمِجهر، والنوازل"، ولقد أَعطَينَا الأولويّة لقضايا الأسُسِ الفكريّة التي يُمكنُ رؤيتُها بكلِّ سهولةٍ في بعضِ الأجوبةِ الواردةِ في تلك الأقسام، فمثلًا يُمكنكم أن تطَّلِعوا في "الموشور 2" على بعضِ الموضوعاتِ مثل: "أوصاف أرباب المستوى"، و"نموذج للنهضة"، و"تحقق الأفكار المثالية"، و"منهج التبليغ مرة أخرى"، و"العلاقة بين العلم والعمل"، و"النصيحة التي تعدل الجهادَ"، و"نظرة الغرب إلى الإسلام من الماضي إلى الحاضر"، وبالإضافة إلى ذلك احتوى الكتاب أيضًا على آراء فضيلة الأستاذ حول مواضيع مهمّة باتت تطرح نفسها بقوة على الساحة العصريّة مثل: "المجتمع النظيف"، و"تنظيم الأسرة"، إلى جانب بعضِ القضايا الدينيّة مثل: الدعاء والسِّحْر والجن... إلخ. وقد أضيف مَسْرَدٌ عام في نهاية الكتاب لتسهيلِ الاستفادة منه.

وأخيرًا نتقدَّمُ بالشكر الجزيلِ إلى أستاذِنا المفضال "فتح الله كولن" على أثره القيّم هذا، ونسأل الله الرحمن الرحيم له أن ينعم عليه بدوام الصحة والعافية.

دار النيل للنشر

---

[1] محمد فتح الله كولن: **الموشور-1**، دار النيل، 2015م.

ديسمبر/كانون الأول 2016م

الفصل الأول
المنظور

الحياة في تلال القلب الزمردية

سؤال: كيف يمكننا الارتقاء إلى حياة القلب والروح وكيف نحظى بالسير في تِلال القلب الزُّمُرُّدِيَّةِ؟

الجواب: أولًا: ينبغي للإنسانِ أن يرى الارتقاء إلى حياة القلب والروح والسيرَ في تلال القلب الزمردية غايةً وأفقًا، وأن يحاولَ رؤيةَ تلك التلال المباركة التي تتلَأْلَأُ فيها النجومُ، ويطلعُ فيها القمرُ ويأفل، وتُشرق فيها الشمسُ وتغيبُ، حتى ولو كان ذلك من فُرجةِ بابٍ ضيّقةٍ، وبقدرٍ معيّن، وقد سَعَينَا في "التلال الزمردية"[2] إلى إظهارِ هذا الهدفِ ووَضْعِ المبادئِ الأساسيّة لِلوصولِ إليه، فمن الوسائل في هذا السبيل الصلاةُ التي تؤدى بخشوع تامّ وبشكلٍ يستشعرُ فيه العبد بربِّهِ بلا كَمٍّ وكَيْف، وذِكرُ اللهِ والدعاءُ والتضرعُ الدائم أيضًا وسائلُ مهمة، كما أن التفكُّر الدائم العميق المنتظم الذي يجعل الإنسان يرطب لسانه بقوله: "سبحانك ما عَرفْناك حقَّ معرفتك"؛ ما هو إلا وسيلةٌ أخرى من تلك الوسائل.

وقد يصل الإنسان أحيانًا إلى ذلك الأفقِ بسرعة؛ نظرًا لظروفه التي يقصر له الطريق، وقد لا تكفي لآخَر حتى أربعون سنةً كي يصلَ إلى ذلك الأُفُقِ، وما ذلك إلا لحيلولةِ بعض الموانعِ دون ذلك كقسوةِ القلب والاهتمام بالشكليّات دون المعنويّات، فقد سئل "الجنيد البغداديّ"[3] من أين استفدت هذا العلم؟ قال: من جلوسي بين يدي الله أربعين سنة[4]، وذلك وفقًا لمشاهداتِهِ الذاتيّة الخاصّة به، في حين كان معيارُ "الإمامِ الغزاليّ"[5] في هذا الموضوع مختلِفًا بعضَ الشيءِ؛ إذ يقولُ فيما يتعلق بانكشافِ هذه الواردات: "لقد انْكَشَفَتْ لي بعضُ الأشياء في الأربعين[6] الأولى، بينما رأيت في الأربعين الثانية خطأَ ما شاهدْتُه في الأربعين الأولى، فاضطلَعْتُ بأشياء أكثر عمقًا، وفي المرّة الثالثة استطعْتُ إدراكَ الأفقِ الحقيقيّ الذي يمكن إدراكه

---

[2] للمؤلف كتاب في المصطلحات الصوفية والحياة القلبية والروحية بعنوان **"التلال الزمردية** (نحو حياة القلب والروح)" على أربعة أجزاء. (الناشر)

[3] **الجنيد البغدادي** (ت: 297هـ/910م): هو الجنيد بن محمد أبو القاسم الزجاج القواريري، صوفيّ، ولد وتوفي ببغداد، وتلقى العلوم الفقهية عن سفيان الثوري والعلوم الصوفية عن خاله السري السقطي.

[4] ابن كثير: **البداية والنهاية**، 129/11.

[5] **الإمام الغزالي** (ت: 505هـ/1111م): أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني واجتماعي، ودرس علوم الفقهاء وعلم الكلام على إمام الحرمين، وعلوم الفلاسفة وبخاصة الفارابي وابن سينا وعلوم الباطنية، واشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية وارتحل إلى بلاد كثيرة منها دمشق وبيت المقدس والقاهرة والإسكندرية ومكة المكرمة، ومن مصنفاته "إحياء علوم الدين" و"تهافت الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال".

[6] مصطلح صوفيّ يستخدم بمعنى انعزال السالك وانزوائه في مكان خاصّ مدة أربعين يومًا وتفرغه للعبادة فيه تمامًا.

بالأربعين"، ومن ثم فإنه لا بدَّ -وفقًا لرؤيَتِهِ- من ثلاث أربعينات أي مائةٍ وأربعين يومًا كي يتوصّل إلى القِوام المطلوب.

أجل، إن التذكرة والوثيقة المستخدمة في رحلة يتمّ خوضُ غِمارِ السلوكِ فيها من أجل الوقوفِ على أسرارِ عالمِ اللاهوت هي تجفيفُ منابعِ الميولِ الشرّيرةِ، وتقويةُ الإرادةِ بإثارةِ الميولِ الخيّرةِ وتحفيزِها، فربما ينفرج بعدَ هذا بابٌ ينفتح على عالم المعنى، وتصلُ رسالةُ الانتقال إلى العوالم الأخرى.

وهنا أُريدُ أن أُوَكِّدَ على أهمّيّة وضرورةِ أن يثبُتَ الإنسان على هذا الأمرِ وإنْ كَلّفَهُ عُمرَه، يُحكى في المناقب أن وليًّا من أولياء الله رأى كلبًا يذهبُ يوميًّا إلى مزبلةٍ محدَّدة، ثم يغادِرُها بعد أن ينبشها، وذات يومٍ سأَلَهُ وكان قد لاحقه وتَتَبّعَهُ أيامًا؛ قائلًا: "ما سرُّ مجيئِك إلى هنا يوميًّا، وإصرارك على البحث عن شيءٍ ما رغم أنَّكَ لم تعثرْ على أيِّ شيءٍ قطُّ؟"، فأجابه الكلبُ: "إنني وجدتُ عَظْمَةً هنا ذات يوم!".

الأصلُ في مثل هذه المناقب الدرسُ الذي يستخرج منها بغض النظر عن ثبوت أصلها. أجل، فَلِلوصولِ إلى الأفقِ الإلهيِّ لا بد من دوامِ طرقِ بابِ الله سبحانه وتعالى والمرابطة عنده حتى يأتي الردّ...

كذلكَ يجبُ السَّيرُ في هذا الطريقِ على نحوٍ يوافِقُ أركانَهُ، وإلا فَمِنَ المحتَمَلِ التعثُّرُ فيه والتأخُّر في قطعِهِ، فمثلًا لا يمكن في دائرةِ الأسبابِ بلوغُ أيِّ منزلةٍ بصلاةٍ لا تُراعى أركانُها، والحقيقةُ أنَّ فضلَ اللهِ واسعٌ؛ فهو إن شاءَ قَلَّدَ الكلابَ قلادات ذهبية، ولا رادّ لحكمه، غير أنَّ لكلِّ شيءٍ طريقتَهُ ومنهجَه، ومن هنا ينبغي أوَّلًا بيانُ المناهجِ الموصلةِ إلى الهدف لأولئك الذين لا يتحرّكون في إطارِ المعايير المطروحةِ ثم يقولون: "لا ينكشف لنا أيُّ شيءٍ قطّ، إننا لا نشعر بشيء ما".

ومع هذا فلا ينبغي أبدًا أن يُحمل ما قلناه على أنه لا قيمةَ للذين يعجزون عن الحصولِ على الشعورِ والإحساسِ العميقِ بالأذواق الروحانية، فرحمة الله واسعة، فقد يرفعُ الله سبحانه وتعالى برحمتِه الواسعةِ أولئك الذين ما في جعبَتِهِم إلا الصلاة والصوم قممًا عاليةً ومنزلةً تفوقُ تصوُّراتنا.

ومن الممكنِ أن أقول استطرادًا: إن معظمَ الناس في يومنا هذا يخضع لِتَأْثِيرِ المادِّيَّة الشديدة؛ فهؤلاء الذين لا يعرفون الأسرار الإلهيّة يصفون الجنّ والملائكة بأنهم "طاقة" أو "طاقة مكثّفة"، وهم لا يكتفون بهذا؛ بل يستخدمون التعبير نفسه

لِلذَّات الإلهية –سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا-، هؤلاء لو انكشفت لهم الحقيقةُ قليلًا لتحسَّروا ندمًا عمّا جنَتْهُ ألسِنَتُهُم ودانت به عقولهم.

وباختصارٍ نقول إن السير في تلال القلب الزمرُّديّة هدفٌ يجبُ الوصول إليه، ومن ثمَّ يلزم الإيمان بضرورة الوصول إليها أوَّلًا، ثم السير بتأنٍّ ودقة بالغة ودون إعراضٍ أو سَأَمٍ أو مَلَلٍ في ذلك الطريقِ على نحوٍ يُلائِمُ أركانه، وأركانُ هذا الطريق هو: "الانسلال من الحيوانيَّة، وتركُ الجسمانية، والدخولُ في مدارجِ حياةِ القلبِ والروح".

أوصاف أرباب المستوى

سؤال: ما الطريقُ الذي ينبغي لنا أن نَسْلُكَهُ حتى تكونَ الأوصافُ الجميلةُ جزءًا مِنْ فِطْرَتِنا؟

الجواب: على الإنسان أن يتحلّى بالجِدِّيَّةِ والوقارِ والحيطةِ والثِّقةِ في أخلاقِهِ الرفيعةِ وحياتِهِ التعبُّديّةِ، وأن يتكاملَ مع ذاتيّتِهِ بأن يجعلَ هذه الأوصافَ بُعْدًا من فِطْرَتِهِ، بَيدَ أن القدرةَ على تحقيقِ هذا الأمرِ والوصول إلى هذا المستوى، ثم الحفاظَ عليه بعد الوصول إليه أمرٌ في غايةِ الصعوبةِ.

وقد أَرْشَدَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلّم إلى سبيلِ جعلِ تلكَ الأوصافِ بُعْدًا من أبعادِ فِطرتِنا؛ فقال صلى الله عليه وسلم: **"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا"**[7]، أي اقرؤُوا القرآنَ الكريمَ بقلبٍ خاشِعٍ ونفسٍ مطمئنّةٍ، وانطلاقًا من هذه الفكرة؛ فَقَد تتكلَّفون في البداية من أجل اكتساب الأوصاف المذكورة آنفًا، وربما ينتقدُ هذا الأمرَ مَن لا يَقِفُون على جوهرِ هذه المسألةِ، فلا تُبالُوا بِتِلْكَ الأشياءِ؛ حتى لا تتعثَّروا في هذا الطريق الذي سلكتموه لِأَجْلِ الوصولِ إليه سبحانه وتعالى.

ولنحاولْ توضيحَ الموضوعِ أكثر بِسَوقِ بعضِ الأمثلةِ في نطاقِ الأفكارِ التي ما فَتِئْنَا نذكرُها تحتَ عنوان الأخلاق الرفيعة، **فقِلَّةُ الكلام** تتقدَّم -فيما أظنُّ- المبادئَ المتعلِّقَةَ بالأخلاقِ الحَسَنَةِ؛ إذْ إنَّ **"من كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ"** كما بين لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم[8]، وتلك الأخطاء والسقطات الكثيرة تُفضي بالإنسان إلى جهنَّمَ دون أن يشعرَ على الإطلاق، ولِأَجْلِ ذلك لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفوَّهُ بكلمةٍ قطُّ ما لم يوجّه إليه سؤال أو لم يكن فيه خير، وبالشكلِ نفسِهِ تَصَرَّفَ الصحابةُ العظامُ الذين تعلَّموا هذا الدرس منه.

فمثلًا؛ سيِّدُنا أبو بكر رمزُ الصِّدْقِ والولاء كان -حسب إحدى المناقب التي لم ولن أستغربها وإن كنتُ لم أصادفْها في المصادرِ الصحيحةِ حتى الآن- يضعُ حصاةً في فيهِ يمنعُ بها نفسه عن الكلام، فإذا تطلَّبَ الأمرُ أن يتحدَّثَ استخرجها فتحدَّثَ، ثم يعيدها في فيهِ من جديد[9]. أجل، لعلّ هذا الإنسان الذي يتحلّى بالحيطة والحَذَرِ كان يفعلُ شيئًا كهذا كي يتحكَّمَ في نفسِهِ. أجل، كان سيدنا أبو بكر رضي

---

[7] **سنن ابن ماجه**، الإقامة 176؛ أبو يعلى: **المسند**، 50/2.

[8] الطبراني: **المعجم الأوسط**، 328/6؛ القضاعي: **مسند الشهاب**، 236/1-237.

[9] انظر: شمس الدين سيواسي: **مناقب الخلفاء الأربعة الراشدين**، ص 81 (المنقبة 62).

الله عنه بعد الهجرة -كما جاء في الكتب الصِّحاحِ- قليلَ الكلامِ، وكان كلامُهُ عند سيِّدِ الأنبياءِ سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز بضع مئات من الكلمات؛ وقد يُعَدُّ هذا الأمرُ دليلًا على تلك المنقبة.

فإن كان الإنسانُ يتحدث عن الحياة القلبية والروحية والفكرية؛ فيفتح أُفقَ مخاطبيه بما تحدث به من كلام فهذا يعني أن حديثه يحتوي على فائدةٍ ما، وإلا فإن حديثه كلَّه قد يكون من جملة الإسراف في القول، بالله عليكم كيف يجوز لدِينٍ يأمرُ بالاقتصاد في الماء عند الوضوء على حافة نهرٍ جارٍ أن يُجيزَ للإنسانِ الإسراف في كلامه الأغلى من الماء! وإن كان الأمر كذلك يمكننا الاعتراض -دون حرج- على الأحاديث العقيمة التافهةِ التي لا فائدةَ من ورائها ولا داعيَ لها على الإطلاق، فالثرثرةُ الدائمةُ التي لا تُفيدُ شيئًا أبدًا، ولا وزنَ لمحتواها أمرٌ محظور ألبتة، وبالتالي فإن الاقتصادَ في الحديث مطلوبٌ كما هو كذلك في المأكَلِ والمشْرَبِ والملْبَسِ؛ إذ ينبغي حسابُ عددِ الكلماتِ التي يمكن التعبير بها عن موضوعٍ أو فكرةٍ رئيسة، ومن ثمَّ الحديثُ وفقًا لذلك، هكذا ينبغي أن يكون الحديث بعيدًا عن شتى صنوف الإسراف، سواء أكان إسرافًا بالحروف والكلمات أم بالوقت والزمان.

والحقيقةُ أن أولياء الله اتَّخذوا ثلاثةَ أمورٍ مهمّةٍ جدًّا دستورًا لحياتهم بما يعود بالنفع على دنيا الناس وعقباهم؛ ألا وهي: "قلّة الكلام"، و"قلّة الطعام"، و"قلّة المنام".[10]

وهكذا فإن من جملة الأخلاقيّات أن يتحدَّثَ الإنسان بكلامٍ موزونٍ مصفّى، يعبر عن فكرة ما، واكتسابُ الإنسان هذا الخلقَ وجعلُه جزءًا من فطرتِهِ يتطلَّبُ كثيرًا من الوقتِ والجهد.

ويُشْبِهُ هذا الخُلقُ المهمُّ أيضًا خُلُقَ الزهدِ الذي يعني: تركَ المتعِ الدنيويّة والتصدِّي لِلأهواء الجسمانيّة، وللزهد مكانة مهمّة جدًّا في التصوُّفِ، وقد عاش سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإطارَ العامَ له -روحًا ومعنى- قبل وقت طويل من تناوله كمنهج ومدرسة من مدارس الفِكْرِ الصُّوفيّ، ولو أنّنا أضفْنا إلى ذلك تعريفَ فضيلةِ الأستاذ النورسيّ له، وهو: "ترك الدنيا قلبًا لا كسبًا"[11]؛ لكانَ أصدق وأوضح، فعلى كلِّ مؤمنٍ -لا سِيَّمَا الأرواحُ التي نَذَرَتْ نفسَها لِلحقِّ والحقيقة- في يومنا الحاضر أن يجعلَ من الزهدِ صفةً ملازمة له لا تنفكُّ عنه، وهو يعني

---

[10] انظر: الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 66/3.

[11] بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، الحبة، 231.

عدمَ الالتفاتِ إلى الدنيا وما فيها وعدمَ التشوُّفِ إلى أيِّ شيءٍ دنيويٍّ، والانتقالَ إلى الآخرةِ ببراءةِ ذمّةٍ وعدمِ امتلاك شيءٍ من متاعِ الدنيا.

ومع أن اتخاذ موقف تجاه الدنيا بكلِّ جوانبِها مثل: المال والمنال والمقام والمنصِبِ والشهرةِ... إلخ قد يكونُ أمرًا صعبًا جدًّا في البداية، إلا أنَّ هذه الفكرة تتحقَّقُ بالممارسة والتعويدِ شيئًا فشيئًا بدءًا من الأشياءِ الصغيرةِ وصولًا إلى الأشياءِ العظيمةِ إلى أن تُصبِحَ لازمةً من لوازمِ الإنسانِ لا تنفكُّ عنه، أي إنه على الإنسان أن يُفَكِّرَ قائلًا: "لديّ ثوبٌ واحدٌ اليوم، فلا داعيَ لِثوبٍ ثانٍ، وإلا فإنني سأطلبُ الثالثَ والرابعَ، ومن ثَمّ يُسيطرُ هذا الخُلُقُ القارونيّ على حياتي ذات يوم"؛ لذا فعلى الإنسان أن يتدرَّبَ على هذا الخلق النبوي ويُزيّن حياته به.

وهناك الكثير من الأوصاف الأخرى التي يمكن تعدادها إلى جانب هذين المثالين المتعلِّقَين بالأخلاق الحسنة مثل: الجديّة، وغضِّ البصر، والتواضع.

و**العبادات** كذلك، فعلى سبيل المثال الصلاة؛ فالوصول إلى حقيقتها يتطلب التدريب أيضًا، تبدأُ من إقامةِ الإنسانِ لها وتأدِيَتِهِ إيّاها على وقتِها بتذوُّقٍ وكأنه يرتشفُها؛ أي إنَّ أداءَ الصلاةِ بتشوُّقٍ إليها وعشقٍ ورغبةٍ فيها لا عنها كمن يُلقي حملًا ثقيلًا من على ظهره يتسبَّبُ في فتح أبوابِ السماءِ لاستجابةِ الدعاء، وهذه قمّةٌ يتعذرُ الوصول إليها فجأة دون ترويضٍ، إلا أن الإنسان يمكنه أن يجعلَ ذلك فطرةً فيه بالتدرُّب عليها، والأصحّ أن الإنسانَ مُطالَبٌ بِفعلِ ذلك.

وفي النهاية ينبغي أن يعيشَ الإنسانُ حياته كلَّها مُوَفِّيًا إرادتهُ حقَّها، رغمًا عن رغباتِ نفسِهِ وأهوائِها الطليقةِ، وهذا يتطلَّبُ من الإنسان أن يجعلَ هذه الأوصاف -التي تمنحه الإنسانيّة الحقّة- جزءًا لا يتجزَّأ عن فِطرتِهِ بل ويتّخذها روحًا لحياتِهِ، تحتَ ريادةِ وإرشادِ القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة الشريفة.

دُور بن أبي الأرقم من الماضي إلى الحاضر

سؤال:"بيوتُ النور"[12] مفهوم تستخدمونه كثيرًا؛ فماذا تقصدون به؟ وماذا تقولون بحقِّ ماهيّة بيوت النور ومهمّتها؟ وما هي توقُّعاتِكم من هذه الدُّور؟

الجواب: بيوتُ النورِ من أكثر الموضوعات التي تحدثتُ عنها سابقًا، وقد حاولتُ مرارًا التعبير عن أفكاري حولَها بشكلٍ واضحٍ للغاية، وليس من الممكن أن أتذكَّرها وأكرِّرها جميعها بشكلٍ منظّمٍ، ولكن اسمحوا لي أن أعرِضَ أفكاري حولها في تسلسلٍ طبيعيّ، ودون إخضاعِها لأيّ ترتيبٍ على الإطلاق ما دُمتُ قد سُئِلْتُ عنها مجدَّدًا.

يمكن تشبيه جميع المؤسّسات التي تُربِّي الأجيالَ المثقَّفَةَ اليوم بشجرةٍ ضخمةٍ نبتَتْ من نواةٍ صغيرةٍ أُلقيت في حضنِ العَدَمِ في فترةٍ ما.

أجل، كانت تلك الأكواخ الصغيرة التي لا تسع الواحدة منها إلا فردين أو ثلاثة، ثم بيوت النور التي حملت روح الحقيقة المحمدية، فالمجتمعات الأكبر؛ تُشبِهُ جميعها شمعةً أُشعلت في تلك الفترة التي توالت فيها الظُّلمات الحالكة، وكما كان النورُ المحمَّديُّ يُشكِّلُ لقاحًا أو سببًا أوّليًّا لِخَلْقِ السموات والأرض كانت هذه البيوت جميعها تضطلع بدورها في إحلال النور وإرشاد الناس تحت وصايةِ هذا النورِ الأعظم.

أما بالنسبة إلى الفترة الأولى، فإننا حين ننظرُ إلى بداية حركة التبليغ والإرشاد الإسلاميّة يتبيّن لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضًا بدأ بمثلِ هذا النوع من البيوت. أجل، لقد بدأ سيّدُ الأنبياء صلى الله عليه وسلم ببَيتٍ واحدٍ فإذا بالأرضِ تُجعَل له مسجدًا، ومكّةُ محرابًا، والمدينةُ منبرًا، وصارَ كلُّ مَن على سطحِ الأرض رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا جماعةَ هذا المسجد، وأصبحَ كلُّ واحدٍ منهم طالِبًا من طلّاب مدرسةِ الإرشادِ والتبليغِ النابغين.

حتى إن المنهج نفسه دائمًا ما أُتُّبِعَ في الفتراتِ اللاحقة، فمثلًا؛ عُمَرُ بن عبد العزيز (ت: 101هـ/720م) شرَعَ في هذا الأمر بحجرةٍ صغيرةٍ وبضعة نفرٍ جمعهم حوله وحاول إصلاح ما أفسده الأمويّون؛ فبدأ يعمل ويعمل، وفي فترةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ تُقدَّرُ بحوالي عامين ونصفٍ، وبهذه الفئة القليلة من الناس، وفي هذه الحجرة الصغيرة؛ استطاعَ أن يُنجزَ أعمالًا يتطلَّبُ القيام بها مئات السنين.

---

12 يستخدمها الأستاذ في مقالاته اقتباسًا من قوله: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾** (سورة النُّور: 36/24).

وقد اتّبع الإمام الغزالي أيضًا المنهجَ نفسه. أجل، لقد شرح هو كذلك فلسفة الخدمة لبضعة أفرادٍ دعاهم إلى حلقته العلمية، وأرشدهم إلى سبيل "إحياء علوم الدين"، ومن أجل تحقيق هذه الغاية أَلَّفَ كتابه "المنقذ من الضلال" من ناحية، وألّف كتابه "إحياء علوم الدين" أيضًا من ناحية أخرى؛ فأوقد به مشاعل انبعاث الحياة الإسلامية في قلوب المؤمنين.

والحقُّ أن جميعَ القامات الشامخة التي أرشدَت الأمة المحمديّة في فترات معيّنة بدءًا من عصرِ النور الأول حتى الإمام الرباني[13]، ومنها حتى فضيلة الأستاذ بديع الزمان مهمومِ عصرِنَا العظيم؛ اتّبعت المنهجَ نفسه بشكلٍ دائمٍ.

أجل، وكما أن عالم الوجود العظيم هذا تشكَّلَ بمجرَّاتِهِ وأنظِمَتِهِ من ذرّاتٍ صغيرة؛ فإن إثباتَ أيّةِ أمةٍ نفسَهَا على مسرحِ التاريخِ مجدَّدًا دائمًا ما كان يبدأُ بِكوخٍ صغيرٍ، وبقدرِ انعكاسِ فكرةِ الانبعاثِ على القلوب يصير كلّ شيء كتابًا معبِّرًا أو معرضًا متعدّد المعاني والمضامين.

أما بالنسبة لنا، فإن هذا النور الوارد في سورة النور مرتبطٌ بالآية الكريمة: **(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)** (سورة النُّور: 36/24) والأصحُّ أنَّ ممثِّلي دار الأرقم بن أبي الأرقم (رضي الله عنه) -التي أظنُّها على صلةٍ قريبة بهذه الآية- أدّوا مهمتهم مرة أخرى في تبليغِ الإسلام للقلوبِ مجدَّدًا، وكأنَّ كلًّا منهم شُرْفَةٌ في مئذنة، ألا يقول بديع الزمان في صدد الحديث عن وضعِهِ الشخصيّ: "أيا من أخاطبكم، ألا معذرةً، إني أصرخ عاليًا، وأنا معتلٍ منارة العصر الثالث عشر الهجري، أدعو أولئك المدنيين المتحضرين صورةً وشكلًا والمتهاونين في الدين حقيقة، والذين يجولون في أودية الماضي السحيق فكرًا.. أدعوهم إلى الجامع"؟[14]، إنه لم يعتَلِ في واقع الأمر أيَّةَ مئذنةٍ واضعًا يديه على أذنيه، ومناديًا، ولكنه حاول أن يُسمعَ الإنسانيةَ صوته من مئذنة مقره في "بَارْلَا (Barla)"[15].

---

[13] **الإمام الرباني:** هو أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي (971-1034هـ) الملقب بحق "مجدد الألف الثاني"، برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والإخلاص لله وحضور القلب، رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة "الملك أكبر" التي كادت تمحق الإسلام، وفّقه المولى العزيز إلى صرف الدولة المغولية القوية من الإلحاد والبرهمية إلى احتضان الإسلام بما بث من نظام البيعة والأخوة والإرشاد بين الناس، طهّر معين التصوف من الأكدار، تنامت دعوته في القارة الهندية وانتشرت طريقته "النقشبندية" في أرجاء العالم الإسلامي بوساطة العلامة خالد الشهرزوري المشهور بمولانا خالد (1192-1243هـ)، له مؤلفات عديدة أشهرها "مكتوبات" ترجمها إلى العربية محمد مراد في مجلدين.

[14] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **صيقل الإسلام**، المناظرات، ص 379.

[15] "بارلا (Barla)" ناحية صغيرة من نواحي مدينة "إسبارتا (Isparta)" التي نفي الأسناذ بديع الزمان سعيد النورسي إلى هنا سنة (1927م) وبدأ تأليف رسائل النور هنا وأجبر الإقامة هنا حتى سنة (1935م).

لهذه البيوتِ المنوَّرة مزايا خاصة بها؛ فهي بالدرجة الأولى أماكن تعالجُ فيها نقائص الناس التي قد تنجم عن بعض جوانبهم البشرية، إنها أماكنُ وضعِ الخططِ والمشاريعِ، يتوافر فيها الشدُّ والجذبُ المعنوي بصفةٍ دائمةٍ، وخلاصةُ القول إنها أماكن مباركة نشأ فيها أناس أقوياء الإيمان، أقوياء القلوب من ذلك النوع الذي قال عنه الأستاذ النورسي: "إن الإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيعُ أن يتحدَّى الكائنات"[16].

والواقع أن فتح العالم لم يعد بحَملِ السيف باليد، والخنجرِ على الخصر، والكنانة على الظهرِ ولا بامتطاءِ الخيلِ كما كان في الماضي؛ بل العكس تمامًا؛ فقد صارَ من البديهيّ أن يتحقَّقَ فتحُ العالم بالوصول إلى قلوب الناس بالقرآن في يد، وبالمنطق في الأخرى، وهكذا فإنَّ مَنْ نشأ في داخل تلك المجتمعات النورانيّة من الداخِلِ والخارِجِ من رجالِ الروح والمعنى سوف يبثُّون الوارداتِ النورانيّة التي وهبهم الله تعالى إيّاها في هذا الطريق المؤدّي إلى فتحِ القلوب معنًى وروحًا؛ سيسكبونَها في تلك العقولِ الفارغةِ فيعمُرُونها بها، وإن كان الأمر كذلك فإن كلَّ بيتٍ من هذه البيوت يُشْبِهُ ورشةً أو مدرسةً تعمُرُها الأجيال المُقلِّدة المشوّشة التي تشكل نفسها وفقًا لمراكز الجذبِ المختلِفة، فيعودون إلى أصلهم روحيًّا ومعنويًّا.

وكان المنتظر من تلك البيوت أن تؤدِّيَ رسالةً على هذا النحو، ولا سيما في عصرٍ عَجَزَت فيه التكايا والزوايا عن القيام بوظائِفِها؛ وأُوصِدت أبوابُها بالأقفال والمتاريس، فقد كانت هذه البيوتُ تدرِّس مَن تُؤويهم مِنَ الناس العلومَ الدينيّةَ إلى جانب العلوم التطبيقية، وقد تحمّلت وظيفة تغذية عقولهم ناهيك عن وظيفتها في إحياء قلوبهم، وتشير الآية إلى كل هذا أساسًا، ولا سيما استخدام كلمة "بيوتٍ" بالتنكير؛ فإنه يدلُّ على استخدامِها لمعنى آخر بخلاف المسجد، أي إن تلك البيوت ليست المساجدَ والجوامعَ المعروفةَ ذات المآذن التي يسمع الناسُ الأذان منها؛ إنها أماكن نكرة.

غير أن ثمَّةَ شيئًا واضحًا هو أن تلك البيوت المنوّرَةَ بفضلِ من يسكنونها كانت -رغم مرور فترةٍ بائسةٍ- تُكسب ذلك العصرَ الشرفَ وحسنَ الطالع من جديد، فهي أماكن سامقةٌ بإذن الله جلَّ جلاله: **(أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)** (سورة النُّور: 36/24) فريدةٌ يُتدارسُ فيها الحقُّ، وتُطالَعُ الكتب في فترة أُغلقت فيها الطرق المؤدِّية إلى المساجد وحُظر الأذان في مآذنها، إنها حبلى بأعمال سامية تبدو قاسية،

[16] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الأول، النقطة الثالثة، ص 349.

رغم ما فيها من بساطة لا يُعتَدُّ بها ولا يُنظرُ إليها، إن المدارسة التي كانت تقوم بها الروح الدينيّة في الجامع في الماضي تتحققُ بالاجتماع في هذه البيوت، وبالنظر إلى هذا فإن تلك البيوت هي أماكن مباركة، وهي "محل ترجمة الحقائق العالية".

وفي فترة معينة كان من الممكن ربطُ حال تلك البيوت بكلمة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: " كنا ندخل بيوتنا ولا ندري هل سنخرج منها ثانية أو لا، كما لم نكن واثقين هل نرجع إلى بيوتنا مرة ثانية بعدَ أن نخرح منها أو لا..."[17]، ولذلك فقد صار شعار ساكني تلك البيوت صباح مساء هو اللجوء إليه تعالى، وتفويض كلّ شيء إليه مُردِّدين بينما تكاد قلوبهم تنفطر: "اللهم! لا شريك ولا ندّ ولا نظيرَ لك، الكون كله بيدك وقدرتك، لا يمسُّنا شرٌّ ما لم تأذن به، ولا يستطيع أحد أن يعتدي على أحد إن حفظت ووقيت..."، إن التخلُّص من كلِّ أنواع الشرك، والتوكلَ على الله لا غيرَ، ومراعاته ومراقبته في كل الأحوال هو الوضع الطبيعي لأصحاب تلك البيوت.

علاوة على ذلك فإن اسم "الرجال" فحسب هو الذي ذُكر في الآية الكريمة: **(رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)** (سورة النُّورِ: 37/24) وربما يكون السبب في ذلك أن النساء اللواتي اتخذْنَ سبيل الفوزِ برضا الله تعالى طريقًا أساسيًّا لهنَّ وعشقْنَهُ قليلاتٌ جدًّا بالنظر إلى الفترة الأولى التي نزلت فيها تلك الآية الكريمة، أو ربما أن ذِكرَ الرجال فحسبُ جاء من باب استخدام أسلوب التغليب في اللغة العربية، غير أنه -وكما أشرنا إليه آنفًا- ثمة إشارة في هذه الآية إلى النساء أيضًا عن طريق التغليب، وإن كان الأمر كذلك فإن كلمة رجال تعني: "نساءًا كالرجال"؛ أي أنه برغم الفترة الزمنية التي انكب فيها العالم على المنصب والمقام، وانغمس في حب الجسد وزاغت نظراته، وانشغل بالمال والبنين كانت هناك نساءٌ ورجالٌ وبناتُ رجالٍ سمَونَ بهذا الشعور، وهذا الفكر، لهن إرادة قوية مثل قوة إرادةِ الرجال.

[17] القلقشندي: **صبح الأعشى**، 286/1.

أجل، في بداية خدمة رسائل النور، كانت تقف إلى جانب الرجال الأبطال مثل: "صدّيق سليمان"[18] و"خلوصي أفندي"[19] و"خسرو أفندي"[20] بعضُ النساء اللواتي كنّ ظلًا للسيدتين نسيبة[21]، وسميراء[22] رضي الله عنهما اللتين أظهرتا بطولةً فريدةً في معركتي "بدرٍ" و"أُحُد"... لقد ساندت هؤلاء النسوة هذه الدعوة رغمَ أنوثتهنَّ، ولم يتخلَّفْنَ عن الرجال في ذلك، وينبغي لبيوتِ النور أن ترعى لبُؤات اليوم أيضًا.

وأظن أن الوصول إلى وسعةِ القلبِ التي شَقَّ الوصولُ إليها بواسطة الزوايا والتكايا في إحدى الفترات سيتحقق بفضل هذه البيوت؛ طالما حُميت روحُ دارِ بنِ أبي الأرقم، كما سينشأُ في هذهِ البيوت أناسٌ مثقَّفون يقومون بِدورِ خِرِّيجي المدارس الدينيّة بل ويتفوَّقون عليهم في الوقت ذاتِه، وسينشأُ فيها أمثالُ عبدِ القادرِ الجيلاني

---

18 **سليمان (السيد)**: وهو الذي خدم الأستاذ النورسي في منفاه "بارلا" طوال ثماني سنوات، كان مثالًا للصدق والوفاء والإخلاص، توفي في سنة (1965م) رحمه الله رحمة واسعة.

19 **خلوصي يحيى كيل** (1895-1986م): من السابقين الذين تتلمذوا على الأستاذ النورسي في "بارلا" وكان حينئذٍ ضابطًا برتبة نقيب، كان يبعث إلى أستاذه أسئلته وما يُستفسر منه من أمور إيمانية، جمّعت هذه الأجوبة بتوجيه الأستاذ نفسه وسمّيت بـ"المكتوبات".

20 **خُسْرَوْ (آلتن باشاق)** (1899-1977م): ولد في إسبارطة، كان في مقدمة الذين استنسخوا المئات من الرسائل ونشروها في أحلك الظروف، وقضى معظم حياته مع أستاذه في سجون أسكي شهر ودنيزلي وأفيون وهو الذي كتب مصحفًا بتوجيه من الأستاذ النورسي لإظهار الإعجاز في التوافقات اللطيفة لاسم الجلالة في الصفحة الواحدة، توفي في إسطنبول.

21 **أمّ عُمَارة نسيبة بنت كعب بن عوف** المازنية الأنصارية (ت: 13هـ)، من بني النجار: صحابية، اشتهرت بالشجاعة، وتُعد من أبطال المعارك، ولما ظهر الإسلام أسلمت وشهدت بيعة العقبة وأُحدًا والحديبيّة وخيبر وعمرة القضاء وحنينًا، وسمعت من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحاديث، وكانت تخرج إلى القتال، فتسقي الجرحى وتقاتل، وأبلت يوم أحد بلاءً حسنًا، وجرحت اثني عشر جرحًا، بين طعنةِ رمحٍ وضربةِ سيفٍ، وكانت ممّن ثبتَ مع رسول الله حينِ تراجع الناس، وقد رُئِيَتْ في ذلك اليوم تقاتلُ أشدّ القتال، وأمّها معها تَعصب جرحها، وكان رسول الله إذا حدَّث عن يوم "أُحُدٍ" وذكر "أم عمارة" يقول: ما التفتُّ يمينًا ولا شمالًا إلا رأيتُها تقاتلُ دوني، وحضرَتْ حربَ اليمامة، فقاتلت قتالَ الأبطال، وقُطِعَتْ يدُها وجُرِحَت، فانصرفت إلى المدينة تُداوي جراحها، فكان أبو بكر وهو خليفة يعودُها ويسألُ عن حالها. (الزركلي: **الأعلام**، 19/8)

22 **سميراء بنت قيس الأنصارية** الملقّبة بأمّ الشهداء، وهي التي شجَّعَت أولادَها على الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد، فاستشهدوا في تلك المعركة فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وجعلت تسأل عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فأُخبِرَت أنه بخير، فأبت إلّا أن تراه بعينِها، فتنسى مصيبتها بفلذات أكبادها ولما رأتْه تهلل وجهها قائلةً: كلّ مصيبة بعدك جللٌ يا رسول الله، ولمَّا أحضروا ولديها الشهيدين قبلتْهُما وحملَتْهُما على ناقتها، ورجعَتْ بهما إلى المدينة وقابلَتْها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت: ما وراءك يا سميراء؟ قالت: أمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بحمد الله بخير، وأمّا المسلمون فقد اتخذ الله منهم شهداء، وأمّا الكافرون فقرأت قوله تعالى: وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال"، قالت عائشة رضي الله عنها: فمن هؤلاء الذين فوق الناقة يا سميراء؟ قالت: هما ولداي، النعمان وسليم، قد شرفني الله باستشهادهما، وإنّي لأرجو الله أن يُلحقني بهما في الجنة.

مع أمثال "جلنبوي"[23]، وأمثال "علي قُوشْجي"[24] مع أمثال "مُلّا خُسرو"[25] و"مُلّا الكُورَاني "[26]، وأمثال "أبي السعود أفندي"[27] مع أمثال "إبراهيم حقي"[28]، وإلّا فربما تتحول هذه الأماكن -لا قدَّرَ الله- إلى بؤرةٍ للكسالى والخاملين، وأظنُّ أن أكثر من يشاركونني المشاعر والرأيَ نفسه يُفَضِّلون الموتَ على رؤيةِ حالٍ كهذه.

إن البيوت التي تعدل في معناها ومحتواها دارَ بن أبي الأرقم التي بدأت في عصر السعادة واستمرَّتْ تنشد الغاية نفسها في فترات مختلفة، ينبغي لها أن تواظبَ في الوقت الحاضر أيضًا على تنشئةِ وتخريجِ أناسٍ متَّقِّفين يرتفعون إلى عَنانِ سماءِ الإنسانيّة محلِّقين بأجنحة القلبِ والعقل، ولا بدَّ أن تكون هذه الأماكنُ المباركة -بإذن الله تعالى- أماكنَ تجهيزٍ وتزويدٍ لمن نَذَرُوا أنفسَهم للوطن والأمة في أيامنا الراهنة التي تُبحِرُ فيها أمَّتُنا الإسلامية نحوَ انبعاثٍ جديد...

والآن فَمِنَ الـمُهِمِّ للغاية أن يستخدمَ أبطالُ الروحِ والمعنى المستنيرون في يومنا الحاضر بيوتَهم كمدرسةٍ لِإحياءِ العالم كلِّهِ؛ فمن الألزم أن يُجَسِّدَ رجالُ اللهِ في هذه البيوت روحَ الإسلامِ ومعناه العريق الصالح لِكُلِّ زمانٍ بأن يعيشوا الحياةَ الروحيّة للإسلام بكل رحابَتِها، ويتعلموا في هذه البيوت جميع أقسام العلوم الطبيعية إلى جانب كل فروع العلوم الإسلامية وفي مقدمتها الحديث والتفسير والفقه... فإن

---

[23] "**الجلنبوي** (Gelenbevî)" (ت: 1205هـ/1791م): عالم تركيّ عاش في الدولة العثمانية وهو مشهور في علم المنطق والحساب. (**المترجم**)

[24] "**علي القُوشْجِي** (Ali Kuşçu)" (ت: 879هـ/1474م): فلكيّ رياضي وفقيه حنفيّ، أصله من "سمرقند"، وكان ماهرًا في العلوم الرياضية. (الزركلي: **الأعلام**، 9/5)

[25] "**مُلّا خُسْرَوْ** (Molla Hüsrev)" (ت: 1480م): عالم بفقه الحنفية والأصول، رومي الأصل، أسلم أبوه، ونشأ هو مسلمًا، فتبحّر في علوم المعقول والمنقول، من كتبه "درر الحكام في شرح غرر الأحكام"، و"مرقاة الوصول في علم الأصول، و"حاشية على المطول" و"حاشية على التلويح"، و"حاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل". (الزركلي: **الأعلام**، 328/6) (بالتصرف)

[26] "**مُلّا الكُورَاني** (Molla Gürânî)" (ت: 893هـ/1488م): أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعيّ ثم الحنفي، مفسر، كردي الأصل، تعلم بمصر ثم رحل إلى بلاد الترك فعهد إليه السلطان مراد بن عثمان بتعليم وليّ عهده (محمد الفاتح) وولى القضاء في أيام الفاتح، وتوفي بالقسطنطينية، له كتب منها "غاية الأماني في تفسير السبع المثاني"، و"الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع للسبكي" و"الكوثر الجاري" و"شرح الكافية لابن الحاجب". (الزركلي: **الأعلام**، 97/1) (بالتصرف)

[27] " **أَبو السُّعُود أفندي** (Ebussuud Efendi)" (ت: 982هـ/1574م): أبو السعود بن محمد العمادي ويشتهر باسم "أبو السعود أفندي"، هو فقيه وقاضٍ مسلم وُلد في قصبة إسكليب العُثمانية، هو عمل في بداية حياته في التدريس حتى بلغ القضاء، ثم ترقى في القضاء حتى أصبح قاضي العسكر ويحضر الديوان العثماني، ثم أصبح مفتيًّا للعاصمة وشيخًا للإسلام، وأمضى ثلاثين عامًا في منصب مفتي القسطنطينية وهي مدة لم يبلغها أحد لا من قبله ولا من بعده، وله تفسير للقرآن الكريم يسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" ودُعي بعده بلقب "خطيب المفسرين"، وهو أيضًا شاعر باللغات العربية والتركية والفارسية. (**المترجم**)

[28] **إبراهيم حقي**: عالم تركي جليل وزاهد متصوّف، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، قضى أواخر عمره في "تيللو" جنوب شرقي تركيا، أشهر مؤلفاته "معرفتْنامه (Marifetname)".

حدث خلاف ذلك نكون قد خُنّا نبيّنا المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي أكسب هذا المعنى للبيتِ ولصاحبِه الأرقمِ الذي يُنسَبُ إليه هذا البيت.

ينبغي لنا أن نقول عندما نخر على الأرض ساجدين مستشعرِين تلك الروح: "اللهم توفني ساجدًا بين يديك، اللهم توفني وأنت راضٍ عني تمام الرضا"، وأن نقفَ بإخلاص في حضرة الله وكأننا في الجنة نشاهد جمال الله تعالى، ونغلقُ أعيُنَنا عن كلِّ ما سواه جلَّ جلاله، فلا يخطفُ أبصارَنا أيُّ شيءٍ آخر، ثم نضعُ أيدينا على رُكَبِنَا، ونتخلَّصُ من "الأنا" و"النَّحنُ"، فننصهِر في هذه البوتقة إلى أن نستحيلَ عينًا تنظرُ إليه "هو" فحسب. أجل، لا بدَّ من التوجُّهِ إليه تعالى على هذا النحوِ...

وإن أداءَ الصلاةِ إما أن يكون على نحوِ إسقاطِ واجبٍ وأداءِ حركاتٍ ظاهريّةٍ سريعًا والانتهاء منها دون تفكُّرٍ أو رويّة، أو الشعور بالوصول إلى مرتبةِ الفناءِ في الله والبقاء بالله، والمعيّة مع الله لدرجةٍ يتعذَّرُ معها التفكيرُ في النفس كمن صعد مرتقيًا إلى المعراج ثم غاب عن وعيه؛ أي السيرُ إلى الله توجُّهًا كادت قلوبهم أن تنفطر له، وجعلُ كلِّ واحدة من هذه البيوت النورانية مرفًا وميناءً يُستعاضُ عنه بشيءٍ؛ بغيةَ الوصول إلى الله تعالى بالأوراد والأذكار والتسبيح والتقديسِ تحت الوصاية النورانيّة للقرآن. أجل، عند حدوثِ هذا يمكنُ الوصولُ إلى الله بشكلٍ مباشِرٍ؛ وحينئذٍ يتحقَّقُ الوصول إلى درجةٍ من الولاية وننتقل من سعادة إلى سعادة ونحظى بالوارداتِ الماديّة والمعنويّة.

إن من يحلمُون اليوم في إيصالِ الحقِّ والحقيقةِ إلى أنحاءِ العالم كلها مضطرُّون للتغذّي والنَّهْلِ من فيوضات تلك البيوت التي هي بمثابةِ مناهل للفيضِ الأقدسِ، أما من بقوا في تلك الأماكن القدسيّة زمنًا طويلًا إلا أنهم عجزوا عن الشعورِ بألطافِ الله، والوصولِ إلى عشقه وشوقه فهم تعساء بدرجة ما، وما أشبههم في هذه الحالةِ بالأطفال التُّعَساء الذين لا يرضعون لبنَ أمَّهاتهم وهم في أحضانهنَّ، وفي الواقع فَلَيسَ ثمَّةَ شيءٌ يُكْسِبُهُ أمثالُ هؤلاء لا لأنفسِهم ولا للإنسانيّة.

وبالمناسبة فإنني أريدُ التعبير عما يختَلِجُني من شعورٍ في مثلِ هذا المقام، وهو أنّني أشعرُ وكأنَّ هؤلاء الذين يتلفّتون يمينًا وشمالًا في صلاتهم قد مسُّوا -إن جاز التعبير- كرامةَ الله، وهنا أقول: "يا لَيتهم يرمونني بأعظمِ الشتائم والإهانات، ولا يتصرَّفون هذا التصرُّفَ غير اللائِقِ"، وإنني لَعَلَى قناعةٍ بأنَّ هذه الكلمة الثقيلة التي قلتُها ستكونُ خفيفةً مقارنةً مع تلك الأمور غير اللائقة بِجَنْبِ الله. أجل، إنني شخصيًّا أرى أن تصرّف الذين حُرموا وعيَ الوقوف في حضرة الله هو تصرّفٌ لا يتناسَبُ مع الحضرة الإلهيّة في شيء، ولو أنّهم سلُّوا خنجرًا وأغمدوه في صدري

لكان الأمرُ أسهل، وهم بهذا ربما يكونون قتلةً، إلا أنني سأرفع يدي وأبتهل إلى الله قائلًا: "إلهي! إنني لا أُريد -إن كان الأمرُ بيدي- أن أقفَ في حضرتِك دون العفوِ عن هؤلاء الناس"، وهكذا فإنني أتأثَّرُ بشكلٍ غيرِ عاديٍّ من أيّة لا مبالاة تبدُر من إنسان في صلاتِهِ.

وليس من الممكن أن يكون الإنسان مؤمنًا حقيقيًّا بدون صلاةٍ ولا دعاء، أو دون أن يؤدِّي صلاتَه بخشوع، إذ يقول الله جلَّ جلاله: **(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ∃ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)** (سورة الْمُؤْمِنُونَ: 23/1-2)،وصلاةُ المقيمين في هذه البيوت القدسيّة أكثر أهمّيّةً بما لا يُقاسُ من أن يفتحوا العالم بلا صلاة، فالحقيقةُ أنه لا يُتصوّر توفيقُهم ونجاحهم ما لم يجعلوا صلواتهم أهمّ قضايا حياتهم.

إنني دائمُ الهمِّ بهذا الأمرِ، ولا أستطيعُ أن أعرفَ إلى أيِّ مدى تحقَّقَتْ الاستفادة من بيوت النور هذه التي يمكن أن تتلافى إهمالًا تاريخيًّا كبيرًا، وهل كانت تلك الاستفادةُ بشكلٍ يتناسبُ مع هذه الغاية، ولكنني أريد أن أُحسِنَ الظنَّ قائلًا: "إن خلفاءَ بنِ أبي الأرقم سَيؤدُّون تلك البيوت حقَّها بإذن الله"، فلا تنسوا أن جميع الأمم التي اندثرت تحت التراب أو ستندثرُ تترقَّبُ أمثال هؤلاء الناس الذين نذروا أنفسهم للحقّ ونشؤوا في مثل هذه البيوت النورانيّة من أجل عمليّةِ بعثٍ وإحياءٍ شاملةٍ وعامّة، وبناءً على ذلك يُفهَم أن مهمَّة تلك البيوت المباركة التي نشأَ في أحضانها أولئك المتفانون لن تنتهي في أيِّ وقتٍ أبدًا.

إذن تعالوا -ناشدتكم الله- نتقنْ صلاتنا ونؤدِّ صيامَنا كما ينبغي... ولْنُصَلّ ونَصُمْ على نحوٍ يجعل الملائكة التي لا تزال راكعةً منذ أن خُلِقَتْ تتعجَّبُ قائلة: "يا له من جمالٍ وروعةٍ! ما أعظم عبادةَ هؤلاء الرجال!"، علينا أن نشتغل بذكرٍ وفكرٍ يجعل ساكني الملإِ الأعلى الذين يروننا بهذا الشكل يقولون: "إن هؤلاء الناس فحسب هم من يستطيعون إحياء الدنيا وإعمارها"، وعلينا نحن المحظوظين السائرين في طريق الحقّ أن نستثمِرَ هذه البيوت ذات الينابيعِ الخيريّة المحاطَةِ بآلاف الفيوضات لنحصلَ منها على أعلى درجاتِ الاستفادة، وألا نهدرَ وقتَنا مثلما يفعل الحمقى من الناس في القهقهات، وفي القيل والقال الذي لا معنى له على الإطلاق، ولا فائدة من ورائه لا في الدنيا ولا في العقبى، ولنجعل كلَّ بيتٍ من بيوتنا بيتَ نورٍ يُنيرُ العالمَ بأسره، أسألُ اللهَ العونَ والمدَدَ.

الزواج والأرواح التي نَذَرَت نفسَها للحقِّ

سؤال: ما مكانة الزواج ممّن يسعى لِيَجعلَ طريقَ الفوزِ برضا الله تعالى طريقًا عامًّا؟ وكيف ينبغي التفكيرُ والتحرّك في هذا الموضوع؟

الجواب: إنّ من سوء الأدب في نظري أن نقول لإنسانٍ نذرَ نفسه لله "أخِّرْ أمورَك الدنيويّة، وقدّم عليها الأمور الأخرويّة"، فقولٌ كهذا مخالفٌ في حدِّ ذاتِهِ للحقِّ والحقيقةِ، والفكر السليم والمنطِقِ الـمُحْكَمِ.

أجل، لو لم تكن قضايا المأكل والمشرب والعمل والكسب وتكوين الأسرة من مقتضيات الفطرة لَقُلْتُ في هذا الموضوع: "إنَّ من يُفكِّرون في هذه النوعيّة من الأشياء إنما يخونون منطقهم بأنفسهم؛ حيث إن هناك الكثير من الوظائف تنتظرُ الذين يتوقون إلى حقيقةٍ سامية"، إلا أن الحقَّ تعالى حين خلقَنا ونظَّم حياتنا جعلنا مرتبطين بمثل هذه الحاجات.

وأمثالُ هذه الضروريات الطبيعية والبشرية لا تُعدُّ داخلةً ضمن العبادة والطاعة وإنما على العكس من ذلك؛ فهي من جُملةِ القضايا الفرعيّة بالنسبة للمؤمنين الذين يركضون نحوَ العبادةِ والطاعة؛ وذلك حتى يتسنّى لهم أن يوجّهوا عالمهم الحسّي والمنطقيّ، تمامًا كما هو الحال في الإكسسوارات ذات البعد الجمالي الموجودة في سيارةٍ تُقِلُّكم من مكان إلى آخر، وبهذا يمكن القول على مثل هذه المسألة إنها مسألةُ إشباع للرغبات وإدراك للمتعة الروحية.

ومن جانب آخر، فَبَديهيٌّ أن كلًّا من الرجل والمرأةِ على حدٍّ سواء يحتاجُ إلى رفيقٍ في الحياة لأجلِ استمرارِ النسلِ والخدمةِ بفكرٍ مستقيم، فالإنسانُ بعد أن يكدَّ ويتعبَ حتى المساء يحتاجُ إلى من يتسامرُ معه، ويُشاطرهُ همومَهُ، ويتقاسمُ معه بعضَ الأشياء، ومن ثم يكونُ سندًا له، ومن هذه الناحية فلا بدَّ من أن يتزوَّجَ المرءُ حتى ولو كان طالبًا في الثانوية إذا ما اقتضت الضرورة ذلك؛ غير أنه ينبغي ألا نجعلَ هذه الأمورَ أبدًا غايةً لحياتِنا وهدفًا لنا مثلما ذكرنا، فالغاية الحقيقية من الحياة هي عبوديّة الحقِّ تعالى؛ وقد ذكر الله تعالى هذا في قوله: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** (سورة الذَّارِيَاتِ: 56/51)، ولم أرَ لهذه الآية تفسيرات متباينة عن بعضها، وكما يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "إنّ أسمى غاية للخلق، وأعظمَ نتيجةٍ للفطرة الإنسانية هي الإيمانُ بالله..."[29]. أجل، إن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته هي غاية هذا الأمر وثمرتُه، إنها التزود بالمعرفة، والانفعال بالمحبة، والوصول إلى

---

[29] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقدمة، ص 271.

الله بالوجد والجذب، وهل يليق أن يقول البعضُ: "لننتبهْ إلى مزاجنا وراحتِنا قليلًا!" في فترةٍ ذَلّتْ فيها الرقابُ، وانتُهكت الأعراضُ، واعتُديَ فيها على الشرف، وانتشر الكفرُ والإلحاد، وفي هذا الشأن يقول القرآن الكريم: **(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** (سورة البَقَرَة: 195/2)، وإنَّ التهلكةَ بمعناها الحقيقيِّ هي الخلودُ إلى المالِ والراحةِ وتركِ طريقِ الجهاد، فعن أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ القسطنطينية، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ الله الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا! فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: **(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** (سورة البَقَرَة: 195/2)، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ"، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ، شَاخِصًا يُجاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ[30].

لأجل ذلك أدرج علماء الإسلام مسألةَ الزواج في مبحث "المعاملات" كالبيع والشراء في السوق؛ ولم يُدرجوها ضمنَ مباحث العبادات والاعتقاد.

ومن ناحية أخرى فقد يكون الزواج فرضًا حينًا، وسنة حينًا، ومكروهًا حينًا آخر على اعتبار أنه أحد أوامر الدين. أجل، لو لم يكن هناك توجيه إلهيّ لكانَ على الإنسان أن يشعرَ في هذا الموضوع بالخجل كما قضاء الحاجة؛ أي عليه أن يقول:"ربي! اعفُ عنّي، إنّني أخجلُ من فعلِ هذا، ولكنّني أفعل هذا الشيءَ الذي جعلتَهُ جزءًا من حياتي، ومن ثمَّ أنا أحتاجُ إليه، حتى أستطيع أن أُفكِّر تفكيرًا سليمًا، ولا أمرّ بأزمةٍ مع الغرائز البشريّة، أنت تعلم أنّني اخترت هذا الطريق لأجلِ الخدمةِ في سبيلك".

وكم هو مؤسفٌ أن ينشغل بعضُ الأشخاص بهذا الأمر بمجرّد أن يلتحق بالمرحلة الثانوية ويمنّي نفسه بأفكارٍ من قبيل "لم يبقَ أمامي سوى ستّ سنوات على زواجي، سأفعل هذا عندما أجتاز المرحلة الجامعية"، وبعد انتهاء هذه المرحلة يقول: "حسن، لقد انهيتُ الجامعة الآن، وحان وقت هذا الأمر"، إنني شخصيًّا أعجزُ

[30] **سنن الترمذي**، التفسير، 3؛ **سنن أبي داود**، الجهاد، 23.

عن أن أوائِمَ بين هذه النوعية من الأفكار وبين فلسفتي في خدمة الإسلام والإيمان والقرآن.

لقد بدأتْ في هذه الآونة موجةٌ من الزواج تعوّل على الرؤية العاطفية وتؤدّي في النهاية إلى الطلاق؛ وهو ما يجعل قلبي ينفطرُ في مواجهةِ هذا كلِّهِ، وأتلوّى ألـمًا لوقوعِهِ، ومع أن هذه المسألة -التي إما أن تكون نعمةً علينا أو نقمةً- ينبغي أن يُعوّل فيها على العقلِ والمنطقِ؛ إلا أنّها تُبنى في عصرِنا الآن على الأحاسيس والمشاعر، حتى تؤولَ في النهاية إلى مصيبةٍ وكارثةٍ على رؤوسِ أصحابِها، هذا هو ما يحدث، في حين ينبغي التحرّك في مثل تلك المواقف وفقًا للمنطقِ والعقلِ، حتى لا يُفضي هذا الأمر إلى حدوث مضاعفات، فمسألةٌ مهمّةٌ كهذه ليسَتْ شيئًا يُفعَلُ لأجلِ المتعةِ والمزاج، فإن حدثَ وفُعِلتْ من أجل هذا وجبَ على الطرفين أنْ يتحمّلاها بشكلٍ متبادَلٍ حتى وإن كانت سُمًّا زعافًا، فالحياة الزوجيّة الواجبُ عدم إفشاءِ أسرارِها تقتضي عدمَ تسريبِ أيِّ شيءٍ خارجها حتى وإن تعرَّضَتْ لمصائب خطيرة. أجل، ربما يتأوَّهُ الأزواجُ قلقًا واضطرابًا بسببِ بعضِ المواقِفِ، غير أنه ينبغي ألا يَعلم الناسُ شيئًا عن تلك "الآهات!".

إنني أعتقدُ أنَّ عدمَ وضعِ فكرةِ الخدمةِ في المقامِ الأوَّل يَزيد من عددِ ضيِّقي الأفقِ الذين لا يدرون ما هي الغاية المثلى، ولم ترتبط قلوبُهم بهذه الفكرةِ الساميةِ؛ نظرًا لعجزِهم عن استخدام القابليّات التي منحَهم الله إيّاها، وعدم تكثيفهم الهمّة على فكرةِ الخِدمة، فليس غريبًا أن يُفكر هؤلاء الناس بأبدانهم وأجسامهم، ويتعلّقوا بهما، ويحصروا حياتهم بين المأكل والمشرب والشهوة الجنسية! في حين أن هناك نِعَمًا عظيمةً جدًّا تكمنُ في خلق الإنسان، فقد مُنح الإنسان ما قيمته ألف قطعة ذهبية، بينما منح غيرُه من الأحياء ما قيمته قطعة ذهبية واحدة...[31]، إذن لا يستطيع الإنسان العيش كغيره من الأحياء... فإن عاش سيُسأل عن هذا قطعًا...

إن الأصدقاء الذين يُفَكِّرون في الدنيا يبدون لي كأناس جهلوا وظيفةَ العسكرية، فتركوها وتفرّغوا للتِّجارة في الأسواق، فمن المحتمل أن أمثال هؤلاء لم يُعوّدوا على النظام بالقدْرِ اللازم كما في التدريب العسكريّ؛ ولو أنهم عُوِّدوا لقالوا حين يُعرَضُ عليهم شيءٌ كهذا -حتى وإن كانوا في الأربعين من عمرهم-:

---

31 "فالإنسان الذي خُلق في "أحسن تقويم" إذا حَصَر فكرَه في الحياة الدنيا وحدَها فسيهبط ويتَّضع ويصبح أقل شأنًا بمائة درجة من حيوان كالعصفور وإن كان أسمى وأتم من الحيوان من حيث رأسماله بمائة درجة". (بديع الزمان سعيد النُّورْسي، **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، النكتة الثالثة، ص 363)

"عجبًا يا إلهي! هل رأوا أنَّ لديَّ وقتًا فارغًا حتى يقترحوا عليّ عملًا جديدًا؟! كيف أستطيع تحمّلَ هذا الوضع الجديد بينما لا أستطيعُ بكلِّ من أُوتيت من قوّة القيام بالعمل المكلّف به! أم أن هؤلاء يحسبونني تائهًا شريدًا!"، يوجد في الوقت الحاليِّ أيضًا بضعُ أناس أعرفهم، هم في الخمسين من العمر يعيشون بفكرة: "إنني بحالتي هذه لا أستطيعُ أن أقوم حتى بالأشياء الواجب عليّ فعلها، ويتعذَّرُ علي أن أفعلَ هذين الشيئين معًا".

إن الأشخاص الذين يتوجهون لمثلِ تلك الأشياء قبل أن يأتي"الوقت المقدّر" رغم ارتباط قلوبهم بالإيمان والقرآن فإنهم وإن شعروا بالمتعة واللذة مؤقَّتًا سيتألمون ويتلوون كثيرًا ويئنُّون في الدنيا والآخرة على حدٍّ سواء، سوف يصطرخون لما فعلوه، ولكن بعد فوات الأوان، إنهم -نسأل الله السلامة- سيُعانون كثيرًا بسبب ما فعلوه وما هدموه من أشياء، وبإلحاقهم الضرر بفكرة "الشخص المعنوي".

إلهي! إن الجوَّ مُظلِمٌ، والطرقَ معقَّدةٌ متداخِلة، والسالكونُ شاردون تائهون، والوظيفةَ مقدَّسةٌ، والحمل ثقيل! والناس نائمون والعدوُّ قويّ والطالع سيِّئ! والعقبةُ كؤودٌ والطريقُ طويل، والفوزُ برضاك صعبٌ للغاية! إلهي فارحم ضعفَنا وعجزَنا وقِلَّتَنا.

اللهم إن علمَك بحالي يغنيني عن سؤالي! فأنت تعلم حالي، وأنت أقربُ إليَّ من حبلِ الوريد، لكنني أتوجَّهُ إليك بقلبٍ مُنْكَسِرٍ وعودٍ صدِئت أوتارُه، وريشةٍ محطَّمَةٍ بقيت بعضُ أجزائها في يدي، منذ سنوات وأنا أُريد أن أُصْدِرَ صوتًا موسيقيًّا بأن أقرعَ بعوديَّ المكسَّرَ بعضَ هذه الأوتارِ المهترِئَةِ، ولكن هيهات! إنها آلات بسيطة لا تصدر صوتًا ولا صدًى... إنني أشعرُ بالخجلِ من كلماتي هذه؛ فلربما أكونُ الآن جاحدًا بالجميل.

يا ربّ! إننا لا نستطيع أن نخطو ولو خطوة واحدة ما لم تحفَّنا بعنايتك وتلفَّنا برعايتك، اللهم أيِّدْنا بالتأييدات السبحانيّة حتى نَصِلَ إلى رِضاك، ولا تضلَّنا عن الطريق المستقيم! اللهم آمين!

الحوار في إطار الروح والمعنى المحمَّديّ

سؤال: كيف ينبغي أن يكون سلوكنا في الحوارات التي نجريها باسم الإسلام أمام مختلف شرائح المجتمع؟

الجواب: الحقّ أنه لو طُلب مني الإجابة عن هذا السؤال بجملة واحدة لقلت: "ينبغي لنا التحلّي بالروح والمعنى المحمدي (صلى الله عليه وسلم) على اتساع معنيَيْهِما ومرونتِهما"، وأقول أيضًا توضيحًا لهذهِ المسألةِ:

عند النظر إلى القرآن والسنة من هذه الزاوية، يمكنُ العثورُ دائمًا على الكثيرِ من الآياتِ والأحاديثِ التي تتعلَّقُ بالموضوعِ. أجل، يستطيع أيُّ إنسان إن تحامَلَ على نفسه، وأنعمَ النظرَ قليلًا في آيات القرآن الكريم أن يجدَ عشرات الآيات التي تُشكِّلُ أساسًا للموضوع، وأنا شخصيًّا لا أحبُّ الادِّعاء، ومع حفظي القرآن الكريم فإنني بشر يعتريني النسيان أحيانًا... وعلى الرغم من ذلك أستطيعُ أن أسردَ عشرات الآيات المتعلِّقة بالمسامحة والعفوِ والحوارِ واحتضان الآخرِ، وهذا يكشفُ جانبًا من جوانب الدين الإسلامي ويُظْهِرُ عالميَّته بكلِّ وضوح.

فضلًا عن ذلك ألَا يعني اسم "الإسلام" في الأصل السِّلمَ والتسليم والسلام والسلامة؟ وما دام الأمر كذلك فلا يمكنُ أن نكونَ مسلمين حقيقيّين ما لم نبلغْ كنهَ هذه الصِّفات ونمثِّلُها حقَّ التمثيل. أجل، إن احتضانَ الجميعِ والتقرُّبَ إلى كلِّ شيءٍ وإلى كلِّ إنسان بمبدإِ الحبِّ ينطوي تحت معاني اسم "الإسلام" ولكن إن لم نتناول الإسلامَ ونقيِّمه بهذه الروح فلا نُعتبر قد فَهِمْنا الإسلامَ حقَّ الفهم، ولا مثَّلْناه حقَّ التمثيلِ.

وإلى جانب تلك القواعد التي تُعْتَبَرُ ضمانًا لِلسِّلْمِ والأمانِ توجَدُ في القرآن الكريم آياتٌ تتعلَّقُ بالتصرُّفات الواجب اتِّباعُها في مواجهة قطّاع الطرق، والمتسبِّبين في الفوضى والإرهاب، وكذلك العقوبات الجنائيّة والحدود والقِصاص... إلخ وانطلاقًا من هذه العقوبات يُمكن الحديثُ عن ممارسات تاريخيّة كثيرةٍ مُورِسَتْ في عهدِ سادَتِنا: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وفي العصر الأموي والعباسيّ والسلجوقي والعثماني أيضًا، غير أننا نَصِلُ إلى آراء خاطئة إن هَمَمْنا بِتَقْيِيم تلك الممارسات بعيدًا عن الخطِّ التاريخيّ المرتبطة به، ومن ثم فإنه يشترط النظرُ إلى تلك الحوادث في إطار العلاقة بين السياق

والسباق، وتقييمُ كل شيء على هذا النحو. أجل، يمكننا القول إن السِّلْمَ والمحبَّةَ والعفوَ والمسامحةَ قاعدةٌ أساسيّة في الإسلامِ؛ بينما غيرها من الأشياء عَرَضِيٌّ.

ومن جانبٍ آخر؛ فلا بدَّ من تقديمِ الموضوعاتِ التي تُمَثِّلُ أولويّةً بالنسبةِ للمكلَّفين، والتي وَضَعَها الأقدمون في مقام الصدارة، فمثلًا؛ اهتمَّ الحقُّ تعالى بالحبِّ، وأعلنَ عن محبَّتِهِ لِمَنْ أَحَبَّهُ، فـ**"مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ"**[32]، وأطلقَ على أكثر إنسان أحبَّه اسم "الحبيب" كما قال النبيُّ عن نفسِهِ **"أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلَا فَخْرَ"**[33]، ولما كان الأمرُ كذلك تحتّم علينا نحن أيضًا أن نجعلَ هذا الأمرَ قاعدةً ونعطيه الأولويّة، أما الأحكام مثل: جهادِ المنافِقِين، والشدَّةِ على الكافرين هي على حدِّ قولِ الأقدمين: "ثانويّ وعرضيّ"، كما أن الشدّة عليهم ومجادَلتهم وقتلَهم حيث يجبُ القتلُ أمورٌ مُعلّقةٌ على أسباب متنوِّعةٍ؛ وهو ما يعني أن تلكَ الأحكام لن تُطبَّقَ ما لم تتحقَّقْ عِلَلها، ويمكنُنا أن نوضِّح الموضوعَ بشيءٍ من التفصيلِ كما أسهب الشيخ "زاهدُ الكوثري"[34] في الحديث عنه؛ حين حدد القرآن الكريم مصارف الزكاة ذكر من بين هؤلاء أيضًا "المؤلفة قلوبهم" فقال تعالى: **(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** (سورة التَّوْبة: 9/60)، وقد طبّقَ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم طوال حياتِهِ السَّنِيَّةِ، وليس هناك أيُّ دليلٍ حتى وفاته صلى الله عليه وسلم يُثبِتُ نسخَ هذا الحكم، غير أن سيدنا عمر رضي الله عنه ردّ شخصين من "المؤلَّفة قلوبهم" في عهد أبي بكر رضي الله عنه بعدَ أن جاءا لِأَخْذِ نصيبَيهِما من الزكاة، ومزّقَ حجَّتَهم المكتوبة الذي كان بحوزتِهما، وقال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألَّفكما والإسلام يومئذٍ ذليلٌ وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أعزَّ الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما إن أرعيتما"[35]، قال هذا وصرفهما، وربما أنكم الآن عاجزون عن استيعاب إلغاءِ سيدنا عمر رضي الله عنه

---

32 انظر: **صحيح البخاري**، الرقاق، 41؛ **صحيح مسلم**، الذكر، 14، الجنة، 63.

33 **سنن الترمذي**، المناقب، 3؛ **سنن الدارمي**، دلائل النبوّة، 8.

34 **محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري** (1878-1952م): ينحدر من أصل جركسي، درس الفقه الإسلامي في جامع الفاتح بالآستانة ثم أصبح مدرِّسًا فيه ثم أصبح رئيسًا للمدرسين فيه وعُيِّن وكيلًا للمشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية إلّا أنه اضطر للهجرة إلى مصر بعد إقامة دولة الجمهورية التركية التي أسسها "كمال أتاتورك"، حيث استقر فيها عام (1922م) فعيّن موظفًا في دار المحفوظات المصرية لترجمة الكتب والوثائق التركية، وله مؤلفات دينية كثيرة قد تزيد على خمسين مؤلَّفًا ومنها: "الإشفاق على أحكام الطلاق" و"تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب" ورسالة "إحقاق الحق وإبطال الباطل" و"مُغيث الخلق في ترجيح القول الحق".

35 البيهقي: **السنن الكبرى**، 32/7.

لحكمٍ طبَّقَهُ سيِّدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنَّنا إذا ما نَظَرْنا إلى المسألة من زاويةِ العلومِ الإسلاميّة وجدْنا أنه رضي الله عنه أدركَ علة هذا الحكم الوارد في القرآن الكريم الذي ربط هذه العطيَّة بتأليفِ القلوب، فحكمَ عمرُ رضي الله عنه وفقًا لذلك، من منطَلَقِ أن "زوال العلّة يعني زوالَ الحُكْمِ".

وهكذا فقد بُنِيَتْ الأحكامُ الواردةُ في القرآن الكريم مثل القتلِ والنفيِ والحربِ على أسبابٍ متنوّعةٍ من هذا القبيلِ، فإن انتفَت تلك الأسبابُ كان الشيءُ الذي يجبُ فعله حينئذٍ هو "الوعظُ والنُّصحُ" و"الأمر بالمعروف"، و"القول الليّنُ"، والحديثُ عن محاسنِ الإسلامِ بأسلوبٍ وطورٍ ليّنٍ رقيقٍ، وممّا يؤسَفُ له أنَّ القائلينَ بالقتلِ والضربِ والتحطيمِ ممَّنْ فهِموا القرآنَ مثلما فهمه الظاهريون، ولم يضعوا تلك الأسباب في اعتبارهم؛ قد عجزوا عن فهمِ الحكم ومناطِه، وعن فهمِ الإسلامِ أيضًا.

غير أنّهُ حين تتحقَّقُ الأسبابُ المؤدِّيةُ لتلك الأحكام يُعمل بها قطعًا في إطار مناطاتها، فمثلًا: لو حاولوا قتلكم أو الاعتداء على وطنكم وأنتم تُعلُون كلمة الله ألن تُعْلِنُوا الحربَ عليهم؟ ولو اجتمع الأعداء وأغاروا عليكم تمامًا كما فعلوا في "جناق قلعة"، فهل ستركنون إلى زاويةٍ وتقولون لهم: "أحسنتم أنكم جئتم**!**" أم أنكم ستقاتلونهم بأرواحكم؟.

انظروا إلى حال العالم الذي نعيش فيه**!** هناك حروبٌ ساخنة لا زالت مستمرة في ستٍّ وخمسين بقعة من العالم؛[36] حسب خبرٍ أورَدَتْه إحدى الصحف قبل بضعة أيام، فالولايات المتّحدة الأمريكيّة التي تُصَدِّرُ الديمقراطيّةَ للعالم وتُعْلِي من شأنِ الفلسفةِ الإنسانيّة حاربت خلال الربع الأخير من القرن العشرين فقط في كلٍّ من "فيتنام" والخليج العربي، وأعلنت أن السودان وليبيا إرهابيَّتان، وكانت متشبِّثَةً دائمًا بأنّها تفعل ذلك باسم الديمقراطية، فهل هي الولايات المتّحدة فحسب من يفعل هذا؟ بالطبع لا؛ إذ لا تزالُ شلّالات الدماء والدموع تسيل في كثيرٍ من الأماكن في الخطّ الممتدِّ من الروسِ إلى الصِّرْب، ومن الفرنسيين إلى الإنجليز... إذن معارضة الحرب وإنكارُها تمامًا يعني منافاةَ الفطرة البشرية، لذلك فعلينا يقينًا أن نُدافع عن أنفِسنا حين يعتدون على حُرِّيَّاتِنا وحقوقِنا الديمقراطيّة، ونحاربَ إنْ لزمَ الأمرُ، غير أن كلَّ هذه الأمور -وكما ذكرتُ أوَّلًا- أشياءُ عارضة يُلجَأُ إليها عند الضرورة، والقاعدةُ الأساسيّة في الإسلام هي الصلح والسلم واحتضانُ الإنسانيّة بمودّةٍ وحبٍّ.

[36] كان هذا العدد في التسعينات من القرن المنصرم. **(المترجم)**

وثمة جانب آخر من المسألة المتعلّقةِ بالسؤالِ هو ضرورة زيادة "نقاط الاتفاق" ومحاولة التركيز على القواسمِ المشترَكَةِ مع مَنْ نُحاوِرُهم من الناس، والحديث حولها، وينبغي لكم أن تتصرَّفوا وفقًا لهذه الفكرة ذاتها حتى وإن كان مخاطبوكم يهودًا أو نصارى، كما ينبغي السكوت مؤقتًا عن أمورٍ قد تُفَرِّقُنا عن بعضِنا البعض؛ فمثلًا؛ إن لم تتَّفِقوا معهم في الأمور العقائديّة مثل الإيمان بالله وحده والإيمان باليوم الآخر... ألخ، فلا معنى لتحديثكم إياهم عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع العِلمِ أنَّ رسولَنا صلّى الله عليه وسلّم هو روحُنا وحياتُنا، والموتُ أولى وأفضل لنا من حياةٍ بدونِهِ، غير أن تحديدَ الوقتِ المناسِبِ للحديثِ عنه مهمٌّ جدًّا.

إن القرآن الكريم يقول مخاطبًا أهل الكتاب: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 64/3) ما هي تلك الكلمة؟ إنها: **(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 64/3) وذلك لأنّ الحرّيّة الحقيقيّة لا تتحقّقُ إلا بالتخلُّصِ من عبوديّة غيره تعالى؛ إذن هلمّوا، فلنتَّفِق ونتوحَّد معكم حول هذا الموضوع الذي من الممكنِ جعله قاسمًا مشتركًا بيننا وبينكم، ويقول أيضا: **(وَلَا يتَّخذ بَعْضنَا بَعْضًا أَرْبَابًا من دون الله)**، ويقول في آيةٍ أخرى: **(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** (سورة الْجَاثِيَةِ: 14/45)، أي سامحوا من لا يؤمنون بالآخرة والبعث بعد الموت؛ لماذا؟ **(لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون)** أي إن الله هو من سيعاقبهم إن شاء، وهذا أمرٌ لا يعنينا.

وثمة مثال حيٌّ آخر في هذا الموضوع يحذّر فيه ربُّنا جلَّ جلالُه سيِّدَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وينهاه عن الدعاء على المشركين: فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: **"كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟"**، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 128/3)[37]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ؛ **"اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كَسِنِي يُوسُفَ، اللهُمَّ الْعَنْ لِحْيَانَ**

[37] **صحيح مسلم**، الجهاد، 104.

وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ"، ثُمَّ بَلَغَنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا أنزلَ الله: **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 128/3)[38]، وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلاَةِ: **"اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا"** حَتَّى أَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)**[39]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ، اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ، كُنَّا نُسَمِّيهِمُ القُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ[40].

كما أسلَفنا قبلَ قليل إلى أن نزلَ قول الله تعالى: **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 128/3). والعارف هو من يعي أن هذه الآية تشتمل أيضًا على عتابٍ لطيفٍ. أجل، إنه عتابٌ لا يؤذي قلبَ الرسولِ الرقيقِ؛ أي تذكير له صلى عليه وسلم بمسلكِهِ ومنهجِهِ وكأنّه يقول له: "لأيِّ شيءٍ تتدخَّل في الأمور التي لا تعنيك في حين أنها ليسَتْ من شأنِك".

وكما هو ملاحَظ في الأمثلة التي عرضناها سابقًا فإن الوقوفَ على النقاط المشتركة والحديثَ حولها أهمُّ مسألةٍ في عمليّة الحوار.

وبهذه المناسبة فإنني أريدُ أن أقصَّ عليكم قصةً سمعتُها قبل سنوات؛ حتى أزيدَ الموضوعَ وضوحًا، أرسل عالم كبير طلابه إلى كلِّ أنحاءِ الدنيا، وقد جاء أحد منهم إلى مدينة يعيش فيها أهل الديانات الأخرى مع المسلمين فكان الحاخامات والقساوسة يأتون للسماع منه وهو يَعِظُ الناسَ، وذات يوم راحَ يُحَدِّثُ تلك الجماعة من الناس عن وجودِ الله تعالى بِلُغَةِ الحقائقِ العلميّة، فيقول مثلًا: "هناك أربعون ألف ذرّة في الخليّة الواحدة، وتكوُّنُ الخلايا بهذا الشكلِ ربما يتطلَّبُ قدرًا معيَّنًا من الأصفار يتجاوزُ العشرة، وهو ما يصعبُ علينا قراءته..."، أو يقول: "إن ست مائة مليون طن من ذرّات الهيدروجين تتحوّل إلى هليوم في الثانية الواحدة تحت تأثير الشمس... إلخ"، ويقول في نهاية تلك الأمثلة: "يا كبيرَ الحاخامات! ألا يدلُّنا ذلك على وجودِ الله؟" فَيُصدّق كبيرُ الحاخامات على كلامه، وفي المرة الأخرى يسأل

---

38 **صحيح مسلم**، المساجد، 294.

39 **صحيح البخاري**، الدعوات، 58.

40 **صحيح البخاري**، المغازي، 30.

أحدَ القساوسة الشيءَ نفسه، فيجيب القسُّ أيضًا: "أنت مُحِقٌّ يا سيدي الشيخ!"، غير أنه في إحدى المرات تحدث عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فاعترضَ عليه القسُّ والحاخام من فورِهما قائلَين: "سيِّدَنا الشيخ! لا تُفسد اعتقادَنا!".

أجل، إن الرسول صلى الله عليه وسلم روحُنا ومهجتُنا، فلْتَهلك الحياةُ بدونه صلى الله عليه وسلم! لكنَّنا إن كنّا نفعلُ شيئًا لِأَجْلِهِ وجبَ علينا أن نُحَدِّدَ الوقتَ المناسِبَ جيِّدًا لذلك، وينبغي أن نحسبَ جيّدًا ماذا وأين ومتى نتحدّث؟ والحاصل؛ أن التركيزَ على النقاطِ المشتركةِ أحدُ أهمِّ النقاطِ الواجبِ علينا التنبّه إليها في الحِوار.

وأخيرًا ينبغي لنا أن نُحَدِّدَ مُسْبقًا الأشياءَ التي سنتحدَّثُ عنها مع من سَنُحاوِرُهم من الأشخاص تحديدًا جيِّدًا؛ فمثلًا إن كنَّا سنتحدَّث إلى مُلحدٍ عن وجودِ الله فيجبُ علينا في هذا الحديث أن نستَخْدِمَ اللغةَ والأسلوب والمصطَلَحات التي يفهمها، وإن كنَّا سنتحدَّث مع المتشكّكين في القَدَرِ أو في كونِ مفخرةِ الإنسانيّة (صلى الله عليه وسلم) "خاتم سلسلة النبوّة" فعلينا أن نكون قد فهمنا تلك المواضيع فهمًا ودرايةً ودراسةً، وأن نختارَ الوقت المناسب ومن ثمّ نتحدَّثُ حولها؛ أي إنه ينبغي أن يكون الأساسُ هو جسُّ نبضِ كلِّ إنسانٍ والتحدُّث معه وفقًا لمستواه.

غير أنني أقول -بالنظر إلى المرحلة الزمنيّة التي نعيشها- إنه ليست هناك مشكلة في الحديث عن مسائل كتلك المتعلّقة بالعقيدة، فثمَّة توجُّهٌ وإقبالٌ على الدين في العالم كلِّه في اليوم الحاضر، ومن ثمّ فإنني على قناعةٍ بأن تمثيل الدين قد اكتسب أهمّيّةً أعظم في الوقت الحاضر. أجل، هناك حاجة اليوم إلى أولياء الله الأعفّاء الحذِرين المخلِصين الشرفاء الحسبيّين المحتسِبين الذين لا يُهدِرون أوقاتهم بالتفكيرِ بأنفُسِهم، الزاهدين بِلَذَّةِ المتعِ الدنيويّة، المتعفِّفين عن التشوُّفِ لشيءٍ منها... فلو استطاع المجتمعُ العثورَ على أناسٍ تحلّوا بهذه الأوصاف فستتَّجِهُ إليهم جميع الضمائر الطاهرة أفواجًا، وتجدُ الطريقَ الصوابَ بالتأكيد، وأظنُّ أن هذا هو سبب الثِّقةِ التي يحظى بها رجال الخدمة في الفترات الأخيرة، أسأل الله ألا يُزيغنا عن الطريق المستقيم! اللهم آمين!

نموذج للنهضة

سؤال: هل يمكن أن يتخلَّصَ المسلمونَ من أغلالِ الأسر التي يرزحون تحتها اقتصاديا وسياسيًّا واجتماعيًّا... إلخ؟ وما الأسس الواجب مراعاتها في هذا الشأن؟

الجواب: إن الإسلام دينٌ ضَمِنَ لأتباعِهِ من البَشَرِ سعادةَ الدارَين؛ الدنيا والآخرة، وكما يستطيعُ كلُّ فردٍ ارتبَطَ قلبيًّا بالخِدمة الإسلاميّة أن يجعلَ كلَّ لحظةٍ من لحظات حياته الشخصيّة والأُسَريّة والاجتماعيّة عبادةً -بشرط أن تكون تلك هي نيّته الأساسية-؛ فإنه يستطيع أيضًا أن يجعلَ كلَّ عمرِه عبادةً إِنْ جعلَ حياته العمليّة تدورُ في فَلَكِ الخدمة لدين الله عز وجل.

وعلى المسلمين أن يكونوا قوّةً ثريّةً لها الهيمنة دائمًا في كلِّ مكانٍ من الدُّنيا؛ إذ لا يمكن لهم أن يواكبوا العالم في يومنا الحاضر ما لم يُحَقِّقوا تفوُّقًا اقتصاديًّا وعلميًّا.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم: **﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾** (سورة النِّسَاءِ: 141/4)؛ أي إن الله يُذكِّر بأسلوبٍ قدسيِّ أنه لا يرضى أن تكونَ للكفَّار الغلبةُ والهيمنةُ على المؤمنين، وانطلاقًا من هذا يُمكِن القولُ إن مِن الوَبالِ أن يكونَ المؤمنُ - فردًا كان أو جماعةً- خاضعًا لِحسابات غيرِ المؤمنين.

فمثلًا؛ إن كان الآخرون هم من يُحَدِّدون الحياةَ الاقتصاديّة دائمًا بينما نحن لا نزالُ في مكانِنا لا نتقدّمُ إلى الأمام، وليس ثمة جهدٌ وسعيٌ للتخلُّصِ من هذا الفقرِ والمذلّة فهذا يعني أننا نأثم دائمًا؛ لأن المفسِّرين يَرَون أن الله جلَّ جلالُه يتحدَّث في تلك الآية عن حقيقةٍ تاريخيّة في الظاهِرِ؛ فقد عاش المؤمنون حقيقةً حياةَ الأَسْرِ مرات كثيرة في تاريخهم حين دخلوا تحت سلطة الكافرين، وإن كان الأمر كذلك فهذا يعني تناقض حالَتهم تلك مع الحقيقة التي أخبرَ عنها القرآن الكريم، والقرآن يقول صدقًا ويُخْبِرُ عن الحقّ دائمًا، وعلى ذلك فإن العبارة الواردة في الآية ليست جملةً إخباريّةً تُخْبِرُ عن واقعةٍ ما، بل جملةٌ إنشائيّةٌ تدلُّ على هدفٍ مُعيَّنٍ، وتُحدّدُ غايةً ما، ومن هذه الناحيةِ فإنه يُشْتَرَطُ على المؤمِن استخدامُ كلِّ الآليّات التي من شأنها أن تُحقِّقَ له التفوّق في مختَلَفِ المجالات، فإن كلَّ شيءٍ في الدنيا مرتبطٌ بالعِلم، وهو ما قالَهُ المفكِّرُ الأمريكيُّ والخبير في الدراسات الكونيّة المستقبليّة "توفلر (Toffler)" منذُ عهدٍ قريب، وكما أن المجتمعَ العاجزَ عن تملُّك المقوّمات العلميّة في مواجهةِ الجهلِ يُمثِّلُ ضربةً قاضيةً للتطوُّرات التقنيّة والعصر الذي يعيشُ فيه؛ فكذلك المجتمعُ الذي لا يتحلّى بالوِفاق والاتّفاق ولا يُحارِبُ التفرقةَ

والتشتُّتَ سيُجَرْجِرُ أذيالَ الهزيمةِ أمام أبناءِ عصرِهِ أيضًا. أجل، إن هذا العالم إن لم يتغلَّب على التناقضات والاحتكاكات الكامنة بداخلِهِ وهو يؤسِّسُ اتحاداتٍ مثل اتّحاد أوروبا الغربيّة؛ فلن يستطيع الصمود طويلًا أمام القوى التي تواجهه، وسيضطر لِقَبول الهزيمةِ أمامها لانعدامِ أيِّ خِيَارٍ آخر.

ومن ناحية أخرى فإن الأمةَ التي لا تبحثُ عن سُبُلِ الثَّراءِ في مواجهةِ الفقرِ والحاجةِ آيلةٌ للسقوطِ تحت هيمنةِ الآخرين آجلًا أو عاجِلًا، والأمة المسلمة التي يُحكَم عليها بهذا تُعْتَبَرُ آثمةً ومسؤولةً عن ذلك عند الله؛ لأنها قَبِلَتْ بالخضوعِ لِـهَيمَنَةِ الكافرين؛ لذا فعلى المسلِمين أن ينقادوا لمبادئ الإسلام الدين المبين وأن يمتثلوا لِقوانين الشريعة الفطريّة أيضًا؛ لأنَّ الامتثال للشريعة الفطرية أمرٌ واجب في حكم الواجب يأتي ضمن القاعدة الأصوليّة "سد الذرائع".

وانطلاقًا من هذه الفكرة الأساسيّة ينبغي لِكلِّ مؤمنٍ أن يَجِدَ سبيلًا ما للثَّراءِ؛ على أن يكون ذلك في إطارِ دائرةِ الشرعِ، وينبغي دمجُ الثروات إنْ لزمَ الأمرُ، ولا بدَّ من السَّيرِ نحو الاستثمار في كلِّ المجالات السائدة الصالحة للمنافَسَةِ في الداخلِ والخارِجِ، ويلزم ألا تُنسى التأثيرات الاقتصادية في هذا الشأن كي نحتضن العصورَ القادمةَ ونُحوّلَ الزمانَ بِكُلِّ جوانِبِهِ لِصالِحِنا من خلالِ أشخاص مربّينَ ومزوَّدين بالعلوم الدينيّة والطبيعيّة، ويتوجَّب استردادُ القوّة الاقتصاديَّة ممّن يستحوِذُون عليها في الآونة الراهنة، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى في القرآن الكريم أنَّ الأرضَ له يورثُها عبادَه الصالحين،فقال تعالى: **(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)** (سورة الأَنْبِيَاءِ: 105/21).

إذن فالمؤمنون مُطالَبون بِاستِردادِ مكانهم في التوازُنات العالميّة التي فرّطوا فيها لِغَيرِهم نتيجة جهلِهِم وعدمِ عملِهِم على نحوٍ منسَّقٍ، ومن ثَمَّ يُشتَرَط على المؤمنين أن يكتشِفوا السبلَ إلى الثروةِ داخليًّا وخارجيًّا، فيَصِلوا إليها ويُحقِّقوا الثراء؛ وهؤلاءِ الذين يرغبون في المحافظة على المال ويهتمّون بأن تتبوَّأَ بلدُنا بكلِّ جوانبِها المكانَ اللائق بها في التوازنات الدولية ؛ ربما يكون -حسب نيّاتهم- العملُ بالتجارةِ بالنسبةِ لهم وسيلةً للحصولِ على ثوابِ مَن يُرابِطُ في مواجهةِ العدوِّ، فقد يكونُ الخيرُ في أمورٍ تبدو شرًّا في بعضِ الأحيان.

ومن ذلك مثلًا؛ طرحُ المؤمن ما في باطنه من فضلات وقضاؤه حاجتَه ليؤدِّي الصلاةَ في طمأنينة، وكذلك قوله **"غفرانك"**[41] عند الخروج، واستبراؤُه كي

[41] **سنن أبي داود**، الطهارة، 17؛ **سنن ابن ماجه**، الطهارة، 10.

يتوضّأَ وضوءًا صحيحًا، واستماعُه الأذان باهتمام وتركيزه في الصلاة... ألخ، كلّ واحدةٍ من هذه الأمور عبادةٌ من العبادات؛ والنتيجةُ تصبغُ الوسيلةَ بصبغتِها، فكل سببٍ مشروعٍ في طريق الخير ويؤدي إلى الخير خيرٌ، وكلُّ سببٍ يؤدي إلى العبادةِ عبادةٌ كما يرى الفقهاءُ، فإن كان الأمر كذلك كانت تنميةُ الدولة اقتصاديًّا وتعليميًّا، وتحقيقُ وحدِتنا واتّحادنا، وكلُّ محاولة اقتصاديّة وصناعيّة من أجل أن يتبوّأَ المسلمون مكانهم اللائق في التوازن الدولي في حُكم العبادة أيضًا.

وثَمَّةَ مسألة أخرى ينبغي التنويه بها هنا؛ ألا وهي تضامُنُ المؤسَّسات المهنيّة عبرَ إقامة تنظيمٍ جادّ فيما بينها. أجل، ينبغي أن يتَّحِدَ أربابُ كلِّ مهنةٍ فيما بينهم، ويسيروا نحو عملٍ مُنَظَّمٍ؛ فيُكوّنوا -بإذنِ الله تعالى- قوّةً منيعةً، ومع أننا لا ننوي منافسةَ أحدٍ على الإطلاق؛ غير أنه من الأهمِّيَّةِ بمكان أن يجتمعَ ويتّحِدَ هؤلاء الناس الذين يُحبُّون بعضَهم، ويرغبون في أن يربَح إخوانهم بقدرِ ما يربحون أنفسهم، وينتمون إلى الفكرة ذاتها، وطبيعيٌّ أن اجتماعًا واتحادًا بهذا الشكلِ يختلف كثيرًا عن شتّى أنواع الاتحاد القائمة على نيّات أخرى، وثمة حاجةٌ لِتلك النوعيّة من المحاولات من أجل الكشفِ عن مثل هذا الاختلاف؛ فمثلًا يمكن أن يجتمع كما حدثَ في اليابان رجالُ الأعمال الشباب والراشدون والمسنُّون في بلدِنا أيضًا؛ فَيُنَظِّموا المعسكراتِ والحلقاتِ الدراسيّة، ويتدارسوا القضايا الخاصة بأعمالهم وحِرفهم تدارُسًا متعمّقًا، ومن ثم يستطيعون في ختام تلك المدارسات أن يدعموا بعضَهم في كل ما سينفّذونه من أنشطةٍ اقتصاديّةٍ داخليًّا وخارجيًّا، ويستطيعون السير نحو القمّة في ظلِّ الوعيِ الجماعي إن أقرّوه بدلًا من المحاولات الفرديّة.

تحقق الأفكار المثالية

سؤال: كيف يستطيع من يخدم في مجتمع تنتشر فيه كلّ أنواع الانحراف والحرب على القيم أن يوازنَ بين الواقعِ والفكرةِ المثاليّة؟ وما هي أوصافُ الأشخاص القادرين على إحداثِ هذا التوازن؟

الجواب: إن انتشارَ الانحرافات المختلفة واضطراب القيم في المجتمع الذي نعيش فيه حقيقةٌ لا تُنكَر، وإنَّ انبثاق النظام من فوضى على هذا النحو أمرٌ في غايةِ الصعوبة؛ لأن كلَّ فوضى تُولِّد فوضى جديدة، وهذا من المسلَّماتِ في السنن الكونيّة والنظريّات العِلمية، وهنا يمكن الحديثُ عن وجودِ نوعٍ من "الحتميّة" في البنيةِ الاجتماعيّة، غيرَ أنها "حتميّة" مشروطة؛ لأنه حتى وإن كان النظام والإيقاع الموجود في عالمنا الذي نعيش فيه عبارةً عن خطٍّ افتراضي من ناحية عقيدتنا إلا أنها تتضافر منذ القدم حول إرادة الإنسان، ولو أننا درسنا الإنسانَ في إطارِ أُسُسِ الفيزياءِ والفيزياءِ الفلكيّةِ -التي يمكننا تعريفُها بأنّها عمليةُ سيرِ الحوادث الموجودة في الطبيعة وبلوغها نقطة معينة-؛ فقد أنزلناه حينئذ إلى دركِ الجمادات، في حين أن الإرادة هي الميزةُ التي أنعمَ الله بها على الإنسانِ خصّيصًا، فمَازَهُ بها عن سائر المخلوقات التي لا إرادةَ لها، ونظرًا لأن الإرادة كامنةٌ في هذه المسألة فقد يحدثُ نوعٌ من الفوضى عند القيام بالتجديدات والإصلاحات المتعلِّقة ببني البشر، ويُمكن في مثل تلك الفترة الزمنية تحطيم الدائرةِ الفاسدة في التقلبات البشرية بما فيها التحوّلات والتغيّرات والانهيارات، وإقامةُ الدائرة الصالحة -بعونِ الله- مقامَها، أي إقامة الحلقة الولودة بدلًا من الحلقة العقيمةِ.

وإذا ما استقرَأْنا هذه الحادثة لأَلْفَيناها حاضرةً على مدار التاريخِ، وهي اليوم تطرحُ نفسَها بقوّة في إطار "تكرُّرِ التاريخ ودورانه الدؤوب"، فمثلًا؛ لقد هامَ بنو إسرائيل على وجوهِهم في صحراء "التيه" أربعين سنة دون غاية ولا هدف، إلا أنَّ هذا الدوران في وادي التيه كان ذا غاية معيّنة، وسيطروا يومًا ما على قَدَرِ المنطقة التي حلّوا بها، وفي النهاية صار بنو إسرائيل الذين كانوا منغلقين على المادة تمامًا في فترة معينة جماعةً ململمةَ الشمل مجمعة ومنفتحة على الميتافيزيقيا بسبب الرسائل المتوالية التي كان يسديها سيدنا المسيح عليه السلام لهم فأحدثت وقعًا كبيرًا في نفوسهم.

وهناك الكثيرُ من هذه الأمثلة عبرَ التاريخ؛ فقد رُوّج للزّنا في العصرِ الجاهليّ الذي تفسَّخَتْ فيه كلُّ القواعدِ الأخلاقيّة وانقلَبَتْ بنيةُ الأسرة فيه رأسًا على عَقِبٍ، وكما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "أخرج الله جلّ جلاله من هذا المجتمع الذي

تفسَّخت فيه كلُّ القيم الأخلاقية أناسًا صاروا معلِّمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدِّنة"[42]، كلُّ هذا يدلُّ على أن العوامل التي نُسمِّيها الحسّ والشعور والإرادة أشياء لا يمكن تجاهلُها، وهذه العوامل تُميِّزُ الإنسان عن المخلوقات المسخَّرة لِأَمْرِهِ كما تُميِّزه عن باقي المخلوقات المشابِهَةِ له في الكون؛ وإن كان يأنسُ بها.

وكما انبثَقَ رعيلٌ مثاليٌّ أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ رضي الله عنهم من المجتمَعِ الجاهليِّ الهمجيِّ الغابر؛ فإنه من المتوقَّعِ أيضًا من حيثُ المنظور التاريخيّ أن يتمخَّضَ مجتمعُنا المعاصر عن أجيال جديدة -بعون الله تعالى- من شأنها أن تبعثَ فينا الأملَ، ويتحقَّقُ ذلك طالما غرسْنا فيهم عشقَ الإيمان؛ لأن من يغرس العشقَ والشوقَ هو مَنْ يغرس الأملَ أيضًا. أجل، إنما يتغذى الأمل بالإيمان، ولا يمكن أن يكون ثمة أملٌ أبدًا عند فاقدِ الإيمان: "بما أن الإيمانَ الحقيقيّ نورٌ وقوةٌ؛ فمن يظفر به يستطيعُ أن يتحدّى الكائناتِ ويتخلّصَ من ضيق الحوادثِ، مستندًا إلى قوّةِ إيمانه"[43]، ولأجل هذا فإن تغذيةَ الأجيال القادمة بنور الإيمان وترسيخه وتعميقه في صدورِهم أمرٌ مهمٌّ للغاية.

والأساس الثاني بعد الإيمان هو العلم، فهما مرتبطان ببعضِهما في الأساسِ وكأنهما وجهان لِعملةٍ واحدةٍ، وإنْ سُعِيَ لإظهارهما في يومنا الحاضر وكأنهما متناقضان، وقد فتح الإنسانُ البابَ بالإيمانِ على عشقِ الحقيقة، وعشقُ الحقيقة يولّدُ عشقَ البحث لدى الإنسان، وعشقُ البحث يُولّدُ عشقَ العلم؛ ومن ثمّ فلا بدَّ من محبَّة العلم لدرجةِ العشقِ، وهذا يتطلَّبُ عدم التغاضي عن عشقِ الحقيقة؛ لأن عشقَ الحقيقة يعني خدمة الإنسانيّة، وأرى أن المشاكلَ برمّتِها سواء كانت مادِّيَّةٍ أو معنويّة يمكن حلُّها بكلِّ سهولةٍ عند ربطِها بهذين الأمرين.

ويُمكنُ، من جانب آخر، إضافةُ عشقِ المسؤولية أيضًا إلى هذه الأُسُسِ، فتحمُّلُ قسمٍ من المهام في سبيل الدين والأمّة والوطن إذعانًا لمشاعرِ الوظيفة والمسؤولية فحسب، ودون التشوُّف إلى أيّة مصلحةٍ مادّيّة ومعنويّة، وإكسابُ الشباب مثل هذا الشعور بالمسؤولية؛ إنّما هو في الحقيقة خطوةٌ مهمّة من الخطوات على طريقِ التخلُّصِ من هذا الاعوجاجِ، وعندما نتحرَّكُ بمثل هذا النوعِ من روحِ المسؤولية ينقلِبُ تخلّفُنا إلى تقدّم.

---

42 انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة التاسعة عشرة، الرشحة السابعة، ص 257.

43بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الأول، النقطة الثالثة، ص 349.

وختامًا فإن عُمّال الفكر الساعين لجعلِ الطريق المؤدِّيةِ إلى رضا الله تعالى الطريقَ الرئيسَ ينبغي لهم ألا يتعلَّقوا قطعيًّا بِطولِ الأَمَلِ؛ كي نستطيعَ التقدُّم نحو المستقبل الذي نشتاقُ إليه كأمّة... أجل، علينا أن نفنى حتى نحظى بتجلِّيات الوجودِ في العدم، وهذا أكبرُ دليلٍ وأعظمه على وجودِ الأشخاصِ الذين يحقِّقُون أفكارَهم المثاليّة في ذلك المجتمع المشار إليه في السؤال والذي انقلَبَتْ فيه القِيَمُ رأسًا على عَقِبٍ.

الطاعة: نتيجةٌ طبيعيةٌ للشورى

سؤال: أحيانًا ما تكون هناك أشياء تتنافى مع عقلِنا ومنطِقِنا، ومع ذلك يجب الانقياد والإذعان لها، فكيف ينبغي لنا أن نفهمَ الطاعة في تلك النقطة؟

الجواب: إن الطاعةَ والانقيادَ -بالمعنى الذي نفهمُهُ نحنُ- عبارةٌ عن تنفيذ القراراتِ والاجتهاداتِ والرؤى التي طَرَحَها الرؤساءُ في المؤسَّسات الرسميّة كالمؤسّسة العسكريّة والأمنيّة، أو التي اقترحها القائمون على حركات المجتمَع المدنيّ، أو التي صدَرَتْ عن مجلسِ شورى مكوّنٍ من عدة أشخاص يعتَدّ برأيهم الجميعُ، غيرَ أنه لا يَحِقُّ لهؤلاء الرُّؤساء أو الذين يُشَكِّلون مجلسَ الشورى أن ينتظِروا الطاعةَ والانقياد الكاملَ لها في المبادرات المدنيّة.

فلا بدَّ من أن تَصْدُرَ القضايا والقرارات دائمًا عن مشورةِ هيئةٍ معيّنةٍ؛ على اعتبارِ أن الوقتَ هو وقتُ تعبئةٍ على الجميع أن يشترك فيها كي تتبوَّأَ أُمَّتُنا مكانها الذي تستحقُّه في التوازنات الدوليّة، ولا بدّ من الامتثالِ المطْلَقِ لما يُتّخَذُ من قرارات، لأن المشورةَ والطاعةَ يبدوان كوجهين مختلِفين لشيءٍ واحدٍ، وهما عنصران مهمّان في الحياةِ الاجتماعيّة الإسلاميّة.

وكما ورد ذِكْرُهُ في السؤالِ؛ فإن الجميعَ قد لا يقتنعون أحيانًا بالأمور التي اعتمدَتْها الأغلبيّة، وربما لا يقبلونها، وهذا يقتضي أن يتحدَّث أعضاءُ مجلسِ الشورى عن الفروق في الاجتهادات، وألّّا يوافقوا على كل مسألةٍ دون رويَّةٍ، وأن يُورِدُوا شرحًا للرأي الذي يُخالِفُ ما اتَّخذوه من قرارات كي يُخلِّصوا أنفسَهم من المسؤولية أمام الله تعالى، والأصلُ أن هذا هو المعنى الحقيقيّ للشورى، فإن اتُّخِذَ قرارٌ رغمَ معارضةِ البعضِ فعلى هؤلاء المعارِضين ألا يتفوَّهوا ولو بكلمةٍ واحدةٍ ضدَّ هذا القرار، وعليهم الانصياع له؛ لأن هذه النوعيَّة من الأحاديثِ تعني الغِيبَةَ لِطائفةٍ نَذَرَتْ نفسَها لِخِدمةِ اللهِ وتبليغِ رسالَتِه، ولما كانت الغِيبة إخلالًا بحقوقِ ثلّةٍ تخدمُ الحقَّ تعالى؛ فقد تصعبُ نجاةُ ذلك الفردِ المغتابِ، ويتعذَّرُ دخولُه الجنة ما لم يذكر ما قالَه بِحَقِّ كلِّ واحدٍ تحدَّث عنه، ويطلب العفوَ والسماحَ منهم فردًا فردًا.

على الجميعِ أن يُذعِنَ لِلْقرارات الـمُتَّخَذَةِ في مجلسِ الشورى، فمثلًا؛ إنْ اتُّخِذَ قرارٌ بغالبيّة الأصوات في مجلسِ الشورى بالذهابِ إلى مكانٍ ما، وفي أثناءِ الذهابِ إليه حدثت -لا قدَّرَ الله- حادثةٌ في الطريق؛ فإن قولَ معارضي هذا القرار بناءً على تلك الحادثة: "ألم نَقُلْ؟... لو لم نذهبْ لما وقعَتْ هذه الكارثة... لكنَّكم لم

تُصغوا لِكلامِنا فحلَّت بنا تلك المصيبة**!"** يُعتَبَرُ غيبةً للأصدقاءِ الآخرين، ناهيك عن كونِهِ نقدًا لِلْقَدَرِ.

والتزام رسول الله بهذا الأمر مُلْفِتٌ جدًّا للانتباه: إذْ تشاورَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم مع صحابتِهِ قبلَ غزوةِ أُحُد؛ وكان رأيُهُ البقاءَ داخلَ المدينةِ وخوضَ حربٍ دفاعيّة، غير أنَّه تقرَّرَ -نتيجة الاستشارة التي أُجْرِيَتْ- الخروجُ من المدينة وخوضُ حربٍ هجوميّة، والتزامًا منه بهذا القرار توجه سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم إلى أحد، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله صَلى الله عَليهِ وسَلم قَالَ: **"رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا تُنْحَرُ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ: الْمَدِينَةُ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ -وَاللهِ خَيْرٌ- فَلَوْ أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ؟"**، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا دُخِلَتْ عَلَيْنَا فِي جَاهِلِيَّةٍ، فَيُدْخَلُ عَلَيْنَا فِي الإِسْلَامِ**!**؟ قَالَ: **"فَشَأْنَكُمْ إِذًا"**، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: رَدَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلى الله عَليهِ وسَلم رَأْيَهُ، فَجَاؤوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله شَأْنُكَ، فَقَالَ صَلى الله عَليهِ وسَلم: **"الآنَ؟! إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ"**[44].

أجل، إنّ للشورى مكانةً مهمّةً في الإسلام وفي حياةِ المسلمين؛ فالمدينةُ إن هُدِمَتْ فمن الممكن إعمارها من جديد، أما إن تقوَّضَ ركنٌ من أركانِ الإسلامِ في عهد التشريعِ فَمِنَ المتعذَّرِ إعادةُ إنشائِهِ من جديد، وإذا كان الأمر كذلك فعلى كل فردٍ في هيئةِ الشورى أن يطرحَ ما لديه من أفكار طيِّبةٍ، ويسعى لأن يتبنى الجميع تلك الأفكار الجميلة... وبالطبع يتوجَّب عليه الامتثال للقرارِ الآخر.

وكل الأُسُسِ التي سعيتُ لعرضها حتى هذا الموضع هي أمور متعلِّقةٌ بالطاعة، وثَمّة جانبٌ آخر من هذه المسألة -مهمٌّ أيضًا بقدْرِ أهمّيّة الطاعة- ألا وهو المسؤوليّة الواقعةُ على عاتِقِ المسؤولين في المؤسّسات الرسمية فيما يتعلّق بالإلزام بالقرارات، والتي تقع كذلك على كلّ قائمٍ على الأمر في حركات المجتمعِ المدنيّ، والذي يعتدّ به الجميع، والحياة السَّنِيَّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مفعمةٌ بأمثلةٍ لهذا كلِّه، ومن ثمّ فإنَّ دراسةَ حياةِ سيِّدِ الأنبياءِ صلى الله عليه وسلم من هذا المنظورِ تُسْهِمُ في استخراجِ المبادئِ العامّةِ التي تعمل على الانقيادِ والطاعةِ.

والآن دَعُونَا نلقِ نظرةً عابرة على بعض الوقائعِ التاريخيّة التي جَرَتْ على هذا النهج:

---

[44] **سنن الدارمي**، الرؤيا، 13؛ **مسند الإمام أحمد**، 351/3.

لقد كان العرب في العصر الجاهلي يتحرّكون تحرُّكًا فرديًا إلى حدٍّ كبيرٍ، حتى إن أصغرَ مسألةٍ كان بوسعِها أنْ تُشْعِلَ فتيلَ الصراعِ المسلَّحِ بينَ الأُسَرِ والعشائِرِ والقبائل، فكان من شبهِ المستحيلِ ألا يقعَ الخلافُ بين أفرادِ مجتمعٍ كهذا، أو أن يُذْعِنَ البعضُ للبعضِ الآخرِ، فقد تمزّقَتْ قبائلُ كثيرةٌ وكبيرةٌ وتقطَّعَت أوصالُها في تلك الفترة في كلٍّ من مكّة والمدينة؛ فكانت تستلُّ سيوفَها حين يتعذَّرُ عليها أن تجدَ من تخاصمه في الخارج، وتتحاربُ مع بعضها البعض.

ومن ثم فإنّ تطويرَ فكرةِ الطاعةِ في مجتمعٍ كهذا وجمعَ أفرادِهِ حولَ رئيسٍ واحدٍ، حادثةٌ عُظمى تُشكِّلُ دليلًا على رسالةِ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنني أرى أن كُتّابَ فقهِ السيرة لم يتنبّهوا لهذا الأمر، أجل، لقد صنعَ سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم من جماعة بدويّة كانت تتناحر فيما بينها جماعةً متحضرةً تستمِع لبعضِها البعض، وتتناصحُ وتَتَشاوَرُ وتُطِيعُ.

وفي إطار المنطق السائد في تلك الفترةِ لم يكن العربُ ينظرون إلى العبد -ولا سيّما الأسمرِ البشرة- على أنّه بشرٌ قطُّ، فكانوا وكأنّهم يرون أن لله عبدَين قال لأحدهما: "كن شيطانًا!" فصار وكان أسودَ -وهناك كثير من الزنوج اليوم يفكرون عكس ذلك- ولذلك لم يكن من حقِّ بلالٍ الحبشي رضي الله عنه، ولو حتى دخول الغرفة التي يتناول فيها "أمية بن خلف" طعامه؛ أي كانَ ثمة نقاشٌ دائر حول كون العبدِ إنسانًا، أو لا؟ ولقد كانَ حول العبيدِ سُودِ البشرةِ إشارات استفهامٍ كثيرة؛ منها: هل هم من جنسِ البشرِ أو الحيوانات؟فلما جاء الإسلام رفع العبيد إلى مكانةٍ عاليةٍ، ومن ذلك على سبيل المثال؛ أن سيدنا "بلال الحبشي" الذي كان أسودَ الشعرِ أجعدَه، غليظَ الشفتين، الذي كان ينطق الشينَ سينًا لعُجمَتِهِ، فيقول "أسهدُ" بدل "أشهد"... هذا العبدُ الـمُفدّى كان يستطيعُ أن يُعَبِّرَ عن رأيِهِ ويتدخَّلُ في الأحداث بين الأشراف في "بدرٍ"، وله حقُّ دخولِ البيتِ النبويِّ والخروجِ منه؛ كـ"ابن مسعود" رضي الله عنه.

وهناك أيضًا زيد بن حارثة (رضي الله عنه) عتيق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد عيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدًا للجيشِ الذي كان يضمُّ أبطالَ الحربِ ودهاتها الأشراف مثل: جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين، وأمَّره على حربٍ في غايةِ الأهمّية، فنحّى هؤلاءِ الكماةُ مفاهيمَ الجاهلية جانبًا، وأطاعوا سيدنا زيدًا رضي الله عنه مع أنه عبدٌ عتيق.

انظروا إلى تجلِّي القَدَرِ العجيبِ؛ فبعد مرور سنوات عديدة عيَّنَ سلطانُ الأنبياء صلى الله عليه وسلم أسامةَ بن زيد بن حارثة (رضي الله عنهما) قائدًا على أحد الجيوش الزاحفة صوبَ "بيزنطة"، وفي هذه المرة أيضًا كان في الجيش كِبارُ الشخصيّات وعمالقةُ الصحابة مثل سادتنا: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، ولما أمّره قال: **"إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ"**[45].

وثَـمّة حادثة أخرى جرت على نفس المنوال في عصر السعادة، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: **"لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ"**[46].

وانطلاقًا من هذا وما شابهه من أمثلةٍ يمكن أن نقولَ: إن من المهام التي تقعُ على عاتق الإداريين في المؤسَّسات الرسمية والأشخاص الذين تقبّلهم الجميع في حركات المجتمع المدنيِّ أن يستكْشِفوا السرَّ الذي أقصى الصحابةَ عن ذلك المنطق العربيِّ الجاهليِّ، وانتزعه من جذرِ قلوبهم، وعوضهم عنه بمشاعر الطاعةِ وفكرتها، وحثّهم على تطبيقها في الحياة، وفي هذا الإطار فمن المهمّ للغايةِ في يومنا الحاضر أن نتحرَّكَ بشكلٍ يُوافِقُ معيارَ الأستاذ بديع الزمان، وهو أن: "لا يَدَّعِيَ الأخُ على أخيه الأبوّة، ولا يتزيَّا بزيِّ المرشدِ له"[47]، ويمكن فهمُ هذا على أنه عدمُ استعباد الناس، وعدمُ اعتبار المنصب عنصرًا للضَّغْطِ والقمعِ، والعملُ بالنفس وإعمال الغير في إطار المساواة.

أجل، إن أمكنَ تطبيق هذه الأمور على الحياة لما وقعَ على الإطلاق أيٌّ من السلبيّات المذكورةِ في السؤال، والحادثةُ التي وقَعَتْ بين زيد بن ثابت وابن عباس

---

[45] **صحيح البخاري**، المغازي، 44، 88؛ **صحيح مسلم**، المناقب، 45.
[46] **صحيح البخاري**، المغازي، 61؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، 39.
[47] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، **المانع الثاني للإخلاص**، ص 229.

رضي الله عنهما ذات بُعدٍ يتجاوز آفاقنا الفكرية؛ إذ إنّ زيدَ بنَ ثابت رضي الله عنه ركب يومًا، فأخذ ابنُ عباس رضي الله عنهما بِركابِهِ، فقال: تنحَّ يا ابنَ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هكذا أُمرْنا أن نفعلَ بعلمائِنا وكبرائِنا، فقال زيدٌ: أَرني يدَكَ، فأخرجَ يدَه، فقبَّلَها فقالَ: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهلِ بيتِ نبيِّنا[48].

وأظنُّ أن المرؤوسين لن يستثقلوا أمر الطاعة من الرؤساء إذا ما نمّى فيهم هؤلاء الرؤساءُ شعورَ المعاملة بالمثل، وكذلك لن يعاني هؤلاء الرؤساءُ عند تكليف مرؤوسيهم ببعض الأشياء خشيةَ عدمِ طاعتِهم لهم.

وخلاصةُ القولِ: إن الشورى سلوكٌ نبويٌّ، بينما العمل المنفردُ سلوكٌ شيطانيٌّ، أما الطاعة فهي نتيجةٌ طبيعيّةٌ للشورى، وقد كان ديدَنُ الرسلِ على مدار تاريخ البشرية إعمالَ مبدإِ الشورى رغم أنهم مؤيَّدون بالوحي، وخلافًا لذلك فإن الفراعنةَ -أيًّا كان عدَدُهم- بدءًا من رمسيس إلى أمنوفيس، ومن سزار إلى نابليون؛ ومنه إلى هتلر المجنون وستالين ولينين، كلُّهم تلامذةُ الشياطين الذين يتزيَّون بزيِّ إنسانٍ مُستبدٍّ بالقرار.

---

[48] ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، 326/19؛ الكاندهلوي: **حياة الصحابة**، 192/3.

الفصل الثاني

البعدُ الفكريّ

الشراكات التجارية في عصر الشركات متعدّدة الجنسيّات

سؤال: ما هو السبب في عدم قدرة الشراكات التجارية على تحقيق النجاح الذي أحرزته الشراكات الأجنبية؟ وما الأشياء التي يمكن فعلُها لِتحقيقِ نفسِ المستوى من النجاح؟

الجواب: ينزلقُ العالمُ مسرِعًا نحو فترةٍ تُرَوّجُ فيها الأعمالُ الكبيرة الحجمِ في المجالِ التجاريِّ والسياسيِّ والثقافيِّ وغيرها من المجالات، وأتذكَّرُ أنني ذكرتُ مرارًا وتكرارًا ونحن على أعتابِ مرحلةٍ كهذه، أن ثـمَّة "انتخابًا وغربلةً طبيعيّةً" ستتحقَّقُ مستقبليًّا في الحياة الاقتصاديّة والتجاريّة، وأنّ الصغارَ سوف يتهاوَون وينتهون، وأن الكبارَ سيستمرُّون ويصمدون؛ ولذلك فلا بدَّ من تأسيس مراكزِ أعمالٍ كبيرةٍ عن طريق توحيدِ رؤوسِ الأموالِ والجهود، غير أنني لا أرى إلى الآن تحقُّقَ هذا الأمر بالدرجة المطلوبةِ والمأمولة.

أجل، ينبغي لكلِّ مستثمرٍ يهتمُّ بالحياة التجارية في يومنا الحاضر أن يعلمَ أن التقدُّمَ نحو المستقبَلِ يستحيلُ أن يتحقَّقَ بواسطةِ دكاكين البقالةِ الصغيرةِ المتناثرةِ عند كلِّ ناصية، وإذا كان الأمر كذلك؛ لزم تأسيسُ شراكات كبرى تحت قيادة أشخاص ثقاتٍ، مطَّلعين على السوق، ويتمتّعون بالكفاءَةِ والقدرةِ اللازمة.

وإنَّ اتّساعَ الأفقِ التركيِّ اليوم وابتداءَه مرحلةً جديدةً في الحياةِ التجاريّة مرهونٌ بمدى الانفتاحِ على التطوُّرات الجديدة، إلى جانبِ الانفِتاحِ على دُوَلِ آسيا الوسطى، وإنني على قناعةٍ بأنَّ تلك التطوُّرات ستوفِّرُ الكثيرَ من الإمكانيّات لإنسانِنا وبلدِنا.

أوَّلًا: لا بدَّ من إنشاءِ شراكاتٍ كبيرةٍ في رؤوسِ الأموالِ من أجل استثمار هذه الفُرَصِ جميعِها استثمارًا صائبًا من حيث المكان والزمان تحت ضمانة بعضِ المصارف ومؤسسات التمويل، وإن كنّا قد تأخَّرنا قليلًا في الانفتاحِ على العالم الخارجيّ.

ثانيًا: لا بدَّ من تنفيذِ ما سيُنجَزُ من أعمالٍ بواسطةِ فريقِ عملٍ مدرَّبٍ حتمًا، ولا بدَّ من إسناد العملِ إلى أهله إن لم يكن الشركاء في رأس المال أهلًا له.

ويجب منعُ بعضِ المساهمين في الأعمال التجارية من التدخُّلِ في الإدارة مهما كانت لديهم من خبرات تجاريّة صغيرة الحجم، فلا بدَّ أن يُدير العملَ فريقٌ مؤهَّلٌ تمامًا، وإلا فإذا كان التصرف على أساس فكرة "لا بد أن أتدخَّلَ في الإدارة بقدرِ حصّتي"؛ فإن الفشلَ سيكون نتيجةً حتميّةً لا شكَّ فيها.

والأمر الثالث المهمُّ أيضًا هو -في رأيي- ألّا يضعَ الإنسانُ كلَّ مالِهِ دفعةً واحدةً في أيّة شراكة. أجل، ينبغي عدمُ البَدْءِ في العملِ بتهوُّرٍ كي لا نرزحَ تحت ما يُسمِّيه "شكسبير (1564-1616م)": "أكونُ أو لا أكونُ"، فعلى كلِّ إنسانٍ أن يتركَ وراءَهُ قدرًا من مالِهِ يُشكِّلُ أساسًا لمعيشَتِهِ وحياتِهِ، ويُعطيَ الباقيَ كرأسِ مال، إذ سيكون لهذا مجموعة من الفوائد التي تتعلَّقُ بمستقبلِ تلك الاستثمارات؛ لأنَّ مثل تلك الاستثمارات الكبيرة -ولا سيما إن كان الانفتاح على الخارج أمرًا مطروحًا- ربما لا يُحَقِّقُ ربحًا لمدَّةٍ طويلةٍ قد تبلغ ما بين الخمسِ والعشرة سنوات، وحتى لو حقَّقَ ربحًا فسيتعذَّرُ توزيعُه على المساهمين، ونظرًا لاستحالةِ العيشِ دون توفُّرِ دخلٍ معيَّنٍ في هذه المدّة الزمنيّة فسوفَ يتعرَّضُ الشخص لمجموعة من الأزمات، ويرزح تحت بعضٍ من التشوُّفات، فما دام الأمر كذلك لَزِمَ أن تكونَ الشراكةُ المنعقِدةُ وكأنّها عملٌ إضافيّ.

ومن جانب آخر؛ يتحتّم تطبيقُ ما اتُّخِذَ من قرارات في بداية الأمر أيًّا كانت، وكذلك الالتزامُ بما وُضع من قواعد، فمثلًا؛ إن قيلَ عند بداية العمل: "إن الربحَ لن يُوزّع حتى تُصْبِحَ شركتُنا قادرةً على المنافسة"؛ وجبَ ألا تُوَزَّعَ الأرباحُ حتى تُصبِحَ المؤسَّسات مهيَّأةً بالفعلِ للمنافَسَةِ، وحتى تتبوَّأ مكانتها اللازمة في الأسواق، ولا بدَّ من أن يسيرَ كلُّ شيءٍ في إطارِ ذلك المبدإ أيًّا كان نوعُ السَّير الذي يقتضيه ذلك العمل، ويجب الانتظار زهاء ربعِ قرنٍ من الزمان من أجل الاستقرار على نظامٍ معيَّنٍ إنْ لزم الأمر، وينبغي للمؤمِنِ أن يبتَعِدَ عن فكرةِ الثراءِ الفاحِشِ والكَسْبِ الكثيرِ مرّة واحدة، وإلا فلا بدَّ أن يتحمَّل الضررَ الذي سينتج عن فكرةٍ كتلك.

أما **الشيء الرابع** فهو ضرورة أن توضَعَ المزايا الدنيويّة البحتةُ في الاعتبارِ عند تأسيسِ الأعمالِ الدنيويّة؛ إذ يتوجّب ألا تُتناولَ الحياةُ التجاريّة كأُسُسِ العبادةِ، فعديدٌ من القواعدِ الموضوعةِ حول التجارةِ لم يذكرْها القرآنُ الكريم، ولم يُصَرِّحْ بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنّها قواعدُ من وَضْعِ الفقهاء بشكل عام، ويجب ألا يُفهم هذا على أنه يعني إمكانية مباشرة أشياء حرَّمها الإسلامُ عند الاشتغال بالتجارة. أجل، يجب سلوك الطرق التي يتحقق من خلالها االثراء، غير أنه يتوجب الانتباه إلى ضرورة ألا تكون تلك الأمور منافية لروح الكتاب والسنة.

وفي هذا الإطار يمكن الحصول على التوكيل التجاري لبعض الشركات الأجنبية، وعند اللجوء إلى هذا ينبغي عدم التغاضي عن الفروق الكامنة بين بنيات المجتمعات عند استيراد البضائع.

بالإضافة إلى أنه ليست هناك مشكلة في تسويق البضائع التي تُنتَجُ في بلادٍ مثل اليابان وأمريكا، فهي تعرض في الأسواق الخارجية عبر قنوات الدولة، وهذا بالطبع يعني أن الإنتاجَ لديهم أكثر من الاستهلاك، وهذا الأمرُ زاد من الرغبة هناك في الاشتغال بالتجارة ودفَعَ إلى الاستمراريّة فيها، أما أهلونا فينتجون ويُسوِّقون بأنفسهم ما ينتجونه من بضائعَ على حدٍّ سواء، وهذا تمامًا خلاف الشيء الذي عرضته آنفًا؛ ويعني أن الاستهلاك لدينا أكثر من الإنتاج.

لقد صارت الثروة في يومنا الحاضر ﴿دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾ (سورة الْحَشْرِ: 7/59) كما ورد في القرآن الكريم، ولا يُنفق منها ولو قرش واحد في سبيل الخير، ولكلِّ دولة حدٌّ معيَّنٌ من الطاقات والثروات يُسيطِرُ عليها البعضُ فحسب، ولا يسمح للآخرين بالاستفادة منها، وإنني أحملُ بِداخِلي أملًا كبيرًا بأننا عندما نُشكِّلُ هذه النوعيّة من الشراكات التي تحدَّثتُ عنها سابقًا فإننا سنُحطِّمُ هذه السلسلة التي شكَّلَتْها قوًى ظلاميّة محدّدة.

العلاقة بين العلم والعمل

سؤال: لا يمكن إنكار العلاقة بين العلم والعمل في الوصول إلى مرتبةِ الإنسان الكامل؛ فكيف لنا أن ننظرَ إلى هذه المسألة من منظورِ القرآن الكريم؟

الجواب: لا يمكن في جلسةٍ واحدةٍ شرحُ مسألةٍ كُتِبَ حولها العديد من الكتابات على مرِّ التاريخ شرحًا مفصلًا، غير أنني أُحَاوِلُ الإجابةَ عن سؤالِكم في إطارِ آيَتَينِ اثنَتَين قد خَطَرَتَا ببالي؛ إذ يقولُ القرآنُ الكريم: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (سورة الْجُمُعَةِ: 5/62)، ويقول أيضًا: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (سورة الأَعْرَافِ: 176/7).

وبِتَدَبُّرِ هاتَين الآيتين يتَّضِحُ استخدام القرآن الكريم لأسلوب التشبيه في الآية الأولى لبيانِ حالِ أولئك الذين ما استفادوا شيئًا مما حصّلوه من معلومات طيلةَ حياتِهم، فكان تشبيهُهُ إيَّاهُم بـ"الحمار يحمل أسفارًا" لأن هذه النوعية من الأشخاص تستطيع التعبير عن أحوالها على هذا النحوِ فحسب؛ ذلك لأن هذه العلوم تُشَكِّلُ حِمْلًا ثقيلًا على صاحِبِها إذا لم يُطَبِّقْها ويستغلّها في حياتِهِ الفرديّة والاجتماعيّة.

أما في الآية الثانية فيُشبّهُ القرآنُ الكريمُ الإنسانَ الذي يغلق عينيه عن الحقِّ والحقيقةِ -مع أنهما خُلِقَتَا مُنْفَتِحَتَين عليهما- بالكلب، ولا بدَّ من التركيز على هذا التشبيه، والنظرِ إليه باعتبارِهِ تشبيهًا تحذيريًّا، فالكلبُ حينَ يتعبُ يُحاوِلُ التخلُّص من حرارتِهِ عبرَ عمليّة اللهثان، وحين يغضبُ يُحاولُ أيضًا التعبير عن ذلك عبر عمليّة التكشير عن الأنياب... أي إن هذا هو حالُ الناس الراغبين عن الحق والحقيقة، ولِلْعِلمِ فإنَّ الإنسان يُدعى بواسطة هذه الأمثلة وما شابهها إلى أن يكون إنسانًا كاملًا، فمثلًا؛ يُوجّهُ الإنسانُ إلى السلوك الإنساني من خلال تجنُّبِ القيامِ بتصرُّفاتٍ حيوانيّة أثناء الصلاة؛ ويسري هذا التوجيهُ والتنبيهُ على كلِّ أفعالِ الصلاة؛ بدءًا من القيامِ إلى الركوعِ، ومنه إلى السجود، ومن الأمور التي يمكنُها أن تُشكِّلَ أمثلةً لموضوعِنا: أنه ينبغي ألا يسبق المأموم الإمام لا في ركوعٍ ولا في سجودٍ؛ فربما يستحيل وجههُ وجهَ حمار، فلقد قال صلوات الله عليه: **"أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ، أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللهُ**

صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ"[49]، وألا يمد ذراعيه في السجود كما يمدهما الكلب، وألا يتعجل في الجلوس بين السجدات فينقرها كنقر الديكة، وألا يتلفَّتَ في الصلاةِ كتلفُّتِ الثعلب، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثَلَاثٍ، وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ: "أَمَرَنِي بِرَكْعَتَيِ الضُّحَى كُلَّ يَوْمٍ، وَالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَنَهَانِي عَنْ نَقْرَةٍ كَنَقْرَةِ الدِّيكِ، وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْكَلْبِ، وَالْتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ"[50]، لأن الإنسانَ هو أكرمُ وأشرفُ مخلوقٍ، فلا ينبغي له أن يتشبَّهَ بالحيوانِ ولو بحركاتِهِ؛ وعليه أن يعيشَ دائمًا قاصدًا الآخرة.

والواقعُ أنّ مَن يتحدَّثُ القرآنُ عنهم في هذه الآية هم أهلُ التوراةِ الذين يحفظون الآيات ولا يُطبّقُونها على حياتهم رغمَ حفظِهم إيّاها، بيد أننا لا نستطيع تجريدَ أنفُسِنا من هذا الوضع، ولا أن نعتقِدَ بأن الآية خاصةٌ بأهلِ التوراة حتى وإن كان هذا هو الواقعَ؛ إذ تجبُ دراسةُ وتناوُلُ حالِ مَنْ خاطَبَهم القرآنُ، وتلقُّوا أوامرَ الله، غير أنهم عجزوا عن تزيين حياتهم بالجوانب المضيئةِ من هذه الأوامر؛ فكانوا فحسبُ مجرَّد حَمَلَةٍ للقرآن؛ تجبُ دراستُهم في إطارِ الحقيقةِ التي بيَّنَتْها هذه الآية حتى وإن كانوا من أهل القرآن الكريم، لأنّه لا يمكن التعبيرُ بشكلٍ أجمل من هذا عن حال إنسانٍ تعلَّمَ القرآنَ الكريم، وشرحَهُ للآخَرين، بيدَ أنه عجزَ أن يصلَ بواسطتِهِ إلى عمقٍ مختلِفٍ.

إنني أعتقد أننا إذا قيَّمْنا الذين يندرجون تحت الفِئَةِ التي عبَّرَتْ عنها هذه الآية من حيث معاييرهم الأخلاقية فَسَيَثْبُتُ لدينا وجودُ أخلاقِ الحميرِ عند البعضِ، وأخلاقِ الكلاب عند البعض الآخر، فمثلًا؛ قد يغدو أحدُهم -رغمَ ما يحملُه من العلومِ- ذا نمطٍ حِماريٍّ بسببِ تصرُّفاتِهِ العامّة ما لم يكن لديه شيء من المعرفةِ والمحبَّةِ، كما أنَّ الإنسانَ الذي يستخدِمُ المعرفةَ في التحكُّمِ في الآخرين، ويتعالى على غيرِهِ من الناسِ حين تُخْتَبَرُ تصرُّفاتُه بكلِّ جوانِبِها سيتبيَّن أنها عينُ تصرُّفات الكلْبِ.

والأهمُّ أن يكونَ الفردُ إنسانًا بمعنى الكلمة، فالله جلَّ جلاله خلقَنا إنسانًا، وحمّلَنا مسؤوليّة حمايةِ هذهِ المرتبةِ التي مَنَحنا إيّاها عبر تصرُّفاتِنا وأخلاقنا، لأنَّ الحِفاظَ على الإنسانيّة الحقَّةِ في الدنيا، هو الضمانُ الوحيدُ والمهمُّ للبقاء بِصِفَةِ إنسانٍ في الآخرة.

---

[49] **صحيح البخاري**، الأذان، 53؛ **صحيح مسلم**، الصلاة، 114.

[50] **مسند الإمام أحمد**، 468/13؛ أبو يعلى الموصلي: **المسند**، 306/6.

إن الإنسان مخلوق متغيّرٌ لدرجة أنه يستطيع التغيير في اليوم الواحد أربع مرات، وكلُّ يومٍ جديدٍ يفتحُ أفقًا جديدًا للإنسان، فيستطيعُ أن يرى ماهيَّتَهُ وماهيّة من حوله أحيانًا، فمثلًا الإنسان الذي يرى مَنْ حوله من الناس أعداءً قد يَظُنُّ نفسه يعيشُ بين الثعابين، في حين أن هذا ليس شيئًا آخر سوى أن ماهيته قد استحالت إلى ثعبان، وهو ما يعني أن ذلك الإنسان تعرض لعدوان نفسه عليه، ولكن لأنه أَبَى أن ينسب هذه الحالة لنفسه أخذ يبحث عن الثعابين والكلاب والعقارب فيمن حوله من الناس بشكل عام.. يبحث، غير أنه لا يعثر على شيء بأي حال من الأحوال؛ ذلك لأن الثعبان الحقيقي هو نفسُه ذاتُها، والأصل أنه ينبغي له البحثُ عن ذلك الثعبانِ في نفسِهِ عملًا بفحوى: **"أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ"**[51].

وفي إطار حقيقة **"اَللّٰهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ"**[52]؛ ينبغي للجميعِ أن يعرفَ أن ما يقعُ من سوءٍ إنما هو من عندِ أنْفُسِهِم، وعليهم محاولةُ سَتْرِ عيوبِ الآخرين ومساوئهم، وعلى الجميع أن ينسبَ إلى نفسِهِ الأخطاءَ والعيوبَ حتى يأتي بحلول للمشاكِلِ التي تبدو وكأنها لا تُحَلُّ، وأن يرى نفسَهُ مصدرًا للشرِّ، والآخرين مصدرًا لِلخير... وهذا هو الطريقُ الأمثلُ لِحَلِّ جميعِ المشاكل، وهو أيضًا عينُ ما تقتضيه التربية العامة.

---

[51] البيهقي: **الزهد الكبير**، 156/1.

[52] **صحيح البخاري**، الدعوات، 2؛ سنن الترمذي، الدعوات، 15؛ سنن أبي داود، الأدب، 100.

حولَ مصادر المعرفة

سؤال: كيف ينبغي أن يكون فكرُنا وموقفُنا العام تجاهَ التيّارات الفكريّة مثل: الوضعيّة والمذهب العقلي، والتي يعتبِرُها الغربُ مصادرَ للمعرفة؟ وإلى أيِّ مدى تُعَبِّرُ هذه التيّارات عن الواقع؟

الجواب: إن أسبابَ العِلمِ -وفقًا للإسلام- ثلاثةٌ؛ أوّلُـها: أعضاء الحواس التي نُسمِّيها الحواسّ السليمة، ويسمِّيها الأقدمون المبصَرات والمسموعات... والأشياء الداخلة في مجال اهتمامها، ووفقًا للرأي الذي يعتبرها المصدرَ الوحيد للمعرفة؛ فإن الشيءَ الذي يتعذَّرُ الحصولُ عليه بواسطةِ أعضاء الحواس يستحيلُ أن يكونَ موضوعًا للمعرفة والتجربةِ على الإطلاق؛ فما لا يمكنُ تأييدُه بأعضاء الحواس لا يمكن تأييده بالمعرفة والتجربة، فهذا المذهبُ الـمُسمّى في الغربِ بالوضعيّة (Positivism) تَعَرَّضَ للاضطرابِ بين الحين والآخر؛ لأنه بَنَى كلَّ شيءٍ على أعضاءِ الحِسِّ والتجربة، إن هؤلاء -بأبسطِ مثال- قد ظنُّوا العودَ الذي أدخلوه بالماء تحت أشعة الشمس قد صار ملتويًا منكسِرًا، واعتبروا أنَّ هذه هي الحقيقةَ، وانتقدوا كل فكرة مخالفة لهذا، وهاجموها.

أما السببُ الآخر من أسباب العلم فهو "العقل السليم"، وهذا هو ما يُسمَّى في تاريخ العلوم الإسلامية بـ"العقلانية (Rationalism)" ويُعرَفُ في يومِنا الحاضِرِ باسمِ المذهبِ العقليّ، إن المذهبَ العقليَّ منهجٌ موجودٌ منذ قديمِ الزمان، وهو يعتبرُ عقلَ الإنسان وذهنَهُ المصدرَ الوحيد لِلمعرفة، ويُدافعُ عن ذلك، وتعني صفةُ "السليم" المستخدمة هنا العقلَ الذي لم يُقَيِّدْهُ أيُّ شيءٍ، فيستطيعُ إدراكَ وتقييمَ الأشياء بحالتِها الصافية والمجرَّدة، غير أنَّ المذهبَ العقليَّ لا يُمثِّلُ بمفردِهِ معيارًا كافيًا في الوصول إلى العلمِ الحقيقيّ.

إذًا هناك حاجة إلى مصدر آخر يصحح الأخطاء الناجمة عن كِلا سَبَبَي العِلمِ؛ ألا وهو "الخَبَرُ المتواترُ" أي "الوحي".

إنَّ الخَبَرَ المتواترَ هو ثالثُ أسبابِ العِلْمِ وفقًا للإسلام، ويمكن تناوله على فئتين مختلِفتين: **الفئة الأولى**: الخبر الذي أورده جماعةٌ يمتنِعُ تواطُؤُهم على الكذب، فمثلًا؛ نحن لا نرتاب في وجودِ أمريكا رغم أننا لم نذهبْ إليها ولم نَرَها، ولم نُشارك في اكتشافها؛ وذلك لأننا تلقَّينا الأخبارَ المتعلّقة بذلك المكان من مصدر مِنْ هذا النوعِ وقيّمناها على ذلك النحو، أما **الفئة الثانية**: فهي الوحيُ السماويّ، أي القرآن الكريم.

أجل، الناسُ أحيانًا ما يقعُون تحت وطأةِ عقولهم وينسَحِقون تحتَها، وقد يُمنَون بالضربةِ القاضيةِ أمام "الوضعية"، إلا أنهم يَصِلُون إلى معرفةٍ أكثر متانةً وصدقًا حين يقيّمون المسائل تحت أطيافِ الوحيِ السماويّ، فعندما تنتَظم وتُفعَّلُ الحياةُ العلميةَ على هذه الشاكلة فإنَّ الشيءَ المُتوقع والمُنتَظَرَ من العِلمِ يتحقّقُ يقينًا، وإن كان الأمر كذلك لَزِمَ تناوُلُ هذه الأُسُسِ الثلاثة مجتمعة، واعتمادها معيارًا من أجل الوصول إلى المعرفة الحقيقية.

وإن كان غير ذلك؛ فلو اعتمدنا العقلَ والمنطقَ أساسا لكلِّ شيءٍ، وهذا هو ما بدأه أمثالُ عمر الخيام (1048-1131م)، واستمرَّ تحت اسم "المذهب العقلي الإسلامي"، فلا مناص من رفض بعض الآيات القرآنيّة أو تأويلها تأويلًا خاطِئًا،

أما إن اعتمدنا مبدأ الحسِّ والتجربة؛ فقد يقول قائل: "إنني لا أؤمن بأيِّ شيء آخر غير الذي رأيتُهُ وسمعته..."؛ وهذا يحمل في طيَّاته التمرُّدَ على كلِّ شيءٍ يأتي به العقلُ، وكلا الحالين يعنيان من وجهةٍ ما أن يبدأَ الناسُ البحثَ في الكونِ الذي خلقَهُ الحقُّ تعالى عن توافقٍ لهندسةِ عقولهم ومنطقِهم وأحاسيسِهم، فما ناسبَ معاييرَ العقلِ والمنطِقِ والحسِّ فهو صحيحٌ، وما لا يوافِقُها فخطأٌ، في حين أن الله جلَّ جلاله يقول: **(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** (سورة الْكَهْفِ: 51/18) وهذا يشيرُ إلى أن كلَّ زَعمٍ لا يُعتَبَر فيه بالوحي السماوي ما هو إلا ظنٌّ وتخمينٌ.

وهكذا فهناك كثيرٌ من الآيات القرآنيّة والأحاديثِ النبويّة لم يُلتَفَتْ إليها نتيجةَ عدمِ تناوُلِ كلِّ هذه المعايير ككلٍّ واحدٍ، في حين أن كونَها حقيقةً أمرٌ تؤيِّدُهُ المعطيات العلمية أيضًا، بِشَكْلٍ يتناسبُ طردًا مع تطوُّرِ العلم، ومن ذلك مثلًا الحديثُ في القرآن الكريم عن المراحل الجنينيّة التي يقضيها الجنينُ في رَحِمِ الأمِّ، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** (سورة الْحَجِّ: 5/22) وعندما سُئِلَ عمر الخيّامُ -وهو عقلاني بالمعنى المعتزلي- عن هذه المسألة قال: "ليس المرادُ من هذه الآيات حقيقتها!"، وعارَضَ الحقائقَ القرآنية.

ولقد قالت طائفةٌ من العلماء: " إنّ الحشرَ لا ينطبِقُ على المقاييس العقليّة؛ أي نؤمن به فحسب، إذ لا يمكن سلوكُ سبيلِه، وسبرُ غورِه بالعقل"، إلا أنَّ الأستاذَ

النورسي استدركَ عليهم قائلًا: "كان بإمكانهم أن يؤمنوا بالحشرِ عقلًا عن طريقِ إيمانهم بحلولِ الربيع بعد الشتاء"[53]؛ وذلك لأن هؤلاء جعلوا العقل والمشاهدة أساسَين في الأحداث السالفة الذكر، حتى إنهم شرعوا يؤولون الأصول؛ بل إن من العلماء العباقرة مثل: الفارابي[54] وابن رشد[55] ينظرون إلى النبوة والوحي وهما يتحدثان عنهما وكأنهما -حاشا- ضربٌ من ضروب الخيالِ البَشَريِّ الضمنيِّ انعكس على الخارج فيما بعد؛ متأثرين في ذلك بمجموعةٍ من التيارات الفلسفية الغربيّة آنذاك.

واعتبر بعضُهم الفلاسفةَ أعلى مرتبةً من الأنبياء، باعتبار المقام الذي أحرزوه باستخدامهم عقولهم، لم يستطيعوا أن يدركوا أو يستوعبوا أن الله منحَ النبوَّةَ عطيَّةً سابقةً للرسل لعلمِهِ بما سيبذلونه من جهدٍ وعَنَاءٍ عند قيامِهم بأمرِ الدعوة في الدنيا.. لقد عجزوا عن إدراك هذا المغزى، وبسبب هذا يمكن اعتبارُ الفلاسفة نَقَلَةً -ليسَ إلا- عن أرسطو وتلامذتِهِ.

غير أنه عند استقراءِ علماءِ العالمِ الإسلاميّ بشكلٍ كلِّيٍّ سنجدُ الكثيرين منهم ممّن لم ينزلِقوا إلى مثلِ تلك النوعية من الأخطار، فمثلًا أمثالُ: الزهراوي و"علي القُوشْجِي" و"جلال الدين دَوّاني (Devvanî)"[56] و"الجلنبوي" لم يتورَّطوا في حياتهم في هذه النوعية من المفاهيم السقيمة رغم أنهم ملتزمون الدين الإسلامي لأبعدِ الحدود، وتركوا بصماتهم على الدنيا، وكما كان مُلّا خُسْرَوْ والخوارزمي وغيرهما من العلماء واقفين على العلوم بالمعنى الإيجابي فقد كانوا أيضًا رُوَّادًا للعلومِ في

---

[53] بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة العاشرة، الخاتمة، ص 96.

[54] **الفارابي** (874 - 950م): محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، ولد في فاراب وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان، وتوفي بدمشق، كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الاول)، له نحو مائة كتاب.

[55] **ابن رشد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد (1126-1198م): هو فيلسوف وطبيب وفقيه وقاضٍ وفلكيّ وفيزيائي أندلسي، وهو نشأ في أسرة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس والتي عرفت بالمذهب المالكي، حفظ موطأ مالك، وديوان المتنبي، ودرس الفقه على المذهب المالكي والعقيدة على المذهب الأشعري، يعد ابن رشد من أهم فلاسفة الإسلام.

[56] **جلال الدين الدَّوَّاني**، محمد بن أسعد الصديقي الدواني، (1427-1512م): قاض، باحث، يُعد من الفلاسفة، ولد في دوان (من بلاد كازرون) وسكن شيراز، وولي قضاء فارس وتوفي بها، له كتب كثيرة ومنها: "أنموذج العلوم" و"تعريف العلم" و"إثبات الواجب" و"حاشية على شرح القوشجي لتجريد الكلام" و"أفعال العباد" و"حاشية على تحرير القواعد المنطقية للقطب الرازيّ" و"شرح العقائد العضدية" و"تفسير سورة الكافرون" و"الأربعون السلطانية"... (الزركلي: **الأعلام**، 33/6) (بالتصرف)

البلادِ الغربيّة عصورًا طويلةً بسببِ الآلات والمؤلَّفات التي استخدموها، ولقد حافظَ معظمُهم على المنهجيّةِ ذاتِها متديّنًا ملتزِمًا إلى أن فارقَ الحياةَ الدنيا.

حاصل القول إنه يجب تناول أسباب العلم كلها كوحدةٍ متكاملةٍ والسيرُ على هذا المنوالِ نحو النتيجةِ، أما تناولُ تلك الأسباب متفرّقةً وكلّ واحدٍ منها على حِدة، واعتبارُ المعطَياتِ العلميةِ المصدرَ الأوحدَ فيوقِعُ الإنسانيّةَ في أخطاءٍ وأوهامٍ متنوّعة، وسيدومُ ذلك طالما استمرَّ الأمرُ على هذا النحو، وسوف يضطرُّ الإنسان لاعتبار ما كان يراه خاطئًا في أمسِهِ صحيحًا في غَدِهِ، في حين أن وضع الوحي أساسًا للمعرفة، وتأطيرها باستخدام العقل والحواس السليمة هو الطريق الوحيد الذي لا يضلّ ولا يزلّ في هذا الشأن.

العلاقة بين الطفل والأبوين

سؤال: كثيرًا ما نسمع أنّ الأولاد وسيلةٌ من وسائل امتحان الأبوين، فما المقصود بهذا؟

الجواب: إن الحياة الدنيا، بكلِّ جوانبها حلوةً كانت أو مرّةً، هي الحياة التي تُحقِّقُ انتقالَنا إلى العالم الأبديّ، وهي في الوقت نفسه مليئةٌ بالعديد من الفِتَنِ والامتحانات، والأطفال الذين يُمثِّلون أحد عناصر الامتحانات، لهم مكانة خاصّة في حياتنا، كما أنهم في الوقت ذاتِهِ نعمة خاصة وابتلاء من نوع آخر للإنسان.

يبدأ الامتحان بالنسبة للأمِّ من أوّل يومٍ في فترة الحمل، وكلُّ أمٍّ -تقريبًا- على قناعةٍ بأنَّ لِطِفْلِها نصيبًا حتى في الهواء الذي تستنشِقُهُ في عالَمِهَا الروحيِّ الخاصّ بها؛ لأن اللُّقمةَ التي تأكلُها ورشفةَ الماء التي ترتَشِفُها تنقَسِمُ بشكلٍ ثنائيٍّ في بطنِها فتكونُ غذاءً للأمِّ وجنينِها، كما أنَّ الأمَّ تحملُهُ فيما بعد في حضنِها أحيانًا، وعلى ظهرِها أحيانًا أخرى، وتقضّ مضجعَها ليهنأ في مضجَعِهِ، وتعيشُ في أنواعٍ شتى من القلقِ والاضطرابِ خوفًا على صحّتِهِ وحرصًا على سلامتِهِ، كيلا يسقطَ من أعلى السلّمِ مثلًا، أو لا يتدحرجَ من الشرفة، أو يُدخِل شيئًا ما في مقبسِ الكهرباء، أو يسكب الماء الساخن على رأسه، أو يمسك بالمدفأة فيحترقَ... إلخ.

إن الطفلَ أمانةٌ منحَها الله للإنسانِ وسيستردُّها في موعدِها، فلو أُعْتُنِيَ به جيّدًا، وأُحْسِنَتْ تربيتُهُ، ورُبّي كإنسانٍ يُرجى منه النفعُ للآخَرين، فهذا يعني تحقُّقَ النجاحِ في الامتحانِ، غير أن الإنسانَ إن اهتمّ بطفلِهِ ولهى معه إرضاءً لغروره ليس إلا، على اعتبار أنَّ الولَدَ قطعةٌ منه؛ وحوّل حبَّهُ المفترض أن يكون لله إلى الطفلِ تحويلًا تامًّا فهذا يعني رسوبَه في الامتحان حسبَ دستورِ الحقِّ تعالى: **(مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)** (سورة الأَحْزَابِ: 4/33).

وقد ذُكر في إحدى الآيات الكريمة أن المالَ والولدَ وسيلةٌ من وسائل الامتحان؛ إذ يقول الله تعالى: **(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)** (سورة التَّغَابُنِ: 15/64).

وحسب الحقيقة التي عبرتْ عنها هذه الآية فإن ابتغاء مرضاة الله في كلِّ شيءٍ والتوجُّهَ إليه تعالى، واعتبارَ الأشياءِ الأخرى أمرًا ثانويًّا؛ هو شيءٌ مهمٌّ للغاية، والواقعُ أن الذين يعيشون حياتهم على هذا النهج ينجحون في الامتحان بينما يخسر الآخرون، إلا أن هذا لا يعني الإعراض عن الدنيا والأولادِ تمامًا، بالعكس؛ إنه يعني حمايتهم حمايةً كاملة، وكأنهم مودعون عندك من قِبَلِ مالك الملك، ومن

هذه الزاوية ينبغي للإنسان أن يعتبرَ نفسَه مستأمَنًا، وأن يرعى نعمةَ الولد وغيرها من النعم التي جعله الله تعالى أمينًا عليها، وألا يخونَ تلك الأمانة المُوكلة إليه.

إن الدين الإسلامي يُحَمّل الأبوين ثلاثَ وظائف مهمّة بشأن أطفالهما هي: اختيارُ اسمٍ حسنٍ للطفلِ، وتعليمُهُ تعليمًا جيّدًا، وتزويجه عندما يحين الوقت لذلك؛ فقد قال صلى الله عليه وسلّم: **"حق الولد على والده أن يُحْسِنَ اسمَه، ويُعَلِّمَه الكتابَ، ويزوّجه إذا أدرك"**[57]، فلا بدَّ مِنْ إدراكِ هذهِ الوظائفِ الثلاثة إدراكًا جيِّدًا للغاية؛ لأنها تشملُ الحياةَ كلّها، فعلى الأبوَين أن يهتمَّا بتعليمِ أطفالِهما مدى الحياة وفقًا لمستوى إدراكِهم وأعمارِهم، مثلما يُطَبِّق الأطبَّاءُ نظامًا غذائيًّا على الطفل الذي في المهدِ، كما ينبغي لهما عند تزويجِهما الأولاد ألّا ينخدِعا بالمالِ والجمالِ والحسَبِ والنَّسَبِ كما بيَّنَ مفخرةُ الإنسانية صلى الله عليه وسلم، وأن يجعلا التديُّنَ له الأولويّةُ في اختيارِهما؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ"**[58].

ومن الأُسُسِ المهمَّةِ كذلك الحفاظُ على حدودِ العلاقةِ بين الوالدين والطفلِ في التربية، فَمِنَ المهمّ للغايةِ تقاسمُ آلامِهِ وأفراحِهِ من جانبٍ، والحفاظُ على الوقارِ والجِدِّيَّةِ أثناء تربِيَتِهِ من جانبٍ آخر، ولو أن الأبوين تبادَلا معه الأشياءَ الطفوليَّةَ، ولَعِبَا وتصارَعَا معهُ فحسبُ دون حِفاظٍ على الوَقَارِ والجدِّيَّةِ؛ فسيتعذَّرُ الحِفاظُ على حدودِ العلاقةِ المطلوبةِ، ويستحيلُ التأثير على الطفل في سائر الأمور، والطفلُ الذي ينشأُ في مناخٍ متفَلِّتٍ من النظامِ كهذا؛ ربما يكشف عن اضطرابات سلوكيّةٍ متنوّعةٍ، بل وربما يتصرَّف تصرُّفاتٍ وقحة، ومن ثمّ يتوجَّبُ علينا إن كنَّا نُريدُ تربيةَ أطفالِنا تربيةً سليمةً -سواء أكانوا أطفالنا، أو أطفالًا عُهِدَ إلينا بتربيتهم- أن نحافظَ معهم على حدودِ هذه العلاقةِ.

فضلا عن أن الطفل يشعر دائمًا بالحاجة إلى أن يتَّخِذَ نموذجًا مثاليًّا له، والأمُّ والأبُ أبطالُ خيالِ الطفلِ وقدوته العليا، والواقعُ أن الطفلَ الذي يتعذَّرُ عليه العثور في المراحل المتقدّمةِ من عمره على النموذج المثالي الذي يبحث عنه في أسرته يتوجَّهُ إلى خارجها، وهو ما يتسبَّبُ في حدوث صراعات في عالمه الروحي، أما من يعثُرُ في أسرتِهِ على النموذجِ المثاليِّ المنشودِ فإنه يعيش حياة سعيدة ومطمئنة.

---

[57] الأصبهاني: **الترغيب والترهيب**، 350/1.

[58] انظر: صحيح البخاري، النكاح، 15؛ صحيح مسلم، الرضاع، 53.

وفي الخِتامِ نُوردُ قولَ الله جلَّ جلاله: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (سورة التَّغَابُنِ: 14/64)

والمقصود هنا أن المالَ والأولادَ يمثِّلان عدوًّا فطريًّا من جانبٍ، وصديقًا من جانبٍ آخر؛ إذ يستطيعُ الإنسانُ أن يَعْمُرَ دنياه وأُخراه بواسطةِ هؤلاء إن استَثْمَرَهم في سبيلِ الله تعالى، وإلا فلا.

حول محور التقوى

سؤال: هناك أقوال كثيرة حول مفهومِ التقوى، فماذا تعني التقوى، وما الأمورُ التي لا بدَّ من مراعاتِها من أجلِ الوصولِ إلى مرتبةِ التقوى؟

الجواب: مصطلحُ "التقوى" يُطلَقُ على الخوف بحقٍّ من الله تعالى، وتدلُّ كلمةُ "المتّقي" على الإنسان الذي اعتمدَ التقوى محورًا لحياتِهِ، وضبطَ مشاعرَهُ وأفكاره وأعماله وفقًا لها، أما الاستقامة فتُطلق على معايشةِ الحياة وفقًا للمعايير التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون إفراطٍ أو تفريطٍ، وكما على المسلم أن يكون منضبطًا في تصرُّفاتِهِ فعليه أيضًا أن يكون مستقيمًا في تقواه، والإتيانُ بمجموعة من الأمور القهريّة التي تُخالِفُ الإطارَ الذي حدَّدَهُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسعيُ إلى تطبيقِها عمليًّا يعني الخروجَ عن الحدودِ الشرعيّة.

نستنتج مما سبقَ أنه لا حقَّ في إجبارِ الناس على أداءِ النوافِلِ إلى جانب الفروض الخمسة... فيجبُ ألّا يُجبَروا على ذلك، وينبغي التشجيعُ على النوافل فِكريًّا والتركيزُ على أهميّة المسألة وعظًا ونصيحةً فحسب، فمثلًا؛ يمكن في هذا الإطار تبْيانُ أن التهجّد نافذةٌ مفتوحةٌ على عالم البرزخ، وعلى الإنسان أن ينير عالمه الداخلي من خلالها، وإذا أراد ذلك فعليه أن يتوجّهَ إلى الله خالقِ السماوات والأرض في ظلمةِ الليل؛ في تلك الأوقات التي لا يراه فيها أحدٌ من البشر، ولا بدّ من إظهار الحساسيّة نفسِها إزاءَ الأورادِ والأذكار، والتضرّع إلى الله المنعِم علينا بكثيرٍ من النِّعَمِ -حتى وإن لم نكن أهلًا لها- المنّانِ الذي منّ علينا بالقيام بكثيرٍ من الأعمالِ التي تفوقُ قوّتَنا وطاقَتَنَا.

والواقع أن دوام هذا القدر الكثير من نِعَمِ الحقِّ تعالى وإحسانه مرهونٌ ومشروطٌ بالشكرِ القوليِّ والفعليِّ والحاليّ بذلك القدرِ؛ لأن الإنسان إن أنكرَ هذه النِّعَمَ ولم يشكر الله تعالى لَصارَ من الواردِ أن يتعرَّض لعذابِ الله تعالى بموجب الآية الكريمة: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** (سورة إِبْرَاهِيمَ: 7/14)، ولأجل ذلك يدخل التأكيد على النوافل وتلقينها ضمن الوظائف الأصلية لكلِّ إنسان.

وغنيٌّ عن الإيضاح أنّ مَن يعايشُ هذه النوعيّة من المسائل ثم يتحدَّث عنها شخصيًّا يكونُ كلامه ذا وقعٍ أبلغ وفعاليّة أكبر في تقبُّل المخاطبين لها، وإذا كان الأمرُ كذلك وجبَ على من يشعر بالحزن والأسى لأنه ضيّعَ النوافل، لا الفروض،

لسبب أو لآخر؛ فانقطعت شهيته عن الطعام بسبب ذلك أن يضطلعَ بِدورٍ الرائد في فعاليّات الإرشاد والتبليغ، حتى يؤثِّر قوله في المتلقّين تأثيرًا حقيقيًّا.

إن من الأُسُسِ الواجب مراعاتها أيضًا في موضوع التقوى مسألة الحلال والحرام؛ إذ إنني لا أتوقَّعُ القدرةَ على إدراك التقوى الحقيقيّة ممن لا يهتمّ بها، ولا يتّخِذُ موقفًا إزاءَ المحرّمات صغيرةً كانت أو كبيرة، ويعجزُ أمثالُ هؤلاء عن الشعور بالطراوة التي تثيرها تلك الآيات في روح الإنسان مهما قرؤوا القرآن؛ ذلك لأنَّ القرآن الكريم **(لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)** (سورة البَقَرَة: 2/2)، والسِّمَةُ الرئيسةُ للمتّقين هي اتّقاؤُهم المحرّمات والبعدُ عن مظانِّ وجودِها، قال صلى الله عليه وسلّم: **"لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ، حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ"**[59]، وفعلُ الخيرات والاقتراب من مكامِنِها قال تعالى: **(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)** (سورة البَقَرَة: 177/2).

ويمكن القول إن نظرةَ الإنسانِ إلى الدنيا تضطَلِعُ بِدَورٍ مهمٍّ في الوصولِ إلى مرتبةِ التقوى الحقيقية. أجل، إن للدنيا وجهين؛ أحدهما يدفعُ الناسَ إلى الخير، والآخرُ يسوقُهم إلى الشرِّ، فالدنيا كما ورد في الحديث الشريف: **"سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ"**[60]، أو قُلْ: إن **"الدنيا مزرعة الآخرة"**[61]... أجل، إن الإنسان يأتي هذه الدنيا مرة واحدةً ويحصدُ في الآخرةِ ما كان زَرَعَهُ فيها، ولأجل ذلك ينبغي تقديرُ النِّعَمِ التي أُحسِن بها علينا مثل نعمةِ الشبابِ والصحّة والغنى والحياة والوقت... ولا بدّ من استغلال تلك النعم قبلَ فواتِ الأوان الاستغلالَ الأمثل، فهي تُشْبِهُ بطاقاتِ الائتمان التي تكفي لامتلاك مَتاعِ الدنيا بِأَسْرِها، بيدَ أن المساكين الذين لا يشعرون بتلك النِّعَمِ رغم امتلاكهم لها جميعًا يُشبهون أسماكًا تعيش في البحر، وتعجزُ عن إدراكِ قيمته. أجل، ينبغي أن يعيش الإنسان طامحًا إلى العقبى دائما رغم كل شيء.

---

[59] سنن **ابن ماجه**، الزهد، 24.

[60] **صحيح مسلم**، الزهد، 1؛ **سنن الترمذي**، الزهد، 16؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، 3.

[61] الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 19/4.

وثمة أمرٌ آخر مهمّ يتعلّق بالقدرة على تحقيق التقوى أو التوصُّل إلى أبعاد جديدةٍ فيها ألا وهو التخلّص من الأعمال اليوميّة في أوقاتٍ محدّدة من السنة والانشغال بأشياء تُحقِّق الشدَّ والجذبَ المعنويّ، فعلى الإنسان أن يملأً جعبتَه في مثل تلك الفترات، وأن يستغلّ الشوقَ والعشق اللذين اكتسَبَهما في تلك الفترة عند الشروع في العمل من جديد. أجل، إن الزمان المخصَّص لهذه الغاية، والأرضية المُعدّة والفعاليات المنجزة مقوّماتٌ أساسيّة لا غنى عنها بالنسبة للحياة الدنيا والعقبى، ولا يمكن أن يُستعاض عنها بأشياء أخرى.

وإذ شارفنا على نهاية هذا الموضوع فإنّنا نتطرَّقُ إلى سمةٍ أخرى من سمات المتّقين من الناس استنادًا إلى البيان القرآني:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ∃ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ∃ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ∃ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/191-194).

الكوارث الطبيعية وما تهمس به في آذاننا

سؤال: بماذا تريد أن تخبرَنا الكوارث الطبيعيّة؟ وما نوعيّة الدروس والعبر التي ينبغي لنا أن نأخذها منها؟

الجواب: خلقَ اللهُ الإنسان مرتَبِطًا بالكون، والكونَ مرتبطًا به، غير أنه تعالى دائمًا ما يحقّق إجراءاتِهِ خلفَ ستارِ الأسباب، كما هو الحالُ في تصرُّفات الإنسان تمامًا، ويشيرُ الأستاذُ النُّورسيّ إلى هذه الحقيقة بعبارتِهِ الوجيزةِ الآتية:

"إن العزة والعظمة تستدعيان وضعَ الأسباب الظاهرية أمام نظرِ العقل، إلا أن التوحيد والجلال يردّان أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي..."[62]، وهذا يعني أن كلَّ شيءٍ تقريبًا يحدث في الكون بسببٍ ما. أجل؛ إن الأسباب توجِّهُ الإنسان دائمًا.. إنها توجهه ولكن الله جل جلاله موجودٌ وراء الحجب والأستار، فهو الذي سبّبَ الأسباب، وخلقَ كلَّ شيءٍ بقدرتِهِ، ودبَّره بِحِكْمَتِهِ.

وبعد هذا المدخل القصير ننتقلُ إلى ماهيّة السؤال: فجميعنا يعلم أن هذا الأمر حقيقةٌ لا مفرّ منها، وأن ذلك يشمل كلَّ أنحاءِ العالم؛ فمثلًا هناك كوارث طبيعيّة مثل: الزلازل والفيضانات والأعاصير والعواصف لا تزالُ مستمرّةً ومتتابعةً في المكسيكِ وبنغلاديش والفلبّين واليابان، ويتحدّث علماءُ الطبيعةِ عن أسباب متنوّعةٍ لبعضِ هذه الكوارثِ؛ حتى إن بعضَهم يقول بشأن الزلازلِ مثلًا؛ إنها حَدَثَت نتيجةً لِحدوثِ انزلاقٍ في القشرة الأرضيّة أو للتجارب النوويّة.

وقد تكون هذه الأمور صحيحةً كما قلت في البداية، ناهيك عن أن هذا ربما يحدث نتيجةَ تخريبِ البشرِ الطبيعةَ بأيديهم، وإفسادهم التوازنَ البيئيّ، غير أن كلّ واحدٍ من هذه الأمور سببٌ مستقلٌّ بحدِّ ذاته، والحق تعالى يستطيع -إن شاءَ- ألا يمنح تلك الأسباب قوّةَ التأثير؛ أي أن يحدث زلازل تستمرّ مدة طويلة بقوة تسعِ درجات وفقًا لمقياسِ "ريختر" دون أن تحدث أيّة خسائر في الأرواح والممتلكات، إن الله قادر على كلِّ شيء؛ إذ يقولُ سيّدُ الأنبياء صلى الله عليه وسلم متحدِّثًا عن الله عزّ وجلّ في حديث شريف: "**لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَلَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ**"[63]، أي إنَّ الناس إلى جانبِ استفادَتهم من اليُمن والبركة التي تصحبُ المطر من ناحية؛ لا يتأثّرون بجوانبِهِ السلبيّة الأخرى التي تزعج الإنسان وتقلبُ حياته اليومية رأسًا على عَقب من ناحية أخرى، وهذا يعني

---

[62] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثانية والعشرون، المقام الثاني، اللمعة الأولى ص 325.

[63] أبو داود الطيالسي: **المسند**، 312/4؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، 285/4.

أن آثار المطر التي تمنح الحياة تصل عبادَ الله الحقيقيين، وأنه تعالى لا يُشعرهم بجوانب المطر الأخرى والتي تبدو وكأنها شرّ، فلِمَ لا تكون هذه الحقيقة المذكورة في الحديث الشريف واردةً في الزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعية؛ إذ لا سبب على الإطلاق يمنع وجودها؛ طالما كنا عباد الله حقًّا!

ومن ناحية أخرى يقول الله تعالى في الآية الكريمة: **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)** (سورة هُودٍ: 117/11)، وما دام الحقُّ تعالى يَعِدُ وعدًا كهذا؛ فعلينا نحن إذن أن نفعلَ ما يقعُ على عاتِقِنا، وألا نتدخَّلَ في غير ذلك، فهل يا تُرى نستطيعُ الآن أن نؤدِّي الأداء الذي يريده القرآن؟ أيْ هل نستطيعُ القيام بمهمّة المظلّة لِدَفْع المحنِ والمصائب بالمعنى الحقيقيّ؟

إن القرآن يتحدَّثُ عمَّن يقومون بهذه الوظائف من الناس باستخدام لفظة **"مُصْلِحُونَ"**، وقد جاءت كلمة" مُصْلِحُونَ" خبرًا في الجملة الحاليّة الواردة في الآية، ومن المعروف أن الجملة الإسمية في اللغة العربية تفيد الدوام والثبات، إذن تعني كلمة" مُصْلِحُونَ" أولئك الذين يفكرون باستمرار؛ في نومهم ويقظتهم، وفي أثناء تناولهم طعامهم وشرابهم ويمعِنون النظَرَ في إصلاحِ حالِ تلك الإنسانية الغارقةِ في الفسادِ، ويُخَطِّطون لأن تسموَ الإنسانيّة إلى أعلى قممها، ويضعون الخططَ والمشروعات في هذا الشأن، ويطبقونها وكأنه لا هَمّ ولا قضيّة تشغلهم خلاف ذلك.

إذن لن يهلك اللهُ تلكَ البلد طالما أن هناك أناسًا من أمثال هؤلاء، ومن ثمَّ نستطيعُ أن نقولَ براحةٍ تامّة، وبالقوة التي استمددناها من هذه الآية: إن بلدًا فيها زمرة من الناسِ -رجالًا كانوا أو نساءً- لا همَّ لها سوى القرآن، ولا تُفَكِّرُ إلّا في صلاح الإنسانية، وتتّخِذُ من ذلك غايةً لها في الحياة، وتُناضلُ في سبيله؛ لن يسلِّطَ اللهُ المصائبَ السماويّةَ ولا الأرضيّةَ عليها.

يُروى أن فضيلة بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله رحمة واسعة قال فيما يتعلَّق بالزلزالَين[64] اللذين وقعا في مدينتي "إزمير (İzmir)" و"أرزنجان (Erzincan)" التركيتين: "سببه إمّا قلّةُ عددِ حماةِ الإسلام والإيمان الأقوياء وحفظةِ

---

[64] هذان الزلزالان وقعا في عام (1939م) أحدهما في مدنية "إزمير" التركية وفي هذا الزلزال الذي بلغ 6.6 بمقياس ريختر توفي فيه ستون شخصًا، وأما الزلزال الذي وقع في مدينة "أرزنجان" التركية في نفس السنة فقد بلغ 7.8 بمقياس ريختر وقد توفي فيه 32700 شخص.

الإيمان الأُصلاء، أو لكونهم مغلوبين على أمرهم"[65]، وهذا يعني أن تفكيرَ بضعةٍ من الناس وجهدَهم ربما لا يكفي لِدفعِ المصائبِ والبلايا.

وثمة أمر آخر وهو أن الأشخاصَ الذين تعرّضوا لمثل هذه الكوارث بينما يُنْتَظَرُ منهم التضرُّع إلى الله تعالى نجدُهم يحقرون ويشتمون القائم مقام والمحافظ والحكومة والدولة ويقولون: "إن الدولة هي من أعدَّ هذه المحنة، لم تكن البنية التحتية جاهزة، كان ينبغي ألا تُصدرَ رخصةُ البناء... إلخ"، في حين أن العقيدة الإسلامية تقضي بأن يُنظَرُ إلى ما وقعَ من الأمور والمصائب والبلايا من زاوية القدر، وما يقع على عاتقنا فعله في هذه المرحلة هو التوكُّل على الله تعالى، وإلا فإن وجهةَ نظرٍ كتلك قد تُضاعِفُ البلاءَ على حدِّ قول الأستاذ.

أضف إلى ذلك أن هذه الأمة وفيّةٌ، تستطيعُ أن تُحْيِيَ هذه الأماكن من جديد، فتبدأً بحملات الإغاثةِ، وتمدّ يدَ العونِ للمحتاجين، كما أحيت بهذه السبيل كثيرًا من الأماكن من قبل، وانطلاقًا من هذه الزاوية فإن التفكيرَ والتصرُّف السلبيَّ يضاعفان البلاء، فيضيع المال والنفس، كما يذهب الدين والإيمان إذا ما عُزيت الآثام لذلك وذاك، ويكون المآلُ كما عبر القرآن **(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)** (سورة الْحَجِّ: 11/22) بالمعنى التام للكلمة...

والحاصلُ؛ أن المحن والمصائب التي تنزل من عند الله تعالى كثيرًا ما تتعلَّقُ وترتبطُ بأفكارنا وتصرُّفاتِنا؛ ومن ثمَّ يتوجّبُ علينا إنْ كُنّا نريد أن تتوقّف الصواعقُ والفيضانات والعواصف في الدنيا كلّها، وليس في بلدنا فحسب أن نسعى ونجتهدَ في إحياء وإعمارِ وإصلاحِ البسيطة جمعاء بأن نمثّل القرآن الكريم حقَّ التمثيل؛ حتى نستطيعَ أن نكون مظلةً في مواجهةِ تلك المحن.

وأخيرًا أريدُ أن أنقلَ لكم حادثةً سمعتها من أبي، غير أنني لم أجدها في المصادر الموثوقة:

قدّر اللهُ تعالى أن يُهلِك بلدةً ما؛ وحانَ وقت القضاء، وفي تلك الأثناء بالضبطِ بدأ طفلٌ يبكي ويصرخُ الصرخةَ تتبعُها الصرخةُ لِحاجةٍ به بينما أمّه كانت تعجن الدقيق، فنظّفَت الأمُّ يديها، ومضى قليلٌ من الوقت حتى وصلت إليه، وفي تلك الأثناء كانت الأمُّ تنادي وليدَها قائلةً: "أي بُنيّ، لماذا تصرخُ بِجنون هكذا؟ إن الله تعالى لا يتعجّل بهذا القَدْر حين يريد إهلاكَ قريةٍ ما".. فغيّر الله بسبب هذه الكلمة القدرَ بفضلِهِ و"عطائه"، ولم يُهلكْ تلك البلدةَ.

---

[65] انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الرابعة عشرة، ذيل، ص 186.

ومن ثم فإن التوجه إلى الله والتصرف الجميل كما رأينا قد يتسبّبان في نزول مثل هذه العطايا الإلهية، لكنَّ التمرُّدَ يحرم صاحبه، فما بالكم بمن فاقَ بتمرُّدِهِ الفراعنةَ!

يا ربّ! أنت أرحم الراحمين، اللهم لا تحرمنا من رحمتِك، وتجلّ بها علينا ووجِّهْنا بها إلى الإنسانية الكاملة. آمين!

تبليغ الإسلام ووسائل الاتصال الجماهيريّ

سؤال: هناك أماكن لمّا يصل الإسلام إليها حتى يومنا هذا أو أماكن قُدِّم فيها الإسلامُ وعُرِضَ عرضًا خاطئًا بالرغم من التطوّرات الراهنة، فهلّا تنوّرِوننا بشأنِ أهمّيّة وسائلِ الاتصال الجماهيريّ من أجل إيصالِ رسالةِ الإسلامِ إلى مَن هناك من الناس؟

الجواب: إن ربطَ عمليّةِ نقلِ رسالةِ الإسلامِ العالمية إلى"آفاق العالم" بوسائل الاتّصال الجماهيري ليست -فيما أرى- صحيحةً؛ لأن الإسلام كان موجودًا حتى قبل هذه الوسائل التي ظهرت منذ ما يقرب من قرن من الزمان، وكانت رسائل الإسلام تُنقل إلى كلِّ أنحاءِ العالم على يدِ المسلمين آنذاك، ولأن أجدادَنا العظام الذين نفتخرُ بهم دائمًا كانوا يستطيعون إيصاله إلى كلِّ حدبٍ وصوبٍ دونما نقصان.

غير أن التلفاز والمذياع والصحف والمجلّات ووسائل التواصل الاجتماعية المختلفة؛ أي إن الإعلام بكلِّ عناصره المرئيّة والمسموعة يمكنه أن يُسرّع ويُسهّل عمليّة تبليغِ الإسلام. أجل، ربما تكون هذه الأدوات وسيلةً لأن نشهد "تقارب الزمان وتقارب المكان" الذي عبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبَارتِه الرائعة **"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ"**[66]، ومن ثم تكون وسيلة يتحوّلُ العالم في ظِلّها إلى قريةٍ صغيرةٍ، وهو ما حدثَ بالفِعْلِ، فبينما يشهدُ العالم نوعًا من التضاؤُل في يومنا الحاضر من جانب، نجد ثمة سعيًا لتخطّي سرعةِ الزمان من جانب آخر. أجل، يستطيع الناس بواسطةِ هذه الوسائل أن ينقلوا مشاعرهم وأفكارَهم بشكل أكثر راحة وسهولة، وعبر الاستفادة من هذه الوسائل يمكننا نحن أيضًا -بإذن الله تعالى- أن نؤديَ رسالةَ تبليغ الإسلام التي حَمّلَنا إياها ربُّنا وكلَّفَنَا بها، كما يمكنُنا أن نُسْهِمَ ببعض الأشياء في عصرِ السرعةِ هذا.

لكنني أرى أنه من المفيد النافع أن أتطرّقَ إلى موضوعٍ آخر أحسبُه مُهِمًّا لارتباطِهِ بهذا السؤال من طريق غيرِ مباشر، وهو:

إن هذه الوسائل لا تعتبر كافيةً في تجسيدِ الإسلام وتمثيلِهِ، رغم أنها تُسهِّلُ عملية تبليغه وتسرّعها؛ وذلك لأن التمثيل يتقدّم عمليّة التبليغِ دائمًا في التعبير عن الرسالةِ والمشاعر والأفكار الإسلامية، وإذا كان الأمر على هذا النحو على مرِّ التاريخ الإسلاميّ فإنّه سيستمرُّ هكذا فيما بعد. أجل، إن من دقّقوا في التاريخ الإسلامي البالغ أربعة عشر قرنًا من الزمان، وكذلك فإن علماءَ فقهِ السيرة الذين

---

[66] **صحيح البخاري**، الجمعة، 103؛ سنن الترمذي، الزهد، 24؛ **مسند الإمام أحمد**،519/5.

تناولوا حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ركّزوا كثيرًا على تمثيل الإسلام وتجسيدِ تعاليمه، حتى إنهم رأوا أن السبب الذي جعل تبليغ الإسلام بعد مفخرة الإنسانيّة صلى الله عليه وسلم لا يصل إلى المستوى المنشود إنما يكمن في الخلل أو الضعف الذي أصاب تمثيلَه دائمًا.

ولنزِدْ هذا الأمرَ الذي أَشَرْنا إليه إيضاحًا رغمَ أنه لم يُطرح في السؤال فنقول: إن ماهيّة تمثيلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ خليقٌ أن يُدرَس بعناية، فالنبي صلى الله عليه وسلم -وكما ذكرَ أحدُ المفكّرين الغربيّين- كما بدأ أمرَ الرسالةِ أنهاهُ في مشهدٍ واحدٍ لم يتغيَّر ولم يتبدّل عمّا كانَ عليهِ في البداية، فتغيُّرُ الظروفِ وتقلُّبُ الأيام في حياته النبويّة البالغةِ ثلاثًا وعشرين سنة؛ لم يُحدث أيَّ تغييرٍ فيه صلى الله عليه وسلم، وما استطاعَ ذلك؛ إذ إنّه صلى الله عليه وسلم لم يقلْ شيئًا لم يطبقْه، على العكس كان يتحدَّث عمّا يطبّقه ويعيشه دائمًا، حتى إن العدوّ والصديق عرفه وشهدَ له بسببِ حياتِهِ التي يعيشُها، علاوة على أنه لم يصدُرْ عنه شيءٌ مخالفٌ للقوانين الجارية في الحياة والفطرة والكون.

أجل، وكما حاولْتُ التعبيرَ عنه بمختلفِ الوسائلِ سابقًا، فلقد عشْنا إسلامًا رحبًا في الماضي، أي إننا فسَّرْنا جوانبَ الإسلام القابلةَ للتأويلِ تفسيرًا يتوافق مع الفطرة؛ لدرجة أنه لم تظهر أمّة أخرى كأمَّتِنا منذ عصر السعادة وحتى اليوم، وقد استطعنا أن نتميّزَ، ونظلّ متميّزين دائمًا بفضلِ علمائِنا العباقرة في الحديث النبوي والفقهِ والتفسير وعلم الكلام، حتى إنّ الأمّة دائمًا ما كانت تُنتِجُ رُوَّادَ فكرٍ يحتضنون الإنسانيّة كلّها من أمثال البخاري ومسلم والترمذي وصولًا إلى أبي حنيفة.

والآن، فإن أجيالَ عصرنا المثقَّفين وقدسيّي آخر الزمان يستطيعون جعلَ الإنسانية تقولُ مرة أخرى ما يجب قوله عن الإسلام إن استطاعوا استخدامَ وسائلِ الاتّصال الجماهيريّ بشكلٍ إيجابيٍّ وتام في هذا السبيل، متمثلين تلك الدعوة بقدر ما تمثلها مفخرة الإنسانية والخلفاء الراشدون من بعده.

وإنني شخصيًّا لَمُتفائلٌ في هذا الموضوع تفاؤُلًا كبيرًا، كما أنني على قناعةٍ تامّة بأن إنجازَ هذا الأمر سيتحقَّقُ على يدِ أحفادِ هذا الجيل الميمون الذي بجّله مفكّرُ العالم الإسلامي الكبير "مالك بن نبي" قائلًا: "لو لم يكن المجتمع العثماني موجودًا في غرب العالم الإسلامي، لما كان العالم الإسلامي موجودًا اليوم"، فقد خطى هذا الجيلُ اعتبارًا من الآن خطوات من شأنها أن تُصبِحَ وسيلةً لاتّحاد الثقافات المختلفة، وظهور توليفةٍ ثقافيّة واحدةٍ.. خطا خطواته وأعدَّ البِنَى التحتيّة لاتّحاد الآسيتين: الصغرى والكبرى.

أجل، إن هؤلاء الذين نذروا أرواحهم في سبيل خدمة أمَّتهم لَيعملون في إطار دائرة الأسباب على تحقيق نموّنا في كلِّ المجالات تقريبًا: الاقتصادي والصناعي والتجاري... فقد افتتحوا المدارس في كلِّ دول أوروبا تقريبًا، وفي مختلف ولايات أمريكا، وفي بعض المناطق من أفريقيا كما فعلوا في آسيا الوسطى كلها حتى وصلوا إلى منغوليا، كما أنهم يسعون في الوقت الراهن في كل من نيوزيلندا وكوريا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وحتى في الصين لتبادل ثقافتنا وموروثاتنا مع شعوب تلك البلاد.

أجل، إن قدسيِّي هذا العصر يؤدُّون واجباتِهم ويتوزّعون في كل أنحاء العالم على نحو يفوق المعايير الإنسانية؛ لدرجة أنهم ينسجون فوق وشائج مشاعرهم وأفكارهم الخاصّة تطريزات سوف تستحسِنُها الإنسانية جمعاء، ويقدِّمون مفهومًا ثقافيًّا جديدًا للإنسانية، وسوف تُسرّعُ -إن شاء الله تعالى- وسائلُ الاتّصال الجماهيري التي نتحدَّثُ عنها الآن من وتيرة هذا العمل، لكننا ينبغي ألا ننسى قطعيًّا أن هذا الأمر سوف يستمدُّ قوَّتَهُ أوَّلًا وآخرًا من التمثيلِ أكثر مما يستمدّها من التبليغ، أي إنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالحال أكثر من القال.

نظرة الغرب إلى الإسلام من الماضي إلى الحاضر

سؤال: يُقال إن الإسلام سيُشْرِق من الغربِ في آخرِ الزمان، والحالُ أن الإنسانَ الغربيَّ -كما نراه حاليًّا- لا يحملُ تعاطفًا إلى الإسلام، فكيف تُقيّمون هذا؟

الجواب: لم ينظر الغربُ إلى الإسلام نظرةً إيجابيَّةً منذ قديم الزمان وحتى اليوم، ولم يهتمّ به أيّ اهتمام قطّ، وقد كان الغربُ محتاجًا إلى الإسلام في أوّلِ ظهورِهِ أكثر منه احتياجًا في يومنا الحاضر، لكن الغربيين كلَّهم في تلك الفترة الظلماء استعانوا بأفكارهم القديمة في مواجهة الإسلام بدلًا من أن يلجؤوا إليه، فضيّعوا فرصةً مهمّة جدًّا بسبب هذا التعصُّب الأعمى. أجل، إنهم لجؤوا إلى تاريخهم الذي كان مهيبًا ورائعًا في الماضي، فتصدّوا به للإسلام، وبهذا بدؤوا مرحلةً جديدةً من العداء، ويمكن أن نوجز أسباب هذا الخطإ والخسران الخطير فنقول:

تعصَّبَت المسيحيّةُ في تلك الفترة تعصُّبًا أعمى في مواجهة الإسلام متَّخِذَةً أسلوبًا تجاوزَ الهدفَ والقصد، وقد يكون وجودُ مجموعةٍ من الاختلافات بين الأديان والمذاهب وتسبُّبُها في بعض الصراعات أمرًا طبيعيا، لكن المسيحيّة لم تستطِعْ في أيِّ وقتٍ من الأوقات على الإطلاق الحفاظ على الاعتدال؛ فاتَّخَذَتْ مواقفَ عنيفةً جدًّا ضدَّ الإسلام والمسلمين، وبسبب هذا التعصُّبِ المتشدِّدِ حاربت المسلمين في أماكن مثل اليرموك ومؤتة... ثم إنها شنَّتْ فيما بعدُ حملاتٍ صليبيةً على المسلمين في كل فرصة سنحت لها؛ فما استراحت ولا أراحت، والحاصلُ أن إنسانَ الغربِ وضعَ نفسَهُ في توتُّرٍ سلبيٍّ دائمٍ في مواجهةِ الإسلام، وفي النهاية ظلّ مُغلَّفا بالحقدِ والبُغضِ في مواجهة هذا الدين السامي.

ويمكننا أن نُرْجِعَ ما سبقَ إلى أنَّ المسلمين قد عجزوا عن تمثيلِ الإسلامِ حقَّ التمثيل. أجل، ينبغي أن يعيش المسلمون الإسلام ويمثّلوه بشكلٍ جيّدٍ للغاية؛ كي يتمكّن هو وثقافتُه الغنيّة من التأثير في الناس؛ وذلك لأن المنظرَ الذي رآه الغربيُّ الساعي للتعرُّفِ على الإسلام في أشخاص المسلمين لم يكن حسنًا على الإطلاق؛ لا سِيّما إذا ما نظرنا إلى التاريخ القريب، فقد كان المسلمون في تلك الفترة المنحوسة في حالةٍ من الفقرِ، والتفرقة والفظاظة وانعدام المعرفة لأقصى درجة -ولا أقولُ في حالةٍ من الجهل كي لا يكون ذلك تحقيرًا للمسلمين- بل كانوا يبدون حشودًا وشذّاذَ آفاقٍ يأكلُ بعضُهم بعضًا بشكلٍ جماعيّ.

وتـمثيلٌ للإسلامِ على هذه الشاكلة ما كان يستطيعُ أن يُقنِعَ الإنسانَ الغربي بأنَّ "الإسلامَ دين خليق بالدراسة والوقوف عليه"؛ وهو ما حدثَ بالفِعل، ولذلك فإن هذا التدنّي في تمثيلِ الإسلام قوّى تلك الصورةَ السيّئةَ التي رسمَها الغربي في ذهنِهِ عن الإسلام ووَرِثَها منذ الماضي؛ ومِنْ ثمَّ فإنه ما استطاعَ ولم يستطعْ الشعورَ بأيِّ نوعٍ من التعاطف نحو الإسلام في يومنا الحاضر، تمامًا كما كان الحال بالأمس، ولأن الـمُنَصِّرين المسيحيّين رغبوا بالفعل في حدوث هذا، والإعلامَ العالميَّ خطَّطَ خططًا متعدِّدة ليكونَ الأمرُ على هذا النحو في الوقتِ الراهنِ؛ فإن التصرفات السلبيّةَ التي لا زالت موجودةً حتى اليوم قد ازدادَتْ ضراوةً، واستمرَّت دون توقُّف، وقدرةُ الغرب على الشعور بالتعاطُفِ تجاهَ الإسلامِ وعدمُ استباقه الأحكام يُحتِّمان عليه أوَّلًا أن يقتربَ من هذه المسألةِ بملاحظةٍ ورؤيةٍ سليمة، لكن الغرب دائمًا ما اعتبرَ الميلَ إلى الإسلامِ خسارةً بالنسبة له، ولم يتخلّ في أيِّ وقتٍ قطُّ عن عداوته المستمرّة له منذ ما يقرب من ثمانية إلى عشَرة قرون من الزمان.

ولا شك أن ظهور تعاطفِ المحافلِ الدوليّة مع الإسلام موضوعٌ يتطلَّبُ زمنًا طويلًا، وقد فَهِمَ بعضُ العلماء شروق الشمسِ من مغربِها المنصوصِ عليه في قول النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم: **"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ"**[67]؛ إن شروق الإسلام سيكون كشمسٍ تظهرُ من الغرب، كما جاء طلاب فضيلة الأستاذ بديع الزمان بتفسيراتٍ بهذا المعنى، ويُذكر أن الشيخ "بخيت" مفتي الديار المصرية الأسبق أثناء تواجده بإسطنبول خرجَ من جامع "آياصوفيا" كي يُفحم الأستاذَ بديع الزمان، وعندما جلسا في إحدى الحدائق لِاحتساءِ الشاي سأله الشيخ "بخيت" في حضور علماء آخرين: "ماذا تقولون بحق أوروبا والعثمانيين، ما هو رأيكم؟" فأجابه الأستاذ: "إن أوروبا حبلى بدولة إسلامية، سوف تلدها يوما ما؛ وإن الدولة العثمانية حبلى بأوروبا، وستلِدُ يومًا ما"، وبذلك حيّر الشيخَ "بخيتَ"[68].

وطبيعي جدًّا أن تتطلَّبَ هذه النوعيّة من التحوُّلات الدوليّة زمانًا طويلًا، ومع هذا فإن الفرصةَ لم تَضِعْ بعدُ، ونرى أن الوقتَ الكافيَ لم يَفُت بعدُ كي يتسنّى لهذه الفكرة المثاليّة الرفيعة أن تتحقَّقَ، حتى إنه من المتوقّعِ أن تُشْرِقَ الشمسُ في الأوقات الراهنة من الغرب بأملٍ أكثر قوّة مقارنة بالماضي؛ لأن عدد من يقول في الغرب اليوم: "أنا مسيحي، لكنني أقبلُ بأن محمدًا عليه السلام رسولُ الله مثل عيسى عليه

---

[67] انظر: **صحيح البخاري**، الرقاق، 40، الفتن، 23؛ **صحيح مسلم**، الإيمان 248-249، التوبة، 31.
[68] بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص 101.

السلام" ليس قليلًا على الإطلاق، كما أنَّ مفكرين وجموعًا غفيرةً من أصحاب الفكر السليم والقلوب المهيَّأة في العالمِ الغربي حاليًّا تبحثُ عن الإسلام.

ويمكن اعتبار كل هذه الأمور التي ذكرناها أمارات ذلك الفجر الصادق الذي سينبلِجُ، وما يقع على عاتقنا في مناخٍ كهذا هو أن نؤدّي أدعيتنا الفعليّة والحالية على أحسن شكل إلى جانب أدعيتنا القوليّة، مدركين الشعور بالواجب، وأن ننتظر نصف قرن آخر، وربما ربع قرن بأملٍ وصبرٍ، فلننتظر ولنر"ماذا سيلد من رحم الليل قبل أن يشرق النهار**!**".

قضية "الحقوق" في الإسلام

سؤال: وضع الإسلام حقوقًا للإنسان وراعاها، فهل يمكن أن تحدثونا عن تلك الحقوق التي أقرها الإسلام؟

الجواب: الإسلامُ دينٌ عالمي، ولذلك فإن الاهتمامَ الذي أولاه لمسألة "الحقوق" ووجهةَ نظره بشأنها تشمل الكون كله... نعم، فلقد حمى كلَّ "الحقوق" وصانها، حتى إنّه فصّلَ حقوق الحيوانِ وصانَها إلى جانب حقوق الإنسان.

وحياة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم السَّنيّة مَلْأَى بالكثيرِ والكثيرِ من الأمثلةِ المتعلِّقةِ بهذا الموضوع:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **"مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا"**[69].

إن حساسيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في هذا المثال فحسب كافيةٌ لإثبات أن الإسلام نظامٌ تحتضنُ مسألة "الحقوق" فيه كلّ شيء كما هو الحال في غيره من المواضيع، ولا يمكن أن نلمس مثل هذه الرحابة لفكرة "الحقّ" في أيّ نظام آخر.

ويتناول القرآن الكريم موضوع قتل النفس على أنه جريمةٌ تُرْتَكَبُ بحقّ الناس أجمعين؛ فيقول: **(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)** (سورة الْمَائِدَةِ: 32/5).

ولا يمكن العثور على هذه الحساسية الإسلامية الخاصة بموضوع "الحقوق" في أيّ نظامٍ قانونيٍّ بشريّ. أجل، لقد تصرَّف الإسلام بحساسيّة وحذرٍ شديدين في هذه المسألة؛ فجعل قتلَ إنسانٍ واحدٍ يعدِل قتلَ الإنسانية جمعاء، والحقُّ أن القرآن الكريم يلفتُ الأنظار إلى سوءِ عاقبةِ أوّل قاتل لأخيه في تاريخ البشرية في الآية الكريمة: **(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** (سورة الْمَائِدَةِ:

---

[69] **سنن أبي داود**، الجهاد، 122. **وطائر الحمرة**: من طيور الصحارى الصخرية المنبسطة التي يتميز الذكر منها بقرنين ريشيَّيْن في أعلى الرأس بينما لا يظهر القرنان للأنثى، والحمرة المقرنة ليست مهاجرة لكنها متواجدة في الجزيرة العربية والشمال الإفريقي وكذلك في صحارى شمال العراق وجنوب سوريا والأردن وفلسطين. ومعنى **تُفَرّش**: أي تُرفرفُ بجناحيها وتبسطهما.

30/5)،والتي نفهم منها حسب مصادرِ التوراةِ أنهما "هابيل" و"قابيل" ولدا آدم عليه السلام[70]، وإن لم يُصرَّح بالأسماء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية.

ويؤكد القرآن الكريم في سورة أخرى على أن من يقتل إنسانًا ظلمًا وعدوانًا سيخلَّدُ في جهنم إلى الأبد فيقول: **(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)** (سورة النِّسَاءِ: 93/4)، وبالنظر إلى هذه الآية فإنني أُريد هنا التركيزَ بوجهٍ خاص على كلمة "**خَالِدًا**" الواردة في الآية، وذلك لأنها استُخدِمَت دون إضافة لفظ "**أَبَدًا**"، وتُستخدم في آيات أخرى من القرآن الكريم كلمة "**أَبَدًا**" التي تعني "خالدًا"، ومن هنا فإنَّ ابن عباسٍ رضي الله عنهما -ومعه بعضُ التابعين- كان يقولُ بعدمِ قبولِ توبة القاتلِ، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ مَا كُفَّ بَصَرُهُ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَنَادَاهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، مَا تَرَى فِي رَجُلٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا؟ فَقَالَ: جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ، وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ وَالْهُدَى!! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "**ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ، رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، فِي قُبُلِ عَرْشِ الرَّحْمنِ، يَلْزَمُ قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَقُولُ: سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي**"، وَالَّذِي نَفْسُ عَبْدِ اللَّهِ بِيَدِهِ لَقَدْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَمَا نَسَخَتْهَا مِنْ آيَةٍ حَتَّى قُبِضَ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا نَزَلَ بَعْدَهَا مِنْ بُرْهَانٍ"[71].

فعلى مذهبِ ابن عباس: إنَّ مَنْ يقتل إنسانًا مسلمًا متعمّدًا يستحقُّ العذابَ الأبديّ، مثلُه مثلُ مَنْ يُنكرُ الله تعالى، وهو أمرٌ مهمٌّ للغاية من ناحية التعبير عن أهمية حقوق الإنسان، وقد تطور "نظام حقوق الإنسان" في الإسلام انطلاقًا من هذه الأسس.

وكما بيّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الصحيحة فإن الإنسانَ الذي يموتُ دون دينه أو ماله أو دمه أو أهله أو نفسه فهو شهيدٌ؛ قال صلوات الله عليه: "**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**"[72]، وبناءً على هذا

---

[70] انظر: الكتاب المقدس(الترجمة التركية)، العهد القديم، الخلق، الباب: 4، الجملة:1-2.

[71] **مسند الإمام أحمد**، 44/4؛ الطبري: **التفسير**، 342/7.

[72] **سنن الترمذي**، الديات، 22؛ **سنن أبي داود**، السنة، 32.

أُعتُبر الكفاح من أجل هذه الأمور جهادًا في الوقت ذاته، والحقيقةُ أن هذه الأسس الخمسة قُبِلَتْ في كلِّ الأنظمة القانونيّة في العالم على أنها مبادئ أساسيّةٌ، وصِينَتْ، وعلى رأسِ هذه الأمورِ الخمسة يأتي الدين ثم تتبعهُ الأسس الأخرى، وكلٌّ منها ركنٌ حيويٌّ كُلِّفْنا بصيانتِهِ وحمايتِهِ، وهذا الموضوع تستَفيضُ في تقريرِهِ كتبُ الأصول التي تُشَكِّلُ أساسَ قانُونِنَا[73].

وينظُرُ الإسلامُ إلى حقوق الإنسان من زاوية هذه المبادئ الأساسيّة، ويُكلِّفُ كل فردٍ بالحفاظ عليها والدفاع عنها، وعلى هذا فإنه يستحيل قطعيًّا أن يُقالَ إن حقوقَ الإنسان قد أُهملت في ديننا، علاوة على أن الدين الإسلامي فحسب هو الدين الذي كُرّم فيه الإنسانُ بِلَقَبِ "خليفة الله"، فأُعطي الإذن والإمكانيّات ليتدخل في الأشياء بفضل هذه المرتبة السامية التي وُهِبَها، قال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)** (سورة البَقَرَة: 30/2)، وفي الإسلام أيضًا كُرِّم الإنسانُ بالحريات مثل: حرية حماية النفس والأهل، وحرية العمل والمبادرة بالأعمال، لدرجة أنه لا يمكن تحدي الإسلام بالمبادئ التي أقرّتها النظمُ الأخرى فيما يتعلق بهذا الموضوع، كما لا يمكن العثور على أي جانب سلبي في هذه المسألة.

أجل، إن الإسلام منحَ الإنسان الحقَّ والقيمةَ الحقيقية، وقدّرَه وسانده، ودعمه حيث صان كلَّ حقوقِهِ وحفِظَها.

---

[73] انظر: الآمدي: **الإحكام**، 300/3، **الفروق**، 85/4؛ الشاطبي: **الموافقات**، 38/1، 10/2.

خصائص بشرية رسولنا صلى الله عليه وسلم وصحابته

سؤال: ما رأيكم بشأن ما يُطرحُ من أفكار على الساحة في يومنا الحاضر تدعي وقوع أخطاء من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته؟

الجواب: تُدَنْدِنُ بعضُ الأصوات في الآونة الأخيرة ببشريّة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في محاولةٍ منها للتأكيد على أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم باعتبارهم بشرًا ربما وقعوا في خطإٍ ما.

والواقع أن احتمالية أن يُخطئَ كلُّ الناس أمرٌ أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: **"كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"**[74]، ولو أننا نظرنا إلى المسألة من هذه الجهة لكان من الطبيعي للغاية أن يدخلوا هم كذلك في نطاقِ هذه الدائرة، غير أنه ليس من الصحيح تقييم خطئِهم أنفسهم على نفس مستوى أخطاء أناس عاديّين مثلنا، وما حدث من صراعات بين الصحابة إنما ينبع من خطإٍ في الاجتهاد..

فمثلا؛ فضّلَ بعضُ الصحابة الجلوس في بيوتهم بينما وقف بعضُ الصحابة إلى جانب سيدنا علي رضي الله عنه في الحوادث التي جرت بينه وبين سيدنا معاوية رضي الله عنهما، وحينما سُئِلَ الواقفون إلى جانب سيدنا عليٍّ كرَّمَ الله وجهه عن سببِ انحيازِهم إليه؛ أجابوا بأنّهم يستندون إلى قولِ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم: **"إِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَتَانِ، فَاقْتُلُوا أَحَدَهُمَا"**[75]، **"وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَمِينِهِ وثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ مَا اسْتَطَاعَ، وإِنْ خَالَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَاحْتَزُّوا رَأْسَهُ"**[76]، وما دام عليٌّ رضي الله عنه قد بُويِعَ أوّلًا فلا بد أن يُقتلَ مَن ظهرَ بعده أو أن يأتي الشخص الثاني ويبايع الخليفةَ الأصليّ...

ومن جانب آخر، فإن من لَزِمُوا بيوتهم من الصحابة كابن عمر رضي الله عنه حين سُئِلوا: لماذا لم ينحازوا إلى عليّ، وجلسوا في منازلهم؛ قالوا: قال سيدنا رسول الله: **"هل ترون ما أرى؟ إِنِّي أَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ مَوَاقِعَ القَطْرِ"**[77]، **"إِيَّاكُمْ وَالْفِتَنَ لَا يَشْخَصُ لَهَا أَحَدٌ، وَاللَّهِ مَا شَخَصَ فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا نَسَفَتْهُ كَمَا يَنْسِفُ السَّيْلُ الدِّمَنَ، إِنَّهَا مُشْبِهَةٌ مُقْبِلَةٌ، حَتَّى يَقُولَ الْجَاهِلُ هَذِهِ تُشَبِّهُ مُقْبِلَةً وَتُبَيِّنُ مُدْبِرَةً،**

---

[74] **سنن الترمذي**، القيامة، 49؛ **مسند الإمام أحمد**، 344/20.
[75] الطبراني: **المعجم الكبير**، 314/19، **المعجم الأوسط**، 169/4.
[76] الطبراني: **المعجم الكبير**، 547/13.
[77] **صحيح البخاري**، الفتن، 17.

فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَاجْثَمُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَكَسِّرُوا سُيُوفَكُمْ، وَقَطِّعُوا أوتَادَكُمْ"[78]، ولأجل ذلك فضلنا الجلوس في البيت.

وكما تبين فإنّ لكلِّ واحدٍ من الفريقين أدلّةً يعتمد عليها في تصرُّفاته. أجل، إن تصرُّفات هؤلاء الأشخاص الربانيين الذين قضوا عمرهم كلّه إلى جانبِ الحقّ أكسبتهم -حتى ولو كانت خطًا- الثوابَ والأجرَ دائمًا وفقًا لمعنى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ"**[79]، ولذلك فإنني على قناعةٍ بأن مقارنة أحوالهم تلك بتصرفاتنا الحاليّة إنّما هو خلطٌ خطيرٌ.

أما بالنسبة لمسألة هل يُخطِئُ سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم؛ فربما يقعُ هو أيضًا في هذا كما تقتضي الطبيعة البشرية، ولا بدَّ من اعتبار هذا أمرًا طبيعيًّا لكونه بشرًا هو أيضًا، غير أن الحقَّ تعالى قد عصمه من الخطإ؛ وذلك لوجودِهِ في مقام التشريع دائمًا أو أن الله سبحانه وتعالى كان يُصحِّحُ الخطأَ الذي يقعُ فيه نبيّه (صلى الله عليه وسلم)، ومن ثَم يلزم تقييم أخطاءهم في إطار "حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ".

وبهذه الوسيلة فإنني على قناعةٍ بأنه ينبغي عدم الالتفات إلى ما يُطرحُ في يومنا الحاضر أحيانًا من أفكارٍ تدّعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرٌ، ومن الممكن أن يخطئ أيضا معاذ الله!، وتُستخدم هذه الأفكار البريئة في ظاهرها مدخلًا إلى أشياء أخرى؛ لأن هذه النوعية من الملاحظات بدأت باستصغار الفقهاء الكرام؛ بكلمات من قبيل: "هُمْ رِجَالٌ ونَحْنُ رِجَالٌ" وفي تلك الفترة التي قيل فيها "مَنْ أبو حنيفة، ومَنْ الإمام الشافعي!؟"؛ أظهرتُ قلقي وخوفي أن يتمادى هذا الأمر فَيَصِلَ إلى حدِّ استجوابِ الصحابة ورسول الله في يوم من الأيام، وليس هؤلاء فحسب من يتعرّض لهذا الأمر الآن، بل إن القرآن الكريم -للأسف- يخضع للاستجواب والمساءَلَةِ من قِبَلِ بعض الأوساط، وبالطبع هناك كمٌّ هائلٌ من الناس في يومنا الحاضر قد أُصيبوا بهذه الفيروساتِ فمرِضَت نفوسهم، وإنني أرى أنَّ من يستصغرون أولئكَ العظماءَ لو أنهم التقوا بأحدِ طلّاب أبي حنيفة -ولا أقولُ بأبي حنيفةَ نفسه- لألْجِموا ولم ينبسوا ببنتِ شفةٍ، ولَرَكَعُوا لهم تعظيمًا وإجلالًا.

---

[78] **جامع معمّر بن راشد**، الفتن، 359/11.

[79] **صحيح البخاري**، الاعتصام، 21؛ **صحيح مسلم**، الحدود، 15.

وهنا أريد أن أقصَّ حادثةً تتعلق بالموضوع، فقد تعرَّفْتُ ذات مرة في أحد الأقضية برئيسِ بلدية سابق ضعيف البنية يُدعى "شريف بك"، وتحدثتُ عن أنني لم أُهْزَمْ قط قديمًا في حَلَبَاتِ المصارعةِ التي شاركتُ فيها أيامَ طفولتي، فأسرعَ هو أيضًا يقول: "إنه لم يهزم قطُّ في المصارعة طوال حياته"، فلما سَمِعَ الحاضرون هذا الكلام تحيَّروا تحيُّرًا شديدًا، فما لَبِثَ شريف بك أن قال بعد هذه الحيرة القصيرة الأجل: "لأنَّني لم أتصارعْ قطُّ في حياتي" وبطبيعة الحال ضحكنا جميعًا. أجل، لقد كان التبجُّح الكلاميُّ على أولئك الأشخاص العظام أمرًا سهلًا في هذا الوقت، في حين أن أبطالَ يومنا التافهين هؤلاء لو التقوا بأولئك الأئمة القمم في عصورهم ذاتها لوقعوا في موقف مضحكٍ يُشْبِهُ تصارُعَ إنسانٍ ضعيفٍ أمام بطلٍ مغوارٍ قويّ.

والحاصل أنني مقتنع بأن التسوية بين أخطائهم وأخطائنا لن تكون صحيحة، وأن ثمة نوايا سيئة وراء هذه النوعية من الأفكار؛ ومن هذه الناحية ينبغي ألا تُعتبر تلك الأفكار نزيهة بريئة.

منهج التبليغ مرة أخرى

سؤال: يلفت القرآنُ الكريم الانتباهَ إلى أنَّ الناس يُظهرون ردّةَ فعلٍ تجاهَ الرسائل الإلهية الواردة إليهم، قائلين: (مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) (سورة ص: 7/38)، ويلجؤون إلى العنفِ، ونحنُ أيضًا نُواجِهُ هذه النوعيّة من ردود الفعلِ رغمَ ما لدينا من نيّةٍ وعزيمةٍ صادقةٍ لتوصيلِ إلهامات روحه إلى كلّ أرجاءِ الدنيا، فما هي المناهج والدساتير التي ينبغي تتبُّعُها في هذا الموضوع؟

الجواب: يحكي القرآن الكريم أن بعضَ السُّذَّجِ مختلّي الفكر يقولون: **(مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)** (سورة الْمُؤْمِنُونَ: 24/23) ويلاحَظ أن كلَّ الفراعنة والنماردة والمتمرّدين والمستبدّين الآخرين يتحرّكون في إطارِ الفكرةِ نفسِها بسبب تمرُّدِهم ومماحكاتِهم، تمامًا كأن يقول طفلٌ حادُّ الطبع عنيد: "ليس على هذا النحو إطلاقًا"، يقول ذلك لمجرّد العنادِ ومخالفةِ المنطقِ إذا ما قيل له بشأن أيّة مسألةٍ من المسائل: "إن الأمر على هذا النحو"، وإنَّ تمرُّدَ أولئك الناس وقولهم: **(مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)** (سورة الأَنْعَامِ: 91/6) معارضين بذلك الحقيقة المهمة التي بينها الله تعالى بقوله: **(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/3)؛ ليس شيئًا آخر سوى تعبير عن حالةٍ روحية مرضية تقليدية، كما يمكن مشاهدة الحالة الروحية عينها في قولِ فرعون الذي شَعَرَ بالهزيمة النفسية أمام إرشاد موسى عليه السلام لقومه، إذ قال: **(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)** (سورة غَافِرٍ: 26/40).

والواقع أن قولَ مجموعةٍ من الناس يعيشون في يومنا الحاضر: "كان جدّي أيضًا يصلّي، كما كانت أمي تغطّي رأسها؛ لكنني لا أغالي مثلكم، إن قلبي نظيف ونظافة قلبي تكفيني... إلخ"، وعَيْبُهم على مخاطبيهم أنهم ينتمون إلى جماعةٍ أو ما شابه ذلك؛ ليس شيئًا آخر سوى صورة حديثةٍ من التمرُّدِ والحالةِ النفسيّة ذاتها، ويبدو أنَّ كلَّ هذه الأشياء نوعٌ من المغالَطةِ التي لم يلتَفِتْ إليها رجالُ المنطِقِ القدماء كثيرًا، وإسرافٌ في الكلام يهدفُ إلى خداع الطرف الآخر.

أجل، تناول القرآن الكريم والسنة النبوية بعضَ الاختلافات بين معنيَيْ "الإسلام، والإيمان"، ونعتقد أن الإيمان والإسلام بالمعنى الحقيقي هو هذا، والوضعُ الإلهي الذي نسميه "الدين" هو العنوان الجامع لكل ذلك، و"التدين" اسم لصيرورة هذه الحقيقة الجليلة حياةً أو إحياء للحياة. مبدؤه يستند إلى أجمل الكلام وأحسنه: كلمةِ الشهادة أو كلمة التوحيد.. ومنتهاه يمضي حتى يصل إلى رؤية الحق تعالى. فكل مَن يرَضى به ويعيشه على هذا الحال -والله يتولى السرائر- هو مؤمن ومسلم

ومتدين من وجهة الكتاب والسنة... وأي اسم أو عنوان آخر غير ذلك قد يُلصق به يعني تهوينًا من شأنه ووضعًا من قدره.

إن الموقف الذي وقفه ذلك العالَمُ المعادي على مرِّ التاريخ يَقِفُه في يومنا الحاضر كذلك، فإن كانَ من المقدَّرِ له أن يقف الموقف نفسه في المستقبل أيضًا، ويُصَعِّد هؤلاء المعادون مواقفَهم هذه لدرجة استخدام العنفِ؛ فإن خَدَمَةَ القرآنِ الكريم أيضًا مطالَبون بالتحلّي بالصبرِ واللين مسبقًا في مواجهةِ الأَزَمَات التي سيتعرّضون لها، إننا لا نأمن المستقبل ولا ندري ماهيَّتَهُ؛ ومن ثمّ فقد يكون كلُّ شيءٍ جيّدًا أكثر من العادة؛ وقد تَهُبُّ عواصف عاتيةٌ جدًّا، فإن هبَّت العواصفُ فإن أصحابَ الصبر والثبات القويّ، وكاملي الغيرة والإقدام والعزمِ والجهد الذين يتناولون المسألةَ وهم على وعيٍ بِسِرِّ الابتلاءِ سيستطيعون مواجهةَ شدّة تلك العواصف وضغطها، ويسيرون قُدُمًا نحو مستقبلٍ مشرقٍ، ومن يدري ربما تصبح الظروف أصعب وأشدّ وطأةً من تلك التي كانت في زمان المهمومين بأمتهم الصابرين على البلايا المتحمِّلين للشدائِدِ- الذين هم أوّل من بدأ هذه السُّنّة-، وربما يقول من تطوَّعَ في هذا السبيل: "ليتني مِتُّ قبلَ هذا، ولم أرَ هذه الأيام!"، ومن يدري أيضًا فربما يُرغبُ في الموت أكثر من الحياة بكثير؛ وبالتالي يُصفّى ويُغربل هؤلاء الذين يُغفلون سرّ مثل هذا الامتحان في الآونة الراهنة.

في ذلك اليوم سيغربل ويُمتحَن بعضُهم بالخوف، ويغربَلُ الآخرون بالولَعِ بالمستقبَلِ، بينما يُغربل البعضُ الآخَرُ بمرضِ الشهرة، كما أن هناك من سيُغربَلون بسبب الأنانية، وهناك من سيُغربَلون لعجزِهم عن حمايةِ الإخلاصِ والصدق اللذين كانا يتحلون بهما في بداية عملهم؛ سيُغربلون لأنه لم يستطع أحدٌ من الأنبياء العظام، ولا الأولياء الفخام، ولا الأصفياء الكرام، ولا المجتهدين العظام، ولا المجددين الكرام الوصول إلى الهدف المنشود سيرًا على نَمَطٍ واحدٍ كهذا... عزّ عليهم الوصول، وامتُحِنُوا مرّاتٍ ومرات، وغُرْبِلُوا عدّة مرات، ثم توجّهوا فبلغوا الهدف، وأكرِّرُ هنا أن هذا العملَ هو عملُ أولئك الذين أُمتُحنوا كثيرًا، وأثبتوا صدقهم ووفاءَهم لله تعالى في مواطن كثيرة.

وينبغي أن يُقبَلَ هذا الأمرُ على هذا النحوِ منذ البداية، وألّا يُتساءل لاحقًا: "ماذا يحدث؟" لأن هذا قولُ من ينتقدون قدرَ الله ولا يرضون بالقضاء، وبمعنى أصحّ هذا قولُ الفِكْرِ الكافر، وهنا يقولُ بديع الزمان سعيد النورسي معبّرًا عن قَلَقِهِ

بشأن التضييق القادم: "ونسأله سبحانه ألا يُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به"[80]، بيدَ أن المالَ والمنالَ أيضًا يُعطيان من أجلِ تملُّكِ شيءٍ كهذا، ومع ذلك فإن هذا العمل ليس عمل شخصٍ عاديٍّ، وإنما هو عملُ الأبطال، وهذا العملُ ليس خفيفًا بحيثُ يتنكّبه البسطاء الذين لا يحبون الكدّ والتَّعَبَ، ومن يدري فلربما تجثو علينا في المستقبلِ المصائبُ كومةً إثر أخرى كالكابوس تمامًا، وعندها سوف نهتزُّ ونضطرِبُ عدَّةَ مرَّات، وربما نعيشُ صدمة هذا في المرحلة الأولى ونظلُّ في حيرةٍ مدَّةً معينة جَرَّاءَ عجزِنا عن فهمِ معناه، لكننا سوف ننتشي لاحقًا، ونشاهدُ تدابيرَ الحقِّ تعالى وكأننا نراها بإعجاب من دائرة الأسماء أو الصفات، وننتقلُ من متعة إلى أخرى.

وكما أنَّ تعاضدَ الأفراد في بعضِ الأحوال تعاضدًا قويًّا يحولُ دونَ ضياعهم وخسرانهم؛ فإنه يُعدُّ بالنسبة إلى الأشخاص العازمين على إعمارِ دنيا المستقبل السعيدة، العاشقين لفكرة مثاليةٍ سامية ضمانًا وتأمينًا بالدرجة نفسها ضدَّ العوامل التي قد تُثير الخلافَ بينهم، فتمنعُهم من الالتفاف حول الحقِّ والحقيقة، ولأجل هذا ينبغي لكلِّ فردٍ أن يُعمِّقَ علاقتَهُ بالصالحين ومحبّي الحقِّ، وعليه أن يتجمّعَ مع إخوتِهِ حول فكرة الحقِّ والحقيقة الخالصة.

أجل، إن الخدمة في سبيل الأمة والدين جزءٌ لا يتجزَّأ من طبيعة الإنسان العاشق للحقِّ، المحبّ للوطن، لكنه يلزم اجتياز عدد من المراحل كي يتحقَّق الوصول إلى نقطةٍ كهذه، فالصلاة مثلًا؛ هي أكثرُ أعمال المؤمن جدّيّة، غير أن الإنسان الذي يبدأُ الصلاةَ لأوّل مرة يضغطُ على نفسِهِ قليلًا في أدائِها بشكلٍ جادّ في البداية، وربما يظل يتمرَّن ويتدرَّب سنواتٍ طويلةً كي يُحقِّقَ مثل هذه الجدية، ثم يُوفَّق في النهاية إلى أداء الصلاة بخشوع، حتى إن الأقدمين إذا ما أرادوا أن يفهموا درجةَ صِلَةِ الرجل بالله تعالى ينظرون إلى حاله في الصلاة؛ سجودِهِ وقيامِهِ ووقارِه ووقوفِه بإخلاصٍ بين يدي الله، ويحكمون عليه وفقًا لذلك.

إلا أنه يجب ألا يُنسى أن الفوزَ والنجاحَ اللذين يُتوِّجا المرحلةَ الأخيرةَ ربما يكونان ثمرةَ تدريباتٍ وتمريناتٍ دامَتْ سنواتٍ طويلةً، فالشخصُ الذي يصومُ للمرَّةِ الأولى يُعاني كثيرًا جدًّا إلى أن يبلغَ وقتَ الإفطار، غيرَ أنَّ الحقيقةَ أنه لن يُقاسي فيما يصومه من الأيام لاحقًا بقدرِ ما قاساهُ في اليومِ الأوّل؛ لأنه حينئذٍ قد اندمَجَ مع الصومِ، ومن يقولُ من الناس حين يُعطي الزكاة للمرة الأولى: "لقد انخلعَ قلبي، وراح؛ لقد كدتُ أموتُ!" يصبحُ فيما بعدُ في حالةٍ مختلفةٍ تمامًا عن الأولى؛ فيبدأُ

---

[80] انظر: بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة السادسة عشرة، السؤال الثالث، ص 143.

التذمُّر حين لا يُدعى إلى تقديم المددِ إذا ما لاحت فرصةٌ للإنفاق في سبيل الله فيقول: "لماذا تركتموني دون أن أنالَ نصيبي، ماذا تقصدون أن تفعلوا بي؟" وفي هذه المرة يصبح كمن شارفَ على الموت لأنه لم يُزكّ؛ حيث تعوّد على العطاء، والنقطة الأخيرة هذه هي تعبيرٌ عن معنى الاندماج والتفاعل مع الزكاة.

أجل، كما أن الذُرَى التي وصلنا إليها في عباداتنا تتحقَّق مع مرور الزمان بالتمرين والتمرُّس؛ فإن مسألةَ الاندماج مع الأعمال الصالحة والتحلِّي بفكرةِ المسؤولية أمام الدين والأمة ومصاحبة الصالحين تتطلَّبُ الجدّيّة إيّاها من التمرُّسِ والتمرين، ومن هذه الزاوية فكما يمكننا أن نحافظَ على عباداتنا وطاعتنا وإخلاصنا ويقيننا وفهمنا للتقوى بكلّ حساسية ودقّة من خلال تقوية علاقاتنا بالمؤمنين الآخرين فإن مخالطةَ الصادقين تقوم -بالنسبة لنا- مقامَ درعٍ مهمّ جدًّا فيما يتعلّق بتخطّي غوائلِ المستقبل ودواهمه

لنفترِضْ أننا بعد أن نحظى برضا الله تعالى، ونجعل من أعمالنا الصالحة وواجبنا نحو الدين والأمة جزءًا من طبيعتنا، ونجالس الأحبة دائما؛ زجوا بنا مؤقَّتًا في جهنم؛ فعلينا ألا ننسى أبدًا أن قبولَ دعاء وتضرُّعِ واحدٍ منَّا قد يكون سببًا في نجاةِ الآخرين.

أما الجانب الآخر من المسألة فهو: إنّنا إذ نبتغي رضا الله تعالى من خلال ما نقوم به من أعمال الخير في سبيل الإيمان والقرآن ربما نُهمل الأشياء المتعلّقة بجوهرِ المسألةِ قليلًا، لذا فعلينا ألا ننسى أنَّ وظيفتَنا الأساسية هي أن نكونَ من المتّقين الزاهدين المقرّبين الراضين المرضيّين المحبّين المحبوبين الصافين العلماء الصالحين.

أجل، إنّنا نستهدفُ أعظمَ التقوى وأعظم الإخلاص وأعظمَ الورع والتحلِّي بهم جميعًا، وما دام الأمر هكذا فكلُّ هذه الأمور إن لم نكن نردِّدُها في أدعيَتِنا القوليّة في الوقت الحالي، وإن كنا لا نحاول إدراكها بالفعل؛ بل إن لم نستغلّ الليلِ والنهار في هذا الاتجاه؛ فهذا يعني خلوّ جسدِنا من أيّةِ مقاومةٍ ضدَّ الميكروبات، وحين يكون الأمر على هذا الوضع يبدأُ الخوفُ يومًا ما يُعشّشُ في أجسادنا كالجرثومة، ولا سيما حينما تعترضُ طريقَنا الشهرةُ وحبُّ الراحة والخمول والوله بالأولاد والعيال فربما نُسحَقُ ونَخرُّ منهزمين شرَّ هزيمة، في حين أن أقصرَ طريقٍ للوقايةِ من مثل هذه الأخطار هو أن يعيشَ الفردُ في دائرة الزهدِ والتقوى والإخلاص.

انظروا إلى مهندس روح العصر ومعمار عقله (بديع الزمان سعيد النورسي)؛ فبينما يقول إن: "التقوى هي أداء الفرائض، وترك الكبائر"؛ كي لا يبعث اليأسَ في القلوب ويتمكَّن المبتدئون من دخول دائرة التقوى، نجده يقول أيضًا: "إن كلَّ طالب من طلاب النور عليه أن يجتهد لكي يحقق أعظم التقوى وأعظم الزهد وأعظم الولاية وأعظم الإخلاص بقدر ما"[81]. أجل، إن ذلك الحُلاحِلَ القائمَ على رأسِ هذا الأمر رفضَ الشهرةَ عندما جاءَتْه، وقال: "الشهرة رياء محض وموتُ القلب، فلا تطلبْها لئلّا تصيرَ عبدَ الناس، فإن أُعطيتَها فقل كما قال الـمُصابُ: **(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** (سورة البَقَرَة: 156/2)، وانجُ بنفسك!"[82]، ورأى هذا الأمر في منامه، وشَهِدَ في رؤياه كم أنه مصيبة كبرى، ثم اتَّخَذَ موقفًا ضدّه في عالم الحقيقة، وأظهر السبيل للقضاء على ذلك الفيروسِ بواسطة الإخلاصِ والزهدِ والوَرَعِ.

أجل، إن الخوف لم يتسلل إليه قطُّ رغم الْتِفافِ الثعابين والعقارب حوله وتهديدها إيّاه مدى الحياة؛ وما ذكَ إلا لأنّه أحسنَ تعييرَ وضبطَ آليّة الدفاع وحصَّنَها ضدَّ كلِّ أنواع الخوف.

وما أجمل ما قاله الشيخ محمد لطفي أفندي[83]:

يا صاحبَ القلبِ تعلَّمْ من "البلبل" رياضَ المحبة

تعلم من سنبل السعادة الذي فوق رأسه كالـحَـبَّـة

وسلّم الأمر لله موجدِ العالمين

يا صاحبَ القلب تعلَّمْ من حديقةِ الهداية التي في عينيك

فالرزق يطلُبُ صاحبه وسيأتي بما لَكَ إليك

وتَعَلَّمْ من عرجون العِنَبِ كيفَ يحملُ النافعَ والمفيدَ

فمن يأمر الجائرين عليك بالجفاءِ لك إنما هو القويُّ الحميد

فاعتبر من جوادِ عليٍّ المبتَلى

---

[81] بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، مؤتمر، ص 820، "شاهدامر يايئلاري (Şahdamar Yayınları)"، إسطنبول-2007م (باللغة التركية).

[82] بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، ذيل القطرة، ص 176.

[83] **"أَلْوَارْلِي محمد لطفي أفندي"** (1283هـ/1868م-1375هـ/1956م): عالمٌ زاهدٌ وشاعرٌ، ولد في محافظة "أَرْضُرُومْ" شرقي تركيا، حصل على الإجازة العلمية من كبار علماء عصره، وبعد أن عُيِّن إمامًا وخطيبًا انتسب لشيخ النقشبندية محمد بيري كفراوي، عُرِف بين الناس بـ"إمام أَلْوَارْ"، واشتهر بلقب "سيدي أفا"، نظم أشعارًا بالعربية والفارسية والتركية، نُشرت فيما بعد تحت عنوان "خلاصة الحقائق". **(المترجم)**

والحاصلُ أنه ينبغي لنا أن نضعَ نصبَ أعينِنا عندما تضيق بنا السبلُ مراحلَ حياة أهل الابتلاء، ونحلج من جديد عالمنا الفكري والشعوري، وندخلَ العالم الذي يعيشون فيه، ونستشعرَ أصواتهم وأنفاسهم.

إذ ينبغي لنا أن نستَشْعِرَ همسَ فضيلةِ الأستاذ النورسي رحمه الله وصفوةِ طلَّابِهِ وكلَّ من سبقه من المهمومين وهم يهمسون في آذانِنا قائلين: **"اثبتوا"**، فما أروعَ دفاع **"زُبَيْر كُونْدُوزْ أَلْبْ"**[84] الذي يفطّر حتى الجبال عندما كان يُحاكَم بالإعدام في محكمة **"آفيون (Afyon)"**[85]، ما أروعها من مرافعةٍ تبعثُ فينا الشعورَ بالمتانة والصَّلابَةِ**!** أسأل الله أن يتلَطّفَ علينا بهذا الكنزِ القيّمِ والثمين الذي لا يدكه أحد سواه، أسأله أن يتلطَّفَ به علينا ليس بقيمتِهِ الحقيقية، ولكن بالقدر الذي نستطيع النهوضَ والقيامَ معه.

---

[84] **"زُبَيْر كُونْدُوزْ أَلْبْ** (Zübeyr Gündüzalp)**"** (1920-1971م): ولد في قضاء "أرمنك (Ermenek)**"** التابع لولاية **"**قونيا (Konya)**"** التركية، ظل عشر سنوات ملازمًا للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي وفي خدمته ليل نهار حتى وفاة الأستاذ النورسي.

[85] لمزيد من المعلومات عن محكمة **"**أفيون**"** اقرأ الشعاع الرابع عشر من كتاب **الشعاعات** لبديع الزمان سعيد النُّورسي؛ وانظر أيضًا دفاع "زُبَيْر كُونْدُوزْ أَلْبْ" في نفس القسم (ص 548-556) (دار النيل، 2009م).

الفصل الثالث
حولَ محورِ الدين

صعابٌ واجبةُ الاجتياز في طريقِ إنسانِ الإرادة

سؤال: ما المقصود من"كِبَرُ الْبَطْنِ، وَمُدَاوَمَةُ النَّوْمِ وَالْكَسَلُ وَضَعْفُ الْيَقِينِ" التي دفعت رسول الله إلى القلق على أمَّتِهِ منها، وهل هناك تلازمٌ بينها؟

الجواب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف: **"أَخْشَى مَا خَشِيتُ عَلَى أُمَّتِي كِبَرُ الْبَطْنِ، وَمُدَاوَمَةُ النَّوْمِ وَالْكَسَلُ وَضَعْفُ الْيَقِينِ"**[86]، فلنقف أوّلًا وقفات قصيرة على الأمور التي تُخيفُ سيدَ الأنبياء صلى الله عليه وسلم والتي ذُكرتْ في هذا الحديث الشريف، ثم ننتقل إلى التناسب والعلاقة بينها.

إن عبارة" **كِبَرُ الْبَطْنِ**" بلفظِها هذا الوارد في الحديث تعني الإنسانَ الأَكُولَ الذي جعلَ الطعامَ والشرابَ غايتَهُ في الحياة، وركن إلى الغفلة، وهو -إن جازَ التعبيرُ- ذلك الذي يعيش من أجل الطعام وبالطبع يصبح بَدِينًا نتيجة لهذا، وتلك هي أوَّلُ صفةٍ للأشخاصِ الذين شعرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقَلَقِ على حياتهم الدنيويّة والأخرويّة.

كثرة/مداومة النوم: تعبيرٌ نسبيٌّ في الأصل؛ إذ إنكم حين تسألونَ الأطبَّاءَ في يومِنا الحاضرِ: كم ساعة يحتاجها الإنسان يوميًّا للنوم؟ تحصلون على إجابة بأنها خمس ساعات بشكل عام، ويؤكد الأطبّاء على أن نومَ الإنسان أكثر من ذلك قد يضرُّ بجسم الإنسان، كما أشار إلى هذه المسألة كثيرٌ من أهل التحقيق إلى جانب الأطباء، ووقفوا على المخاطر التي يتسبَّبُ فيها النوم بالنسبة للعلاقة بالله تعالى، وانطلاقًا من الفكرة نفسها سُعِيَ إلى تنظيمِ مسألةِ النوم في المدارس، فخُفِّضت ساعات النوم هناك إلى ثلاث ساعات، وقد اهتمَمْتُ أنا العبدُ الفقيرُ بهذا الأمر في فترةٍ ما، وقللتُ ساعات نومي إلى ساعتين؛ لدرجة أنني كنت أتثاءب حتى المساء إن نمت أكثر من ذلك.

ومن هذه الزاوية فإن "كثرة/مداومة النوم" مفهومٌ نسبيٌّ؛ إذ قد يكون نوم ثماني ساعات قليلًا بالنسبة للبعض، بينما يكون نوم ثلاث ساعات كثيرًا بالنسبة للبعض الآخر، ومهما يكن فعلينا انطلاقًا من حقيقةِ أن خمسَ ساعاتٍ من النوم تكفي جسم الإنسان -حسبما تشير إليه المعطياتُ الطبية- أنْ نخفض ساعات نومنا اليومية إلى خمس ساعات على الأكثر، ثم نبذل جهدَنا لتخفيضِها أكثر من ذلك تدريجيًّا.

غير أنني ألفت انتباهكم ها هنا إلى أمرٍ؛ ألا وهو أن الإنسان الذي لا يستطيع تنظيم طعامه وشرابه، فيأكلُ كلَّ ما يحلو له لا يمكنه أن يقللَّ من ساعاتِ نومه،

---

[86] السيوطي: **الجامع الصغير**: 1251/1.

وسوف نُعَرِّجُ على هذا مجدَّدًا حين نتناول العلاقة بين تلك الأمور المذكورة في الحديث.

الكَسَلُ: الكسلُ واحدٌ من الأمور التي استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها بالله في أدعيتِهِ، ففلسفةُ الإسلام الرئيسةُ هي الحيويّة والحركةُ في كلِّ جزءٍ من عالم الوجود، وقد تدخَّل الإسلام في معظَمِ القضايا التي تُخالِفُ هذه الفلسفةَ، فمثلًا؛ أعطى حقّ وضع اليد على الأرض الموات التي لا يزرع فيها أيّ شيءٍ ألبتة بشرط إحيائها، وحذَّرَ صاحبَ المال تحذيرًا شديدًا من عدم استغلالِ وتداوُلِ مالِهِ في التجارة، وإلى جانِبِ الحِكَمِ والأحكام الأخرى فقد أدخلَ هذا المال ضمن الأموالِ الواجبِ أداء الزكاة عنها كإجراءٍ وقائيٍّ يمنعُ هذا الخمول.

وعلى أيَّةِ حالٍ فإن موقفَ الإسلام تجاهَ الإنسان الذي يعيشُ حياتَهُ كالمتطفّلين؛ فيجلسُ كَسِلًا خاملًا في أحد الأركان لا يختلفُ عن موقفِهِ تجاهَ الجمادات، ومن المؤشّرات على موقفِهِ هذا دعاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تحدَّثْنا عنه آنفًا أو عَدُّهُ الكسلَ ضمن الأشياء التي يخافُ على أُمَّتِهِ منها.

"ضعفُ اليقين": لليقين مراتب مثل علمِ اليقين، وعينِ اليقين، وحقِّ اليقين، وعليه فإن لم يستطع الإنسان تفسيرَ الحقائق التي آمنَ بها وفقًا للعلم فهذا يعني أنه معدوم اليقين، أي إنّه إن لم يستطِعْ بالعِلْمِ أن يُغذّي إيمانه بالله والرسل والكتب والحشر وأركان الإيمان الأخرى، أو أن يُسْنِدَها إلى البراهين الآفاقيّة الظاهرةِ المأخوذةِ من الكون، أو يقيمَ الصلة بينها وبين البراهين الأنفسيّة؛ فإن هذا الإنسانَ لا يملك من اليقين شيئًا، وهنا أسترعي انتباهكم إلى أن ما لديه ليس ضعفًا في اليقين، وإنما هو انعدام لليقين تمامًا! لأن العلم هو بداية اليقين وأوّل خطواتِهِ، وليست هناك مرتبة أدنى وأحط من انعدام اليقين بالنسبة للإنسان؛ لأن الأدنى من ذلك هو حياة البهائم.

قلنا إن العلمَ هو بدايةُ مراتبِ اليقين، فمثلًا؛ إن أوَّلَ مراتبِ اليقين أو علمِ اليقين هو تدقيقُ كتابِ الكون المفتوحِ أمامنا -وكأنه المعرض- بأسلوبِ الرحالة والفنّان ذي الذوق البديع أو العالم الواقف على الإيكولوجيا (علم البيئة وطبيعة الأرض)، المتعمّق في أغواره، ثم إقامةُ الجسور بين الكون والقرآن الكريم الذي ينبثُقُ من صفة كلام الله؛ وتدقيقه بواسطة تلاوته وقراءتِهِ والرضا بالحقِّ تعالى، والإيمان به إيمانًا لا يأتي بما يُخالف مقتضياتِهِ ويُناقضُها، أما إن تدنّى علمُ الإنسان بحق الله تعالى، وبحقِّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك المستوى الذي تحدَّثْنا عنه، فهذا يُشَبَّهُ بـ"البهيميّة"، وأرجو ألا يُفهم الأمرُ خَطأً؛ فالإنسان الذي

يحمل هذا القدرَ البسيطَ من الإيمان ليس كالأنعام، لأن هناك الكفار وهم أدنى منه وأحطّ؛ إذ لا علاقة لهم بالإيمان، قال عنهم القرآن الكريم: **(أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)** (سورة الأَعْرَاف: 179/7)؛ أما المؤمن معدوم اليقين فهو يتّسم بصفة من صفات الحيوان، ولأجل ذلك فإن الإنسان الذي يسير داخل حدود الفطرة مطالبٌ بأن يعطي إرادته حقها، ومن ثمّ ينبغي له وهو يسير في الطريق التي تفضل الله تعالى بتعيينها له أن يبلغ الإنسانية بإرادته وهو "حر مطلق" كما عبر عن ذلك الشاعر "عاكف" بأسلوبه في إحدى قِطَعِهِ الشعريّة:

والحياة حينئذ بهيمية... بل إنها أحقرُ

لأن البهائم مقيدة بالفطرة، لكن الإنسان مطلق حرّ متخيّرُ!

أو بتعبير أصح "حر مقيد"، وينبغي له كذلك أن يحملَ المشاعر والأفكار الإنسانية المقدرة للإنسان، ويسمو إلى ذلك المقام.

وعلينا أن نُبَيِّنَ على الفور أنّ لِعِلْمِ اليقين أيضًا مراتبَه التي يتشعَّبُ إليها في نفس الإنسان، فمثلًا؛ ينظرُ الإنسان إلى أوراق الشجر، ويسعى لاستيعاب الحيويّة الكامنة فيها، والمعنى الذي تريد أن تكشفه له، ويتأمّل في ثاني أكسيد الكربون الذي تُفْرِزُهُ، ويتنبّه إلى تقلُّبات الليل والنهار، ويجيلُ النظرَ في التوافقِ الكائنِ بين النبات والبشر، وعندها يُدرك أن هذه الحوادثَ وفقًا للحسابات الافتراضية يستحيل أن تقع صدفة، ثم يبحث تأثير الأشعَّة المتماوجة المختلفةِ الأطوال القادمة من الشمس على الأشجار، ويتناول إسهامَ تلك الأشعّة في تكون الثمار... إلخ.

وهكذا يسعى الإنسان إلى نسجِ وتكوينِ خليّةِ المعرفةِ بواسطةِ العُصارات التي يحصلُ عليها نتيجة هذه الدراسات وما شابهها، فإذا ما قيّم هذه المعلومات الواردة من الآفاق الخارجيّة إلى النفس؛ وجدَ في "الأنا" ما يصدّقها فتستقرّ تلك المعلومات علومًا نورانيّة وحكمةً صائبةً في النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العبثيّة[87].

أجل، إن المستوى المتوصّل إليه نتيجة هذا القدر من الجهد هو "علم اليقين" بالنسبة إلى العوام، أما بالنسبة لـ"الخواص" فيمكن أن يتحقق إذا تناولنا الأشياءَ التي حاولنا التمثيل لها آنفًا بأسلوب بسيطٍ بدقّةٍ وحساسيّةِ العالِمِ والخبيرِ، حينها تكتسِبُ النتيجةُ المتوصّل إليها هويّةً مختلفة وفقًا للحسابات الرياضية القطعيّة، وبالتالي يتجاوزُ إيمانُ ذلك الإنسان حتميَّةَ معادلةِ "اثنين في اثنين يساوي أربعة" بكثيرٍ، وهو ما يعتبر بداية "عين اليقين" في الوقت نفسه.

---

[87] انظر: بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الكلمات**، الكلمة الثلاثون، المقصد الأول، المقدمة، ص 624.

وهنا أتطرَّقُ -مستطْرِدًا- إلى أمرٍ ما؛ هو أن "رسائلَ النورِ" نَظَرَتْ إلى المسائل الإيمانية من هذه الزاوية، وبتمثُّلِها دعوى النبوّة جمعت في بنيتِها ما يناسبُ العوام والخواصّ، أي إنه كما يوجدُ بين سطورِها من الأشياء ما يُناسبُ السُّوقةَ من الناس، فهناك أيضا دروسٌ من المعرفة ينهلُها أربابُ المستوى الذين كادوا أن يقولوا عند كل طرفة من عيونهم: "إلهي أنت موجود"، دون تخصيص مكان له -حاشاه- سبحانه وتعالى، وأن يتأهّبوا روحيا لإلقاء أنفسهم بين يديه تعالى، ولهذا السبب يستفيد كلُّ فردٍ من رسائل النور وَفْقَ مستواه، فبينما يسبح البعض ويغوصُ في صفحاتها، يجد البعضُ الآخرُ بين سطورها ألفَ طريقٍ وطريقٍ تؤدِّي إلى معرفة الله، فَيُطَوِّفُ بنفسِه هنالك.

لكن علينا أن نقول إن مَن وَصَلَ إلى أقلِّ مستويات معرفة الله ربما يحظى بلطفٍ من المعرفة الحقّة ينهال عليه كالمطرِ طالما أنه واصلَ طريقَهُ مستهدِفًا أعظمَ الزهد وأعظمَ التقوى وأعظم الإخلاص وأعظم الولاية، وبالطبع فإن إيمانَ من حَظِيَتْ عوالمهم الداخلية بأمطار المعرفة الغزيرة، وإنَّ شعورَهم بالأشياء سيكون مختلفًا تمامًا.

أما "عينُ اليقين" فهو المرتبة التي يُرى فيها تجلّي الله تعالى في وجهِ الأشياء، يعني أنها المرتبة التي يقول عنها الإنسان: "والله إنني لأرى الله تعالى في تلك الشجرة"، غير أن هذا مرتبطٌ بملاحظةِ الشخصِ وإدراكه وحسّه الخاص، وهو أمرٌ غير موضوعيّ من هذه الجهةِ، وإنما أمرٌ ذاتيٌّ تمامًا، فالإنسان في هذه المرتبة يجري دائمًا خلف تفتُّحِ الأزهار، وارتفاع الأشجار إلى السماوات، وصداح الطيور، وخرير المياه... والحاصل أنه يبحث في كل شيء عن الحق تعالى المنزه عن الكمية والكيفية والعَرَض، ويجري وراءه دائمًا كما يجري "المجنون" وراء "ليلاه"، ويقول: نعم، يحتمل إنه ذلك الأثر، ذلك الخيال، ذلك الظل، وكما قال الأستاذ فإنه تعالى: "قد اختفى من شدة ظهوره"، أي إن العيون لم تستطِعْ إدراكَهُ لأنه لا ضدَّ له ولا ندَّ، غير أن هذه المرتبةَ هي مرتبةٌ لمحاولة مشاهدة الله الأظهرِ من كلِّ شيءٍ في الوجود، ولا يستطيعُ الإنسان هنا أن يُفَسِّرَ الأشياءَ بوضوح على نحو: "عالم الـمُلك حتى هنا، ومن بعد ذلك يبدأ عالم الملكوت"، أو "العلة حتى هنا، ومن بعد ذلك المعلول"... لا يستطيع ذلك؛ لأن عالمه الشعوري قد انكشَفَ بدرجة تجعله يشاهد بوجدانِهِ ربَّـــهُ وراءَ كلِّ شيءٍ، وبالتعبير الصوفيِّ فقد وصلَ إلى مرتبة "السير إلى الله"، حيث يشعرُ ويعيشُ في هذا المقام كلَّ شيءٍ بمذاقٍ مختلفٍ ونشوةٍ أخرى، أو ربما أنه يعيش في مقام "السير في الله"؛ مقام الحيرة الذي يتجوَّلُ فيه

شاردًا ذاهلًا هائمًا على وجههِ حول العالم وقد أمسكَ بكأسِهِ في يدِهِ، أو أنه يسيرُ في مقام "السير بالله"[88]، والذي لا يحظى به أحد سوى أصحابِ الولاية الكبرى، أي إنه يكون مع الحق حتى وهو بين الخلق، وهو مكلف بمهمة الإرشاد والتبليغ. وهكذا يعيش هؤلاء ما هو أكثر من "علم اليقين" بكل مراتبه؛ إنهم يعيشون فحسب "عين اليقين" الذي تحدثنا عنه.

و"حق اليقين" يعني الفناء التام في الله، والوصولَ إلى البقاء ببقائه تعالى، وعلى حدِّ التعبير الصوفي فمقام الفناء في الله هذا، هو هو مقامُ البقاء بالله، وكما ورد بين تقييمات الأستاذ: "لا موجود إلا منه"[89]؛ أي إنه المقام الذي تُدْرَكُ فيه حقيقة أن الأشياء قائمةٌ بوجودِهِ هو فحسب.

والواقع أن كلَّ هذه المراتب تقوّي وتدعُم بعضَها، وتُعاشُ متداخلةً فيما بينها، وأرى أنه لا بد أن يكون للإنسان نصيبٌ ولو في واحد من هذه المراتب على الأقل، وإلا فقد دخلَ الإنسانُ في حدود في الدائرةِ الخطرةِ التي عبَّرَ عنها النبيُّ صلى الله عليها وسلم بقوله: **"إن أكثر ما أخافُ على أمتي"**.

أما بالنسبة لارتباطِ الأمورِ المذكورة في الحديث بعضها ببعض؛ فإنه لا يُمكن أن يكونَ ثَمَّةَ يقينٌ لدى إنسانٍ أصبح المأكلُ والمشربُ غايتَه في الحياة؛ إذ إنَّ اليقينَ أمرٌ واردٌ بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يعيشون في هولِ الحيرةِ ويقصُرون مأكَلَهم ومشربَهم على القَدْرِ الذي يُقيم أَوَدَهم فحسب، ومن المحتمَلِ أن سيِّدَ الأنبياءِ قال: **"مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"**[90]؛ كي يلفتَ انتباهنا إلى هذه النقطة.

إذن على الإنسان ألا يخضع لمعدته وينسحق تحت وطأتها، وعليه أن يكون إنسان إرادةٍ ينظّم أو يستطيع تنظيمَ مأكلِهِ ومشربِهِ، أي إنه ينبغي ألا يكون أكولًا شَرِهًا إلى الطعام، وإلا فإنَّ مَنْ يستسلِمُ للنَّهَمِ والشراهةِ فيأكلُ كثيرًا يستحيل عليه النوم قليلًا، والتخلُّص من الكسلِ، والوصولُ إلى اليقين.

ولو نظرنا إلى المسألةِ من جهةٍ أخرى فإنَّ البدانةَ الناتجة عن النهمِ والشراهةِ من البدهيِّ أنّها تُحوِّلُ صاحبها إلى "مجرَّدِ كتلةٍ من اللحم"، وحمايةُ أمثال هؤلاء

---

88 انظر: الرباني: **المكتوبات**، 62/2(المكتوب الـ42).

89 بديع الزمان سعيد النُّورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن عشر، المسألة الثانية المهمة، ص 107.

90 **سنن الترمذي**، الزهد، 47؛ **سنن ابن ماجه**، الأطعمة، 50؛ **مسند الإمام أحمد**: 132/4.

أنفسَهم من سيطرةِ النوم عليها، وتخليصُها من الكسل أمرٌ مستحيلٌ، ولذلك فإنّ مَن يأكلُ كثيرًا يُسْلِم نفسَهُ للنوم كثيرًا، فيؤدّي النوم إلى بدانَتِهِ، وبذلك تتشكَّلُ دائرةٌ من الحلقات الفاسدة، ومن ثم فإنه ليس لهذه النوعية من البشر نصيبٌ من اليقين كما حاوَلْنا بيانه آنفًا، وبتعبيرٍ آخر: فإنَّ كسلَ من يأكلون كثيرًا، وينامون كثيرًا وكأنّهم مجرّد جثّة هامدةٍ أمرٌ طبيعيٌّ للغاية.

وهنا أريد أن أضيفَ بضعةَ أشياء تتعلّق بِقِلَّةِ الكلام تدخل في إطار أمورٍ كثيرةٍ ذَكَرَها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث أخرى، وصاغَها كبار الصوفيّة على نحو: "قلّة المنام، وقلة الطعام، وقلة الكلام، والعزلة عن الأنام".

المؤمن بماهيّته الحقيقية هو **"من كَانَ سُكُوته تفكُّرًا وَنَظرُه تعبُّرًا"**[91]، ولذلك فإن كلامه شرحٌ للقرآن أو السنة على نحوٍ يرضي الله تعالى، ولهذا السبب فإن المؤمنَ الحقيقيَّ لا يجلس في أيِّ مكانٍ على الإطلاق بهدفِ قضاء وقتٍ لطيفٍ إذا شعَرَ بأنّه يتنافى مع روح الإسلام، ولا يتحدّث هراءً، ولا فيما لا يعنيه، والأصحُّ أنه لا يستطيع أن يفعلَ، إنه يتحدَّث -حين يتحدّث- كي يُبَصِّر الذين انغَلَقَتْ أعيُنُهم عن رؤيةِ ما وراء الأشياء، ويكون مع من حوله كي يرتفعَ بهم إلى قِمَمِ الإنسانيّة، وإلا فإنه يُسْرِفُ في الكلام وفي الزمان أيضًا، وهذا حرامٌ شرعًا.

غير أنه ربما تكون هناك جلساتٌ ومسامرات بل وحتى مآدب من الطعام والشراب قد تبدو زائدةً؛ تهدف إلى البحث عن وسائل للحوارِ مع بعض الناس من أجل تبليغِ الحقِّ والحقيقة إليهم، وتطوير العلاقة المبنيّة على الصدق والإخلاص، حتى يلقى مقالُنا آذانًا صاغية، وتُبَثَّ الثقة والأمان في نفوسهم، وتُعرّفَ الأطراف ببعضها بشكلٍ جيِّدٍ.. فقد تتسبَّبون في نفورِ وهَرَبِ أولئك الناس إن هَمَمْتم بالحديث عن معرفةِ الله بمجرَّدِ تعرُّفكم بهم دون تمهيدِ الأرضية مسبقًا، فلقد قال صلوات الله عليه: **"أُمِرْتُ أَن نُكَلِّم النَّاس على قدر عُقُولهمْ"**[92]، ولأجل ذلك فإنه وإن كان لا حرجَ على المآكل والمشارب والمجالس والمحافل التي تهدف إلى غايات علوية سامية كالتعريف بالله، فمن المحقق أن الاجتماعات والحوارات والمآدب التي لا تُسْتَهْدَفُ فيها تلك الغاية تحملُ على الأقلِّ شبهةَ الحرام.

وفي النهاية فعلى المؤمن أن يفر فرارَهُ من الأَسَدِ من البدانةِ وكثرةِ النومِ والكسلِ وضعفِ اليقينِ التي قال عنها رسول الله إنها " أَخْشَى مَا خَشِيتُ عَلَى أُمَّتِي

---

[91] الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، 421/1.
[92] المصدر السابق، 398/1.

"، وأن يهجرَ كلَّ ما يُفضي إليها، وما أجمل ما قاله الشاعر الصوفي "إبراهيم حقي":

كل قليلًا، ونم قليلًا، تَصِلْ إلى الحيرة، فتفنَى فيه

وانسلخ من الفناء، وكن ضيفًا في ظلمة الليلِ عليه

فعلى الإنسان أن لا يأكل إلا قليلًا، ولا ينام إلا قليلًا، ويعيشَ في هول الحيرة، ثم ينزلُ ضيفًا على ربه ويحسّ في داخلِهِ دائمًا بنفحاتِهِ القدسيّة، ويقول كما كانت تقولُ رابعةُ العدويّة بعد أن يخلو كلُّ إنسان إلى فراشِهِ ليلًا: "إلهي ...أنارت النجوم ونامت العيون، وغفل الغافلون وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك... "، ويجيش في رغبة الوصال بالله، ويسعى للوصول إلى المعيّة الإلهيّة من الحجب الموارَبة، ويمسك بقبضة بابه تعالى رجاءَ أن يكون اليقينُ من نصيبه.

والحاصل أن هناك تلازمًا وارتباطًا قويًّا بين عناصر هذا الحديث؛ بحيث لا يمكن التفكير في كلِّ واحد منها منفصِلًا عن الآخر، بالإضافة إلى أن لهذا الحديث جوانبَ تخصُّ الطِّبَّ، ولا بد من دراستها من زاوية الطبِّ، ونحن نُحيلُ هذا إلى الأَعلام الأفذاذِ المتخصِّصين في هذا المجال.

السحرُ وطُرُقُ التخلُّصِ منه

سؤال: ما السحرُ؟ وما هي مكانته في العقيدة الإسلامية؟ وما الذي يجبُ أن يفعلَهُ مَنْ يَظُنُّ أنَّ سِحْرًا قد عُقِدَ لَهُ؟

الجواب: السحرُ حقٌّ وفقًا لمذهبِ أهلِ السنّة؛ إذ يُذْكَرُ في كتبِ الحديث الصحيحةِ مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم أنه كانت هناك محاولات لِسَحْرِ نبيّنا صلى الله عليه وسلم، حتى إن السَّحَرَةَ وصلُوا إلى مبتغاهم في إحدى المرات، عَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: "سُحِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ"[93]، فقد رُؤِيَ على رسولِ اللهِ تأثيرٌ طفيفٌ لهذه الحادثة التي سمح بها الحقُّ تعالى لحكمةٍ ما، ثم حُلّ على الفور بإذن الله أيضًا، ولو نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية لتبين لنا أن السحر موجود.

ويُذكر في سورة البقرة أيضا أن "هاروت" و"ماروت" كانا يعلّمان الناس السحر مشترطين عليهم عدمَ الكفر، قال تعالى: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** (سورة البَقَرَةِ: 102/2).

واليوم يتحدثون في العالم الحديث عن العديد من الأشياء التي ربما تؤثِّرُ على عالمِ الطبيعة، فالخارقية (Parapsychology) هي إحدى فروعِ العلم التي يدور موضوعُها حول الأشياء الميتافيزيقية المؤثّرة في عالم الطبيعة، ويحظى باهتمامٍ عالميٍّ عام، ووفقًا لقانون السببِ والنتيجة؛ فإن الأشياءَ التي يتعذَّرُ إيضاحُها بشكلٍ مباشِرٍ نتيجةَ الأسباب تطالع من هذه الناحية دائمًا.

وربما كان الجنُّ -عناصر العالم الميتافيزيقي الذين طالما تحدَّثَ عنهم المشعْوِذُون في الأزمنةِ الأخيرةِ- وراءَ الأحداثِ المتنوّعة في عالم الطبيعة، ونظرًا لِتَعَذُّرِ معرفةِ طُرُقِ استخدامِ قوّة الإنسان الروحيّة الذاتية معرفةً تامّة وبشكلٍ مُثْمِرٍ وفعَّالٍ؛ فقد يُظنُّ أن من يعرف قوّتَه الروحية ويستخدمها جيِّدًا يُعَدُّ ساحرًا،

---

[93] **صحيح البخاري**، بدء الخلق، 11؛ **صحيح مسلم**، الآداب، 43.

والخلاصةُ أنّ السِّحْرَ حقيقةٌ ميتافيزيقيةٌ أيًّا كان ما يُحمَلُ عليه، وكيفما كان ما يوُضَّحُ به.

غير أن اسمَ السحر يُطلَقُ في الآونةِ الأخيرةِ حتى على الحوادثِ البسيطةِ جدًّا النابعة من بعض الفراغات الحسية والمنطقيّة والإرادية في الإنسان، فيطلق اسم السحر على كل شيء تقريبًا بدءًا من الكراهية بين الزوجين والعجزِ الجنسيّ وانهزام إحدى فرق كرةِ القَدَمِ مرّة إثرَ الأخرى، وصولًا إلى عدم إنجابِ الزوجين، في حين أنه ربما تكون هناك فراغات إرادية في النماذج الأولى التي أوردناها، ومشاكل طبيعية في النماذج الأخرى، ويمكن حلُّ هذه الفراغات بالرجوع إلى الجهات المختصة فحسب، فمثلًا لو جلس الزوجان وجًها لوجه وتحدثا عن الأشياء التي تشكل أساس الخلاف فيما بينهما، وتدخل الحكماء في الأمر عند الضرورة، أو حُدد السبب فيمن لديه الخلل من الناحية الطبية في عدم إنجاب الأطفال وعُولج ذلك؛ فسوف تزول هذه المشكلات وتُحلُّ، بيد أن بعض الأشخاص في يومنا الحاضر لا يلجؤون إلى هذه الطرق ويذهبون إلى السحرة والعرافين! قائلين: "إنّ هذا سحرٌ".

إن التحجُّجَ بالسِّحْرِ في مواجهةِ مثل تلك المشكلات يعني قبولَ الإنسان الهزيمةَ مسبقًا، إذن؛ فهذا الإنسان لا يستطيع قطعيًّا أن يستخدمَ قُوَاهُ المعنويّة التي تحطَّمت، فسقط في مستنقَعِ اليأسِ، في حين أن ما يجب فعله في هذا الموضع هو توجُّهُ الإنسان للارتباط بالله تعالى... فتوجُّهُهُ إليه سوف يُمَكِّنُهُ من إكسابِ روحِهِ قوَّتَها الحقيقيّة، وبهذا يَصِلُ إلى مستوى يستطيعُ أن يُسَيطِرَ فيه على جَسَدِهِ.

إن السِّحْرَ حقٌّ وأمرٌ واقعٌ، إنه حقيقةٌ ولكن ليسَ من الصوابِ عَدُّ كلِّ شيءٍ سحرًا، حتى إنه ربما تفتح هذه الفكرةُ البابَ للشرك -والعياذُ بالله-، فحتّى وإن كان السحرُ حقًّا وراءَ الأمراض التي تحدثنا عنها آنفًا فإنَّ الذهابَ إلى السَّحَرَةِ والعرافين! ليس هو الحلّ ولا التصرّف السليم، فقد لجأَ رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى في مواجهة ما صُنع له من سحر كان يُحِسُّ ببعض أماراته على حدِّ قولِ الصحابة، فيقرأُ سورَتَي الفلق والناس اللتين نُسَمِّيهما المعوَّذَتَين، فكان عندَ كلِّ قراءةٍ لهما يبدو وكأن عقدةً من عُقَدِ السِّحْرِ تنحلُّ؛ فينشَطُ صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي لنا نحن أيضًا في مواجهةِ هذه النوعيّة من المواقِفِ أن نَقْرأَ المعوَّذَتَين، وإلى جانبهما سورة الفاتحةَ وآيةَ الكرسي والأدعيةَ المرويّةَ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونكتفي باللجوءِ إليه لا لغيره سبحانه.

غير أن ثمة أمرًا مُهمًّا بقدر أهمية الدعاء هو أن يؤمنَ الشخصُ المتعرِّضُ للسِّحْرِ بأن الله تعالى هو القادر على حلّ هذا الأمر، فلو كان هذا الاعتقادُ ضعيفًا

لديه، أي لو كانت لديه شبهة حول إمكانيّة أنْ يَمُنَّ الله عليه بالشفاء؛ فربما لا تكون ثمة فائدة لكلِّ هذه التوسُّلات والأدعية والتلاوات، ألَا نؤمنُ بأن الله تعالى قادرٌ على كل شيء؟ إذًا إن كان الله تعالى لن يستطيع دفع هذا البلاءِ -حاشاه- فهل سيدفعه السحرةُ والعرّافون!؟

وانطلاقًا من ثقتي بربّي وإيماني به قلتُ قديمًا: إن كنتم تدينون بأنَّ الله لا يستطيع -حاشا وكلا، حاشا وكلا مائة ألف مرّة ومرّة- أن يُبطِلَ سِحْرًا، بينما يبطله السحرة المهرة، فيمكنكم أن تصنعوا لي مائةَ، بل ألفَ سحرٍ مثل هذا"؛ إذ إنني أدينُ بأنّه ليس ثمة بلاء على الإطلاق يعجز الله تعالى عن دفعه، طالما رَغِبَ وأراد، وطالما استطاعَ العبدُ تحويلَ المشيئة الإلهية لصالحه بعبادته إياه وطاعته وعبوديته الخالصة له تعالى.

بالإضافة إلى أن الركض وراء السحرة بابًا إثرَ باب، ومدينةً تلوَ أخرى، والسقوط في أيدي الذين يتاجرون بهذا الأمر شيءٌ مضرٌّ بِقَدْرِ ضررِ السِّحْرِ على الأقلّ؛ لأن الإنسانَ حين يفقدُ قوَّته المعنويّة بحثًا عن الشفاء لا يمكنه أن يلملم شتات نفسه من جديد.

ومن جانب آخر فإن طلب الدعاء من أشخاص ليلهم أشدُّ ضياءً من نهارهم، ونهارُهم أكثر إشراقًا من ليلهم، ألسنتُهم رطبةٌ بالدعاء يُعْتَبَرُ واحدًا من سبُلِ الشفاءِ الواجب سلوكها، إذ يمكن الرجوع إلى أمثال هؤلاء من رجالِ الحقِّ وطلب الدعاء منهم.

مفاهيم خاطئة حول القَدَرِ

سؤال: قد يفعل الفردُ شيئًا يضرُّ بصحّته، ثم يقول: "لقد كان هذا قدري" تُرَى هل لهذا الموقف علاقة بالقدر؟

الجواب: ينبغي أوّلًا لنتمكَّن من الإجابة عن هذا السؤالِ أن نحدّدَ مفهومَ القَدَرِ وما يتعلَّقُ به بشكلٍ جيّدٍ، وإلا فإننا نظلُّ نتعثر ونتخبط في خضمِّ المفاهيم والتقييمات الخاطئة.

القدر هو اقتران ما خلقه الله سبحانه بكسب الإنسان، أي إن الإنسان يباشر بعملٍ ما، فيؤدي بإرادته ذلك العمل، والله سبحانه يخلق بمشيئته ذلك العمل، وهكذا فالقدر هو تقدير الله سبحانه لوجود الأشياء بعلمه الأزلي والأبدي قبل وجودها وبعد وجودها.

فالقَدَرُ عنوانٌ على عِلْمِ الله تعالى، لا على قدرتِهِ أو إرادته، فالله تعالى يريد بمشيئته تحقيق شيء أو عدم تحقيقه، ثم يحققه بقدرته جل جلاله، وبتعبير آخر: يمنحُ سبحانه بقدرته الوجودَ الخارجيَّ للأشياء التي خطّطَ لها بعلمه الأزلي، أما بالنسبة للعلم المجرد فإنه لا يستوجب وجود شيء ما في الخارج أو تحقق ذلك الشيء أو عدمه، ولا يجعله أمرًا إلزاميًّا، أما الذي يستوجبُ الوجودَ الخارجيَّ فهو إرادة الإنسان للشيء وخلق الله تعالى ذلك الشيء وفقًا لإرادة الإنسان، بالإضافة إلى ذلك فإن العلم تابعٌ للمعلوم؟ يعني أن الله تعالى يعلم كيف وبأيِّ شكلٍ ومتى سيكون الشيء، وإلا فإن ذلك لا يعني أنه يحدث نظرًا لمعرفة الله به بعلمِهِ الأزليِّ، ومن هذه الزاوية قلنا في البداية: "إن القَدَرَ هو عنوانٌ على عِلْمِ الله".

إنَّ فهمًا مطلَقًا على هذا النحو يعني: "أنه ليس ثمة تقديرٌ على الإطلاق لا تُراعى فيه إرادة الإنسان، وإلا فهذا نوع من الجبر، وحينها يتحوّل خلقُ الدنيا وإيجادُ الجنة والنار أيضًا إلى نوع من العبث، لذا فَالقَدَرُ الجبريُّ أمرٌ يسري على المخلوقات عديمةِ الإرادةِ الموجودةِ في الكون كالشمسِ والقَمَرِ والأرضِ والنجم والحجر... إلخ، أما بالنسبة للجنِّ والإنسِ المخلوقاتِ صاحبةِ الإرادة فإن القَدَرَ الإراديَّ هو الساري عليها"[94].

وعليه فإن الحق تعالى يبرمج الإنسان وفقًا للجهة التي عَلِمَ بِعِلْمِهِ الأزليِّ أن ذلك الإنسانَ سيصرفُ إرادته نحوها، كما أنه تعالى يخلق الشيءَ المرادَ حين يأتي أوانه؛ لأن العبدَ وجّه إرادته على ذلك النحو، ونطلق على أول هذين الأمرين لفظ

[94] لمزيد من المعلومات انظر: فتح الله كولن: **القدر في ضوء الكتاب والسنة**، دار النيل، 2006م.

"القدر"، بينما نطلق على ثانيهما "القضاء"، أما إن لم يغير الحقُّ تعالى الشيء الذي قدّره في اللوح المحفوظ بـ"عطائه الإلهي"؛ تحقَّق ذلك الشيءُ عينُه في الحياة.. والعبدُ يكسِبُ الثوابَ والأجرَ بفضلِ ما يقوم به من أشياء إيجابية، بينما يكسبُ الإثم والوزر بسبب ما يقترفه من أمورٍ سلبية.

ولنرجع إلى السؤال المطروح بعد هذه المعلومات القصيرة الموجزة، ولنفرض أن إنسانًا دخن السجائر أو شرب الخمر بإرادته، فأصيب بمرض السرطان -حفظنا الله وإياكم- نتيجةً لذلك؛ فهل يكون الخطأ من القَدَرِ أم مِن ذلك الإنسان الذي شَرِبَ بإرادَتِهِ إحدى المسكرات الضارّة المؤدّية إلى الإصابة بالسرطان بنسبة (97-98%) وفقًا للمعطيات الطبّيّة؟ لا شكَّ أن الخطأَ ناشِئٌ من ذلك الإنسان قطعًا، ومن هذه الناحية فإن كل فردٍ مطالَبٌ بالابتعاد عن أيِّ مضرٍّ بالصحّة بدايةً من الأطعمة والأشربة المضرّة حتى الأنظمة الغذائية، وكذلك بالابتعادِ عمّا هو عديم القيمة الغذائيّة حتى يتجه إلى استخدام الحميةِ في الطعام مستنفذا أسباب إرادته في ذلك، فإلقاءُ إنسانٍ مريضٍ جزاءَ عدمِ مراعاته للطِّبِّ الوقائيِّ التهمةَ على القدر، وقولُهُ: "هذا هو قدري"؛ ليس له أية متعلَّقٍ يوضّحه ويُفسِّره من ناحية النصوص الشرعية.

بالإضافة إلى أن ذلك الإنسانَ ربما يُحاسَب في الآخرة أمام الله تعالى بسبب عدم مراعاته القوانين الكونية، ناهيكَ عن معاناته الألم والاضطرابَ، وتلوِّيه في خضمِّ أوجاعِ وأنواءِ الحياة الدنيا، ثم تهافته على المستشفيات الواحدة تلوَ الأخرى منفقًا ملايين ومليارات من النقود في سبيل استردادِهِ صحَّتَه، ولا فرق في هذا الموضوع بين من هو متدين ملتزم ومن هو غير متديّن ولا ملتزم، ولا بين كامل الثقة بالله ومنقوصها؛ لأن قواعد "الشريعة الفطرية" ساريةٌ على الجميعِ مهما كانوا، فمن يفهمون قواعِدها ويعيشونها ينالون الخير، بينما الآخرون الذين لا يفهمونها ولا يعيشونها ينالوا جزاءَ ما فعلَتْهُ أيديهم.

والحاصل أن مفهوم الإنسان حول القَدَرِ كما جاء في السؤالِ مخالِفٌ لتعاليمِ الإسلامِ الأساسيّة...

بضع كلمات حول الدعاء وشماتة الأعداء

سؤال: استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد أدعيته من "شماتة الأعداء"[95]، فما معنى "الشماتة"، وكيف ينبغي لنا أن نفهم هذا الدعاء؟

الجواب: قبلَ الإجابة عن السؤال أريدُ أن أوضّح نقطتين متعلّقتين بالدعاء بالمعنى العام، وهما على النحو التالي:

أوّلًا: الأدعيةُ التي تُرفَعُ لكي لا ينزلَ بلاءٌ أو تقع مصيبة هي طلبٌ موجّهٌ إلى الله تعالى بألا يخلقَ أسباب ذلك الأمر، فلو استجابَ الحقُّ تعالى دعاءكم في هذا الموقف؛ فإنّه لا يقضي به -بعطائِهِ ومَنِّهِ- حتى وإن كان مكتوبًا في القدر، ويمكن مصادفةُ العديد من الحوادث التي تؤيّدُ هذا عند مطالعةِ كتبِ المواعظ والمناقِبِ بهذه النظرة، بل إننا نستطيع رؤيةَ المصائِبِ التي تحرّكت من موضِعِها باتجاهنا لو كنا مطّلعين على "لوحِ المحوِ والإثباتِ" أو استطعنا مشاهدة الغيبيّات قليلًا، وبهذا فقد يمكن إيقافها باللجوء إلى الحقِّ تعالى.

ثانيًا: إن بحثَ الإنسان عن حيلةٍ فيما له فيه حيلة، وتقويَتَهُ إرادته الشخصيّة وقواه المعنوية لا يكون إلا بالدعاء، فإن اكتسبت إرادةُ الإنسان القوّةَ والقدرةَ بدعائِهِ فإن الخلايا والجزيئات الموجودةَ في جسدِهِ تأخذُ نصيبَها من هذا أيضًا، وأرى أنه إن كان من الممكن أن يتجاوزَ الإنسانُ رغباتِهِ الجسدية الضيّقة، ويتغلّب عليها فلا بدَّ من التغلُّبِ على تلك الرغبات في روحِهِ أوّلًا، فإن أُطلِقَ على هذا تنشيطٌ روحيٌ؛ وجبَ أوّلًا تنشيطُ الخلايا التي تعرَّضَت للتخريب في بَدَنِ الإنسانِ، وتجديدها، ومن هذه الناحية فإن الأدعيةَ -من جهة ما- تتمتّع بأهمية يستحيل ملءُ مكانها والاستعاضةُ عنها بأيِّ شيءٍ آخر ألبتة من حيث أنها تكشف الحجب فيما "يستعصي علينا من المواقف"، وتكون دواء لدائنا، وإلى جانب هذا فالجميع يعلمُ أن اللجوء إلى قسم من التدابير المادية أمر ضروري.

وبعد تحديد هذين الأمرين فلننتقل الآن إلى السؤال: كان نبيّنا صلى الله عليه وسلم يتعوّذُ بالله تعالى من أربعة أشياء متتالية: "سُوءِ الْقَضَاءِ" أي: من القضاءِ المؤلِمِ الذي سيقدّره الحق تعالى بشأننا، ومن "جَهْدِ الْبَلَاءِ" أي: ضيق البلاء وسطوته والتردّي في شِباكه، ومن "دَرَكِ الشَّقَاءِ" أي: من حلول الشقاء ونزولِهِ، وأخيرًا من "شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ" أي إظهارِ العدوّ فرحتَه وابتهاجَه ونشوتَه أمام ما يبدو نقائص أو ملامح فشل فينا، وبهذا فإننا نتعوّذُ نحن أيضًا بالحقّ تعالى حتى لا يتَّخِذَ

---

[95] **صحيح البخاري**، الدعوات، 27؛ **صحيح مسلم**، الذكر، 53.

الأعداءُ نقائصنا وثغراتِنا وسيلةً للفرح والنشوة، وبمزيد من الإيضاح فإننا نعوذ به تعالى من أن يشمِّت فينا عدوَّنا بسقَطَاتِنا وإخفاقاتِنا.

ووفقًا لهذا فإننا إن ضبطنا تصرفاتنا في إطار الأسس التي أمر بها الإسلام، وكنا أهلًا لذلك فلا شكَّ أن الله تعالى سيعامِلُنا برحمتِهِ الواسعة، ولن يمنَحَ أعداءَنا فرصة كهذه، وعلى ذلك فهذا الدعاء هو رجاءٌ من الله تعالى بألا يمنح الذين يُحيطون بنا -الأقرب منهم والأبعد- الذين جُبِلوا على عداوتِنا؛ الفرصةَ والإمكانيات لأن يشمتوا بنا.

فكيف سنحقّقُ هذا؟ نحقِّقُهُ، أوَّلًا، عن طريق عدم ارتكابِ الأخطاءِ عَمْدًا، حينها لن نتعرَّضَ لأيِّ إخفاقٍ، ولن نقعَ في ذنب، ولا يتضَرَّرُ الآخرون بسبَبِنَا، ولا يأثمُ الأصدقاء والحلفاء البعيدون عنا بإساءة الظنّ بنا، والأستاذ بديع الزمان حسَّاسٌ للغاية في هذا الموضوع، فلم يكن يرفعُ رأسَهُ أبدًا وهو يعبر الخليجَ بالقارب بصحبة أصدقائه حتى لا يقعَ في النظرِ إلى النساء، فلما سألاه عن سبب ذلك أجابهما قائلًا: "أحافظ على عِزَّةِ العلم"[96]، لأن الإنسان لا حقَّ له أن ينظرَ إلى ما لا يخصُّه، ولا سيما إن كان كالأستاذ، إذ وثِقَ الناس به وتعلَّقوا به وارتضوه لهم أستاذًا، ومن ثم لا يحقُّ له أن يُخَيِّبَ ظنَّهم فيه؛ لأن خلاف ذلك الوضع سيُحْدِثُ هزَّةً في جبهته، ويُسعد خصومه ومعارضيه.

وفي النهاية فإنه ينبغي لنا قبل الدعاء أن نقومَ بأداءِ كلِّ ما يقعُ على عاتقنا على مستوى الأسباب، وبعد ذلك نتوسَّلَ إلى ربِّنا بالدعاء.. ويجب ألا ننسى أن مسألةَ قَبولِ الدعاء مُهمَّةٌ للغاية؛ لأنه يعبِّر عن العبودية الخالصة، بل إن هناك أدعية معينة من شأنها القبول في بعض المواضع التي تنعدم فيها الأسباب، وذلك مثل دعاء يونس بن متّى عليه السلام: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: 87/21).

[96] انظر: بديع الزمان سعيد النُّورسي: الملاحق، ملحق أميرداغ-1، ص 284.

حقيقة مجيء الملائكة للمَدَدِ

سؤال: البعضُ يفهمُ مجيءَ الملائكة للمدد المذكور في بعض الآيات القرآنية الكريمة على أنه عامل نفسيّ، ويفسرونه على هذا النحو، فما رأيكم في هذا الموضوع؟

الجواب: يذكر القرآن الكريم هذا الموضوعَ من سورة آل عمران، فيقول تعالى: **(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ∃ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/124، 125).

وبعد ذلك يقول الحق تعالى: **(وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/126).

وفي هذه الآيةِ الكريمة الأخيرةِ يُعَبِّرُ القرآن الكريم عن نزول الملائكة بقوله "بُشْرَى"، يعني أن هناك حربًا يعقبُها عيدٌ، وسَيُقام عرسٌ سماويٌّ باشتراك الملائكة... أجل، لقد عزّز الله تعالى القوّةَ المعنويّةَ للمؤمنين، ورفعَ من معنويّاتهم بإنزاله الملائكةَ عليهم.

وثمة أمران مهمّان يلفتانِ الانتباهَ يُذكَران في الآيات القرآنية كوصف للملائكة: أولهما: كونهم "مُنْزَلِينَ"، والثاني: كونهم "مُسَوِّمِينَ"، أي يحملون علامات وإشارات، فلو أن القرآن الكريم قال "مُنْزَلِينَ" فحسب، كما ورد الحديث عنه آنفًا، فربما يُفسَّر نزولُ الملائكة على أنه "السكينة" وأنه عاملٌ نفسيٌّ، وأنها أُنزِلَتْ لمجرَّدِ تقويةِ الروحِ المعنويّة للمؤمنين، وإطلاقه "مُسَوِّمِينَ" على قسمٍ منهم يدحضُ تفسيرًا كذاك، لأن تحديث من لم يرهم من الناس قطُّ عن علاماتهم، والقولَ بأنهم "مسومين" لا يعني شيئًا.

وينبغي عدمُ الخلْطِ بين الملائكة ونزولهم وبين الشيء الذي نُسَمِّيه السكينةَ وربما يعيشُهُ أكثرُنا، والذي تصلُ القلوبُ والأفئدةُ بواسطتِهِ إلى الاطمئنان، فهناك الكثيرُ من الوقائع، منذ عصر السعادة وحتى اليوم، نزل فيها الملائكة على وجه الأرض في صورة إنسان أحيانًا، وعلى كيفيّات خاصّة بهم أحيانًا أخرى، وإن وقعَ التباسٌ بين الملائكة والرُّوحانيّين أحيانًا، إلا أنه لا شبهةَ في نُزُولِ مجموعةٍ من الموجودات الميتافيزيقيّة إلى الأرض.

إضافةً إلى أنَّ الآيات الكريمة تتحدَّثُ مرَّةً عن نزول ثلاثةِ آلاف ومرّة أخرى عن نزول خمسة آلاف مَلَكٍ، ولا حاجة إلى هذا القَدْرِ من الملائكة من أجلِ السيطرةِ على حفنةٍ من البَشَرِ، سواء في بدر أو في مكان آخر؛ لأنه، فإنَّ كلمةَ "مَلَكٌ" تأتي

من كلمة "مَلْأَكٌ" بمعنى القوة والقدرة، ولا نقول إن خمسةً أو عشرةً منهم؛ بل إن واحدًا منهم فحسب يستطيع -إن أراد الله ذلك- أن يضعَ مجرَّةَ دربِ التَّـبَّـانة في يدِهِ، ويُقَلِّبُها كحبّات المسبحة.

وعلى هذا فإنه يجب عند تناول هذا الموضوع أن نفهمَ نزولَ الملائكة فهمًا صحيحًا، فقد يكون نزولُ الملائكة هناك من أجل إقامة عيدٍ للنصرِ على وجهِ البسيطة، وبِهَدَفِ تقويةِ المؤمنين الذين يرونهم، ومن ثمّ ربما يكون نزولُـهم يستهدِفُ مشاركة المؤمنين الشرفَ والمجدَ نفسَه.

ولا يمكن القول إن الملائكةَ نَزَلَتْ من أجلِ قتلِ الكافرين بالذات، وقد قيلَ في بعض الكتب إن الملائكة تمثلوا من الناحية البدنية تمثُّلًا كاملًا، حتى إنهم يركبون خيلًا كخيل المسلمين، ولقد قال بعضهم: إن المحاربين من الملائكةِ أَعْلَمُوا عَلَى أَذْنَابِ خَيْلِهِمْ وَنَوَاصِيهَا بِصُوفٍ أَبْيَضَ، ومنهم من قَالَ: كَانَتْ سِيمَاهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ بِيضًا"[97]، إلا أنَّ مشاركتهم الفعليّة في الحرب بهذه الروايات لا يُعوّل عليه كثيرًا[98]، فمثلًا ما رَوَتْهُ السيّدة عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، إذ قَالَتْ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الخَنْدَقِ، وَوَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ: "قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ"[99]؛ إنّما هو تبشيرٌ وتقويةٌ من هذا القبيل، وفي مثل هذه المواقف قد تغبرُّ أقدامهم وعيونُهم، وتنفكُّ عمائمهم أيضًا لأنهم يشاركوننا الظروفَ نفسَها... إلخ، وقد تجلّت هذه النوعيّة من الأشياء كمعجزةٍ في عصورِ الإسلام الأولى، وأجاب الحقُّ تعالى بإرسالِهِ الملائكة على دعاء: **"اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ"**[100]، وإنَّ قولَهُ تعالى: **(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** (سورة الضُّحَى: 3/93)؛ لَيُؤَيِّدُ المعنى السابق.

ومن الوارد أن يقعَ مثل هذا النوع من التأيِـيدِ عقب انتقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة أيضًا، فمثلًا؛ شُوهد هذا التأييد الإلهيُّ في القادسية، وفي اليرموك، وفي أماكن أخرى مختلفة، حتى إن قولَ قائد الجيوش الإنجليزية في

---

[97] ابن هشام: **السيرة النبويّة**، 107/2.

[98] انظر: الطبراني: **المعجم الكبير**، 389/11؛ البيهقي: **دلائل النبوة**، 55/3-57؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، 42/71.

[99] **صحيح البخاري**، المغازي، 32؛ **صحيح مسلم**، الجهاد، 65.

[100] **صحيح مسلم**، الجهاد، 58؛ **سنن الترمذي**، التفسير، 9.

حرب "جناق قلعة" المدعو "هيملتون"[101]: "كان رجالٌ بيضُ الجياد، معمَّمو الرؤوس يحاربون بين جيوشكم"؛ لَمِنَ الحقائق التي يعلمها الكثيرون.

وفي يومنا الحاضر أيضًا هناك الكثير جدًّا من الثقات المعتمَدين الذين لا نتوقَّع ولا نظنّ أنهم يكذبون، أو من لا يمكن تواطُؤُهم على الكَذِبِ جاؤوا مرّات ومرّات، وقالوا إنهم رأوا الروحانيين في ممرّات الأماكن التي يتواجدون بها، وهذه الأشياء مرئيّة في حالة "الواقع" كما في المنامِ والرُّؤى، ولو فتَّشنا في الملفِ الخاصّ بالموضوع لظَهَرَت للعيان مئات المشاهدات التي يؤيِّدُ بعضُها بعضًا، يعني أن هؤلاء يظهرون لِيُهَنِّئُوا المؤمنين بالنصر، أو لِيُبَشِّرُوهم على حدِّ تعبيرِ الآيةِ.

غير أنَّ مسألةَ الرُّؤْيَةِ ليستْ متاحةً للجميع؛ إذ إن الجميعَ لم يشاهِدُوا هؤلاءِ الروحانيّين النازلين على وجه البسيطة في المرحلة الممتدَّة من "بدر" مرورًا بـ"جناق قلعة" وحتى يومنا الحاضر، أو أنّهم ما استطاعوا رؤيتهم، فهناك الكثير من العفيفين الذين لم يروا أيَّ شيءٍ قطُّ؛ لكن بعضَهم يستطيع أن يرى في كلِّ وقتٍ، وهذه مسألةُ نصيبٍ وحظٍّ.

وعند ختام الموضوع أودُّ أن أتطرَّقَ إلى أمرٍ أخيرٍ، وهو أن هذا الموضوع عرضةٌ لِسوءِ الاستعمال، وربما يؤدّي إلى كثير من الجدال والنقاش، ومن هذه الزاوية فإنه ينبغي عدمُ إعطاءِ الفرصة لسوء استعمال الموضوع وألا يُترك الباب مفتوحًا لذلك أصلًا، وأن تُقَدَّمَ أوامر وتوجيهات مفخرة الإنسانيّة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كلِّ شيءٍ، وإلا فإن الرغبات والتمنّيات والأهواء قد تهيج وتثورُ، وبالتالي تعطي الفرصة لحدوثِ انحرافاتٍ خطيرة في العقيدة لا يمكن التصدّي لها.

وثمة نقطةٌ أخيرة؛ هي أن تفسيرَ نزولِ الملائكة على أنه عاملٌ نفسيٌّ يبدو مؤشّرًا على عدمِ الإيمان بالمعنويّات، فأمثال هؤلاء يسعون لِحَلِّ كلِّ شيء في إطار الماديات، وكما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "إن الذين يبحثون عن كلِّ شيءٍ في المادّة عقولهم في عيونهم، والعين لا تُبصر المعنويات"[102].

---

[101] "**إيان هاميلتون ستانديش مونتيث** (Ian Standish Monteith Hamilton)" (1853-1947م): جنرال بريطاني، والقائد العام لقوة مشاة البحر الأبيض المتوسط في حملة فاشلة ضد تركيا في شبه جزيرة غاليبولي خلال الحرب العالمية الأولى.

[102] بديع الزمان سعيد النُّورسي: **المكتوبات**، نوى الحقائق، ص 576.

علاقة الدعاء بما سيداويه من داء

سؤال: جاء في حديث نبويٍّ شريفٍ أنَّ من يقرأ "بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[103] ثلاث مرات صباحًا ومساءً لا يضرُّه أيُّ شيءٍ ألبتة، فما أسرار هذا الدعاء؟

الجواب: يمكننا النظر إلى هذه المسألة من عدة زوايا، لكنني ألاحظ بدايةً أن ثمة فائدة في معرفة أمرٍ ما؛ هو أن ثمة توجُّهًا وميلًا نحو قناعة منتشرة في الغالب هي "أن من يقرأ هذا الدعاء لا يصيبُه الشَّلَلُ"، تستند هذه القناعة إلى واقعةٍ أظنها تنبعُ من أن "أبانَ بنَ عثمان" -أحد رواة هذا الحديث- كان مفلوجًا[104]، وعليه فإن فهمًا كهذا يحمل في طياته اختزالًا وتضييقًا لمعنى الحديث الذي يشملُ كلَّ الأضرار بما في ذلك مرضُ الشلَلِ، بيد أننا نُريد -ونحن نشرح هذا الحديث- أن نؤكِّدَ على عمومِ محتواه إلى جانب اعتمادِهِ على مرضِ الفالجِ كَمِثالٍ.

وقد يُصيب الفالجُ أو الأمراض الأخرى الجميع في إطار الأسباب السائدة في عالم المادة -وتعبير "فِي الْأَرْضِ" الوارد في الحديث يؤيّد هذا المعنى- بمعنى أن مرضًا بالقلب قد يُحدِثُ التِهَابًا في الوريد فيَسُدُّ مكانًا ما في المخّ؛ وعندها لا تستطيعون تحريك بدنِكم؛ أي تُصابون بالفالج، وفي هذا النوع من الحالات ينبغي للناس الذين يعيشون في عالم الأسباب أن يُشَخِّصوا فورًا، ويحددوا الأشياء التي قد تؤدِّي إلى أمراضٍ على هذا النحوِ، وعليهم أن يتَّجهوا للتداوي منها حتمًا، وإلا فإن عدمَ رعايتها في عالم الأسباب يحمل معنى الجبرية؛ بينما نحن بعيدون كلَّ البُعْدِ عن الجبريّة والفِكْرِ المعتزليّ أيضًا.

غير أن بعضَ أهل البصيرة والمكاشفة قد يُكشَفُ له من وراء الحجب بأن العلاجَ الذي يُجرى في عالم الأسباب لن يفيد شيئًا؛ فيقول حينذاك: "لا داعي للعلاج"، بيد أن البسطاء أمثالنا مرغمون ومكلفون برعاية قوانين الأسباب ما داموا يعيشون في عالم الأسباب.

ولهذه النوعية من الأمراض سببٌ سماويٌّ آخر، يختصُّ به قيدُ "فِي السَّمَاءِ" الواردُ في الحديث؛ أي إن الإنسانَ ربما يُصابُ بمرضِ الشَّلَلِ بمقتضى المشيئةِ الإلهيّة دون أن يكون هناك أيُّ سببٍ على الإطلاق.

---

[103] **سنن ابن ماجه**، الدعاء، 14؛ **سنن أبي داود**، الأدب، 100؛ **سنن الترمذي**، الدعوات، 13.

[104] الطيالسي: **المسند**، 77/1.

إن الإنسان مرغمٌ في كلتا الحالتين أن يتعوَّذَ بالله تعالى "مسبِّبِ الأسبابِ"؛ لأن منحَ العلاجِ المؤثِّرِ الناجع، والتفضلَ بالشفاء أمرٌ بيَدِ الله تعالى فحسب، لا بيَدِ أحد سواه ألبتّة، حتى إنّنا إذا ما نَظَرْنا إلى المسألةِ من حيث المشاعر الإنسانية لوجدنا في النهاية أن التعوُّذَ بالله تعالى هو الأساس؛ لأن الشيءَ الذي يمكن فعلُه -إن لم تكن ثمة حيلة من ناحية الأسباب الظاهرية- هو اللجوء إلى الله تعالى؛ كما قال "إبراهيم حقي":

تَرى كلَّ حجاب ينكشفُ مع الابتلاء

بغتةً إذا تَقَطَّعت بك السبل الهوجاء

ولكلِّ آلامنا لدى المولى دواء

أفعالَه فلْنرتقبْ دون عجل

فما أجمل كل ما فَعَل

ويردُ في السؤال أيضًا استفسارٌ عن إمكانيّة حفظِ الإنسان من الضَّرَرِ بفضلِ هذا الدعاء.

وللإجابة نقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردِّدُ هذا الدعاء وغيره من الأدعية، فَعن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: **"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ**[105]**، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ"**[106]؛ وكما أن هناك علاقة بين تلك الأدعية والأمراض التي ستداويها؛ فلهذا الدعاء أيضًا علاقة بينه وبين انعدام حصول الضرر بأيِّ شيء؛ فمثلًا؛ دخلَ النبيُّ المسجِدَ يومًا فرأى أبا أمامة الباهلي (رضي الله عنه)، فقال: **"يَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟"** قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **"أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟"**، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ، قَالَ: **"قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ،**

---

[105] أَيْ ثِقَلِهِ وَشِدَّتِهِ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَجِدُ مَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ وَفَاءَهُ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُطَالَبَةِ. (العظيم آبادي: **عون المعبود**، 281/4)

[106] **صحيح البخاري**، الجهاد، 73.

وَقَهْرِ الرِّجَالِ"، قَالَ أبو أمامة: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ الله عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي[107].

وكما تبين فإن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يذكرُ في هذا الحديث أربعةَ أُسُسٍ يتكوّنُ كلٌّ منها من مادّتين اثنتين.

ونحن عادة ما ندعو الله تعالى بدعاء **"اَللّٰهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ"** كما علَّمَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[108]، فنطلب العفوَ منه على الذنوب التي تُعتبر فيروسات مرضنا المعنوي، والعافيةَ في مواجهة فيروسات أمراضنا المادّيّة، وأيًّا كانت علاقة هذه الجملة الدعائيّة بالذنوب والأمراض، أو علاقةُ الدعاء الواردِ سلفًا بِفَقْرِ أبي أمامة الباهليّ؛ فالدعاء المذكور في السؤال أيضًا له علاقة بعدم الإصابة بالضرر، واتِّخاذه درعًا ووقايةً منه.

وبعد ما سردناه من ملاحظاتٍ عامّة حول العلاقة أرجو منكم الانتباه إلى بضعة أمور:

أوَّلًا: وفقًا للحقيقة التي عبَّر عنها حديث: **"إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ"**[109]؛ فإن ثمّة علاجًا لكلِّ نوعٍ من الأمراض بما فيها الفالج، وهذا العلاجُ يتأتَّى أحيانًا بالرجوعِ إلى الأسبابِ الظاهريّة؛ أي بالرجوع إلى وسائل التداوي، وأحيانًا أخرى يكونُ بالتضرُّعِ إلى الحقِّ تعالى مباشرةً وطلبِ الشفاءِ منه دون اللجوء إلى أيِّ سببٍ على الإطلاق، فمثلًا إن وضعْتُم يَدَكم على أيِّ موضع يؤلمكم في جسدكم اتّباعًا لتوصيات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلتم سبعَ مرَّات: **"بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَاذِرُ"**[110]؛ فإن الله ربي قد يمُنُّ عليكم بالشفاء نتيجة لتوجهكم إليه بقلبٍ مخلصٍ وصادقٍ.

يعني أن العبد حين يلامِسُ بفضلِ الدعاءِ المضمَّخِ بالعبوديَّةِ الخالصةِ بابَ "حضرة أَحَدِيَّةِ الله تعالى"؛ تُجتازُ كلُّ الأسباب، ويحظى ذلك المريضُ بمعاملةٍ إلهيَّة خاصّة "بسبب ظهورِ سِرِّ الأحديّة في نورِ التوحيد".

---

[107] **سنن أبي داود**، الصلاة، 378.

[108] **سنن أبي داود**، الأدب، 112؛ **سنن ابن ماجه**، الدعاء، 5؛ **مسند الإمام أحمد**، 403/8.

[109] **سنن أبي داود**، الطبّ، 11؛ البيهقي: **السنن الكبرى**، 9/10.

[110] **سنن ابن ماجه**، الطب، 36.

ثانيًا: ووفقًا لِقَنَاعَتي القاصرة فإنّ كلّ خلايا بَدَنِ ذلك الشخصِ الذي تَعيشُ روحُهُ حالةً من الذُّعْرِ الكامل حين يقع في مخالب أحدِ الأمراض؛ تعيش هي الأخرى ذعرًا مثل هذا من حيث حياتها البيولوجيّة؛ فإن اعتقد الإنسان أنَّ بإمكانِهِ تجاوُزَ هذا المرض فإنه يستطيع أن يستعيد صحّته ونشاطه ويتغلَّب -بإذن الله تعالى- حتّى على مرض السرطان؛ أي إن روحه الكلّيّة هذه -والتي هي قانون أعمالٍ حسّاس مسيطر على بدنه- تستطيعُ هزيمتَهُ بفضلِ القوّة المزاجيّة العالية، وبالتالي فإنه يمكن للخلايا الموجودة في الجِسْمِ أيضًا أن تأخذَ نصيبَها من هذه الحالة النفسية العالية.. تأخذَه وربما تتكوّن في جسدِ الإنسان انبعاثات مختلفة. أجل، إن تلك الخلايا تنشطُ وتتعاظَمُ بفعلِ الحالة النفسية العالية التي حصلت عليها وكأنها تَدَاوتْ بالمنشطات، فتبدأ بإحداث التعميرات وإنشاءِ الإصلاحات اللازمة في بنيةِ الجسمِ، حتى في مواجهةِ الأمراضِ والآلام الأكثر فتكًا.

ومن المناسب التذكير مرة أخرى بأنه لا بدَّ لكي يتحقَّقَ شيءٌ كهذا من أن يُصلحَ الإنسانُ نفسه، وأن ينشطَ ويشعر بالحيويّة حتى في أدقِّ خلايا جَسَدِهِ، وبتعبيرٍ آخر عليه أن يُحرِّكَ نظامَ الانبعاثات الموجود في بَدَنِهِ.

وهكذا فإن الأدعية الخالصة التي تُرفع إلى الله، والتوجّهات الصادقة تستطيع أن تفعلَ كل هذا، أي أن الإنسان حين يقول: **"بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"**؛ يمكنه أن يحتفظ في داخله بالإيمان والاطمئنان والقوّة المعنوية بشكلٍ يتعذَّرُ علينا نحن فهمه وإدراكه، فتتحرّك جوارحه كلّها وتنشطُ بكاملها، فقد قال صلوات الله عليه: **"مَنْ قَالَ بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ"**[111].

وأتوقع أن يُشاهد بشكلٍ أوضح ذلك التأثيرُ الذي ستُحْدِثُهُ هذه النوعيّةُ من المشاعرِ في الجسمِ في ظلِّ ما سيُسَجِّلُه العلمُ من تقدُّمات وتطوُّرات أكثر في المستقبل القريب، ومن يدري فربما نشاهدُ جميعًا هذا التأثير عبر شاشات التلفاز؛ عندئذ نفهمُ العشقَ والشوقَ والنشوةَ والحزنَ والدعاءَ على نحوٍ أفضل، ووفقًا لمقالةٍ كَتَبَتْهَا مجلَّةٌ علميّةٌ جديدةٌ فإنه سيمكن يومًا ما تحديد التأثير الذي يُحدثه الدعاء

---

[111] **سنن الترمذي**، الدعوات، 13؛ **سنن أبي داود**، الأدب، 110؛ **سنن ابن ماجه**، الدعاء، 14.

والعشق والحزن في جَسَدِ الإنسان كتلك التقلُّصات والتجاعيد التي تعتري أوراق الأشجار إذا دارَ بجوارِها حديثٌ عن الحرب والقنابل.

ثالثًا: قال سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم في حديث شريف: **"وُكِّلَ بِالْمُؤْمِنِ تِسْعُونَ وَمِائَةُ مَلَكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ"**[112]، وبناءً على هذا فإنني شخصيًّا أذكرُ في أدعِيَتي دائمًا: "جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والمقربين والكرام الكاتبين والحفظة..."، فَمِنَ المحتمل أن هؤلاء الملائكة الحرّاس على أهبةِ الاستعداد دائمًا من أجل حماية ذلك الشخص بشرطِ أخذِهِ بالأسباب، وربما لا يُطلَبُ هذا الشرط أيضًا بالنسبة للبعض.

وانطلاقًا من هذا فإنني أريد الإشارة إلى أمرٍ ما، ويمكنكم أن تعتبروا هذا تقييمًا شخصيًّا.. لكنها حوادث شاهدتها عدة مرات، وعشتُها شخصيًّا.. إنني طيلةَ سنواتي الماضية لم أستطعْ أبدًا أن أنامَ الليلَ إذا لم أكن متوضِّئًا أو -عذرًا- إذا كنتُ محتاجًا لدفعِ الحاجة!! ولا أدري إن كان هذا ناتجًا عن تَعَذُّرِ تحققِ التوازن الكهربائيّ الموجود في هذا الجسدِ، أو أنه لسبب آخر! إن هذه الأمور أشياء تتجاوزني، ويستطيع الإجابة عنها من يُجرُون الأبحاثَ المتعلِّقة بِطاقَةِ الجِسْمِ، غير أنها كثيرًا ما كانت تَعْلَقُ بذهني منذ زمنٍ بعيدٍ.

تُرى أتشكِّل أحدَ هذينِ السببين عائقًا أمام الملائكة الحَفَظَةِ يمنعُها من أداءِ وظائفها فيتعرَّضُ الإنسان لتلك الضغوط؟! وبالمناسبة ثمة قناعة سائدةٌ بين العامة بأن: "الجنّ والجنّيات يُلحقن الضررَ بالنساء في فترة النفاس". أجل، لو كان هذا الرأيُ صحيحًا فهذا يعني أن نفوذَ المخلوقات الشرّيرة إلى أولئك النسوة غير المتطهِّرات دائمًا ما يكون أسهل. أجل، إنكم وغيركم لا تستطيعون تشخيصَ وتحديدَ هذا في أيّة عيادةٍ طبّية؛ لأن هذه الحادثة تتجاوز عالمكم الطبيعي؛ ولهذا السبب فإنه يتعذَّرُ عليكم الوصول إليها سواء باستخدامِ "الأشعة السينية (X ray)"، أو بواسطة أفلام الأشعّة، ويمكن القول إنَّ ثمة احتمالًا واحدًا في مواجهةِ كلِّ هذا؛ وهو أن حراسة الملائكة الحفظة الناسَ مرهونةٌ بظروفٍ معيّنةٍ، بحيث لا يستطيعون القيام بمهمّتهم عندما تنتفي تلك الظروف، وحينذاك تستطيعُ القوى الشرِّيرة أن تجدَ الفرصةَ للنفوذ إلى الإنسان بسهولةٍ أكبر.

ولأجل ذلك فإن قراءة الإنسان الدعاءَ المذكورَ ثلاثَ مرّات صباحًا وأخرى مثلها مساء؛ ربما يحمل في داخله -من حيث هذا الشق الثالث الذي حاولنا إيضاحه-

---

[112] الطبراني: **المعجم الكبير**، 167/8.

دعوةً للملائكة الحفظة كي تحرسه من شرِّ الأشياء الضارّة، وهذا ما تناولته تتمّة الحديثِ عن أبان بن عثمان الآنف ذكره، إذ إنّ أَبَان بن عثمان روى عن رسول الله قوله: **"مَنْ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ"**، وكان أبانُ هذا قَدْ أَصَابَهُ طَرَفُ فَالِجٍ، فَجَعَلَ أحدُ المستمعين للحديث ممن حوله يَنْظُرُ إِلَيْهِ بتعجُّبٍ! فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: "مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ لِيُمْضِيَ الله عَلَيَّ قَدَرَهُ"[113].

وختام الدعاء "وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"؛ فاسمُ الله العليمُ هو اسمُ الحقّ تعالى الذي يحيط بكلِّ شيءٍ، وهو أوسعُ الأسماء شمولًا وإحاطةً، وعلى ذلك فإن الله تعالى يعلمُ كلَّ ما هو موجود -بما في ذلك ذاته العلية-، وما هو غير موجود أيضًا، والواقع أن ما نسمّيه "القَدَرَ" هو عبارةٌ عن تقديرالله تعالى صاحبِ العلم المحيطِ لكلِّ شيءٍ جزئيًّا كان أم كلِّيًّا؛ بدءًا من الأنظمة الكبرى الموجودة في عالم المجرّات التي تتعلّق بالدنيا وحتى انسداد أوردة الإنسان...

أما بالنسبة لاسمه "السميع"، فقد جاء أيضًا بصيغة المبالغة، وهو يعني "من يجيد سماعَ كلِّ شيءٍ"؛ ولذا فإن مَنْ يسمع كلَّ شيء، يسمع هذا الدعاء المذكور أيضًا، وإن كان الأمرُ كذلك أمكننا أن نفهمَ الشرطيَّة في مقولةِ "من يقرأُ هذا الدعاء لا يضرُّهُ شيءٌ"؛ على أن "ذلك الشخصَ يكون تحت ضمانةِ اسمي السميع والعليم المذكورين في خلاصة الدعاء"، أي إن أدعيَتَنَا معلومةٌ ومسموعةٌ لدى من يسمع ويعلمُ كلَّ شيءٍ.

وفي النهاية فإن هذا الدعاء الممتدَّ من مفخرة الإنسانيّة (صلى الله عليه وسلم) إلينا يُنَفَّذُ حكمُهُ وسيظلُّ يُنَفَّذُ، سواء فَهِمنا ماهيَّته أو لم نفهم، اللهم اجعلْنا من عبادِك الذين يؤمنون بصدقٍ وإخلاصٍ بهذه الحقيقة وما شابهها، ويطبِّقونها في حياتهم على النحو اللازم... آمين.

---

[113] **سنن الترمذي**، الدعوات، 13؛ **سنن أبي داود**، الأدب، 110؛ **سنن ابن ماجه**، الدعاء، 14.

العشقُ والطاعة

سؤال: يقال "ينبغي تعلّم "العشق من الشيطان، والطاعة من آدم"، فهلّا توضّحون الأمر قليلًا؟

الجواب: يمكننا أن نفهمَ العشقَ الواردَ هنا بمعنيين:

الأول: الرغبة التي لا تُقاوم في سبيل الوصول إلى الحقيقة والكشف عنها.

الثاني: الانغماس في بعض الأفكار مثل: أن يقصر الإنسانُ فكره على شخص، وينتظر منه الإقبال عليه، ولا يعترف بمنافسٍ له على اعتبار ألا قيمة للآخرين بجانبه.

وهكذا فثمّة أنانيّة وأثرة يُستشعر بها في الشقِّ الثاني، والواقع أنه قد يتفوَّق الشيطان من حيث الزمان والمكان بقدرِ ما تسمحُ به ماهيّته الخاصّة؛ فهو بهذه المزيّة قد يبدو وكأنّه أفضل من الإنسان؛ وبناءً على ذلك قد تساورُه فكرةُ رفضِ آدم وعدم الاعترافِ بأفضليَّتِهِ، فإن سُمّيَ هذا عشقًا فإن عشقَ الشيطانِ على هذا النّحوِ.

غير أن هذا العشقَ المعلولَ ينتظر المقابل، ويدفع إلى الغيرة المريضة، أما فكرةُ الطاعة التي تسمو بالإنسان إلى الكمالِ تعني القيام بعملِ كلِّ شيءٍ طَلَبًا لِرضا الله، دون التشوُّفِ لأجرٍ في الدنيا، والابتعادَ عن الأغراض الدنيوية، وعدمَ الدخول في مساومةٍ مع الله تعالى، والتحرُّكَ في انقيادٍ واستسلامٍ دائمٍ، ولذا تُعَدُّ فِكْرَةُ الطاعةِ أكثرَ أَمْنًا وثراءً من مثل هذا العشق المعلول.

وهكذا فإن الحلّاجَ قال: "ينبغي تعلُّمُ العِشْقِ من الشيطان، والطاعةِ من آدم عليه السلام"؛ كي يُعَبِّرَ عن فكرةٍ مقيَّدَةٍ بملاحظاتٍ شتّى.

كما أنَّ العشقَ -باعتبارِهِ يصدُرُ عن العَجْزِ والفَقْرِ- يحمِلُ في طبيعتِهِ نوافذَ قد تُؤَدّي إلى إساءة الاستعمال. أجل، يستطيع العاشق أن يقطع علاقتَهُ بمعشوقِهِ؛ يستطيعُ ذلك ولكنه قد يَعْلَق بمجموعة من الحجب، وعندما ننظر إلى الأمر من هذه الزاوية، يمكننا اعتبار هذا الوضع الذي تعرَّض له الشيطان أحدَ تلك الحجب.

ولذلك فإن اتّباع السنَّةِ السَّنِيَّة في العشق والشوق والشُّكْرِ مهمٌّ جدًّا، فقد يعجزُ الإنسان أحيانًا عن العثور على الأشياء التي بحث عنها وتخيَّلَها فيها؛ ربما يعجز عن العثور عليها، فيتحوّل طامحًا إلى أغراض شتى، حتى إنه يتناولُ الأشياءَ الظاهرةَ على الساحة كأسباب على أنها قيمة مطلقة، وربما يقول: "كان لا بد أن تُؤَدّيَ هذه الأسبابُ إلى تلك النتائج... إلخ"، هذا في حين أن ثـمّة رحمة وعدالة في

جَبْرِ الله تعالى لنا على بعض الأمور، وإنه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّ كبيرًا غيرُ مُجْبَرٍ على خلق النتيجة لتوسلنا بالأسباب، والسنةُ السَّنِيّة تعلّمُنا هذه الحقيقة، يقول صاحب "بدء الأمالي" سراج الدين عليّ بن عثمان الأوشي الفرغاني في هذا الصدد: "وما إن فِعْلٌ أَصْلَحُ ذا افتراضٍ على الهادي المقدس ذي التعالي"، وقولُ الله تعالى في بعض التعاملات التي يجريها بينه وبين العبد تنزُّلًا وتفضُّلًا منه: "هذا حقُّك، وهذا حقّي أنا"؛ إنما هو وفقًا لمبدإ المقابلة والمشاكلة التي هي إحدى خصائص اللغة، وإلا فهل يحقُّ لنا ادّعاء امتلاكنا نتيجةَ ذلك العمل بسبب ما نُسَمِّيه الإرادة التي يتملَّكُ الله تعالى كلَّ أدواتها؟! كيف ذلك؟! ونحن لا نستطيع الحصول على النتيجة! كما أن بناءَ الأحكام على النتيجة ليس بإمكاننا أيضًا"[114].

نعم، إن علاقةً واقعيّةً تُلاحَظُ بين السَّبَبِ والـمُسبَّبِ، وفي إطارِ مبادئ سنَّة الله الكونية تتحقَّق النتيجةُ حين تُراعى تلك الأسبابُ، غير أنه لا يحقُّ لمن يمثِّلون تلك الأسباب أن يقولوا: "لا ريب أن الأمرَ سيكون على هذا النحوِ..."؛ لأنه حتى ولو كان ثمة ارتباطٌ بين السبب والمسبّب إلا أنّ النتائج لا تَتَرَتَّبُ على الأسبابِ في الحقيقة، ومن ذلك على سبيل المثالِ لو قالَ الحقُّ تعالى للناسِ كي يحقِّقَ مشيئَتَهُ: "إنني أُبَدِّدُ النظامَ الشمسيّ إن نَفَخْتُمْ عليه"؛ وفِعلًا ما إن نَفَخْنا عليه حتى بدَّدَهُ الله؛ فبذلك نكونُ نحن المتسبّبين فيه، غير أنه من المؤكَّد حقيقةً أنَّ النظامَ الشمسيَّ لا يتبدَّدُ بِسببِ نفخِنا نحن، أي من ناحية العلاقة بين السَّبَبِ والمسبّب.

والحاصل؛ أن الأفضل هو أن نسلكَ طريقَ العبوديّة والطاعة على غِرارِ آدم عليه السلام بدلًا من سلوك سبيل العشق على غرار الشيطان؛ لأنَّ العِشْقَ قد يَتَسَبَّبُ أحيانًا في أن يَحيدَ الإنسانُ عن الطريق القويم، غير أن طاعةً على نهجِ السنّة السنيّة لا تتسبَّبُ في شيءٍ كهذا أبدًا!

ولننظرْ إلى رأيِ "منصور الحلاج" من حيث المقارنة بين العشق والطاعة، فما جعلَ منصورَ الحلاج يقول هذه العبارةَ الواردة في السؤال أساسًا هو أنه كان يقولُ عن الشيطان: "الشيطانُ مخلوقٌ حَصَرَ قلبَهُ على الله، ولم يعشقْ أحدًا سواه تعالى، حتى إنه لما رأى الإنسانَ بينه وبين الله تعالى، بلْ لما أُمر بالسجود لآدم -بحسب من يفكرون كما يفكر الحلاج- منعه عشقُه اللهَ تعالى من السجود لغيره تعالى، ولهذا السبب قال: "أنا لا أسجد لأحد غيرك"!

[114] انظر: الرازي: **شرح بدء الأمالي**، ص 16.

ولا يمكننا الموافقة تمامًا على هذه الأفكار، وحتى وإن كان الأمرُ كذلك؛ إلا أن ثمّة شيئًا غفلَ عنه كلٌّ من الحلّاج والشيطان؛ ألا وهو الدِقَّة في إطاعة الأمرِ، لقد فَهِمَ آدمُ عليه السلام الدِقَّة في الامتثال للأمرِ، وسرعانَ ما اعتدَلَ واستقامَ بعد أن زلَّ؛ فتضرَّعَ إلى الله بالدعاء قائلًا: **(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** (سورة الأَعْرَافِ: 23/7)، أما الشيطان فإنه لم يفهم السرّ الكامنَ في أمر الله تعالى له بالسجود لآدم عليه السلام.

وقد قلنا سابقًا بالنسبة للمقارنة بين العشق والطاعة؛ لو كانت الطاعة مصدر العشق لكان ذا معنى، فإن خلا العشق من الطاعة ربما تتولد منه صنوفٌ من القنوط والخيبة والإنكار، مثلما قد تتولّد منه صنوف من الشطحات، بل إن الشطحات تكبرُ بقدرٍ يتناسَبُ مع عظم العشق، وقد تَحْدُثُ مباعداتٌ في أُفُقِ القرب، أي في سياق التقرُّبِ من الله؛ فتفقدُ الأشياء القيّمةُ قيمتَها في لحظة واحدة.

ولا تدلُّ هذه النتائج على أن العشقَ شيءٌ عديم الأهمّيّة؛ بل هو في غايةِ الأهمّيّة، وقد جاءَ ذلك مُفَصَّلًا في كتاب: "التلال الزمرّديّة نحو حياة القلب والروح"[115]، بل إن البعض أولى ما هو مجازي منه أهمية كبيرة جدًّا، واعتبرَ من مات بسبب عشقه شهيدًا[116]، وقد خلّدت القصصُ الشعبية مثل قصص: "مجنون ليلى"، و"شيرين وفرهاد" هذه النوعيةَ من الهُيام والعشق، غير أن العشق -كما ذكرنا آنفًا- قد يُفيدُ معنى ما طالما رُوعيت القواعدُ والأسسُ التي تُكْسِبُهُ القيمة، وإلا؛ فإنه ينقلبُ إلى سخطٍ على العلاقة والارتباط إن تعذَّرَ الحصول على ما هو منتظَرٌ من العشق ولم يتحقَّق الوصالُ بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

وهكذا خَسِرَ الشيطان وهوى لأنه -ربما- تعذَّرَ عليه العثور على الشيءِ نفسه من الله، ولم يستطع الاستقامة مرة أخرى.

أما بالنسبة للطاعة فلا توجد فيها مثل هذه الأمور الخاطئة ولو من بعض الوجوه، وبما أن الطاعة تقتضي طاعة الله تعالى والامتثال لرغباتِهِ وأوامره فهي عملٌ قلبي وفعلي يُقصَد به رضاه سبحانه وتعالى.

ومن جانب آخر فإنَّ العشقَ يؤثر على الاتّزانِ، وهو ما يفسحُ المجال أمام التصرُّفات غير المتّزنة؛ أي إن العشقَ يصيب الإنسان بالجنون من ناحية ما، ومن هذه الناحية فالشيطان مخلوقٌ غير متَّزنٍ من الأساس.

---

[115] انظر: فتح الله كولن: **التلال الزمرّديّة نحو حياة القلب والروح**، العشق، 215/1-218.

[116] انظر: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 156/5.

ومن ثمّ لا بدّ من اتِّباعِ القواعِدِ الموضوعة في الطاعةِ بدقَّةٍ بالغةٍ وحساسيّةٍ كبيرةٍ، وهذا هو الاتّزان، واختيار آدم عليه السلام الطاعة يُبَيِّنُ أنه مخلوق متَّزنٌ.

محلّ الدعاء على الآخر في وجهة نظرنا

سؤال: هل نستطيع الدعاء على الآخرين إذا ما تعرَّضْنا للأذى في ديننا وأنفسنا؟ وكيف ينبغي لنا التفكير والتصرُّف في هذا الموضوع؟

الجواب: إن المؤمن الذي بلغَ الذوقَ الروحانيَّ في الإيمان لا يدعو "بالسوء" على أيّةِ حال، ولا يُؤَمِّنُ عليه أيضًا، غير أن دينَنا وتديُّنَنَا قد يُهان في شخصنا أو في مشاعرنا وأفكارنا أحيانًا، وقد تتضجَّرُ أرواحُنا من الإهانات على هذا المنوال، والمعاملات الخارجة عن نطاق الأدبِ؛ فتُجْبِرُنا أحاسيسُنا على الدعاء بالسوء.

فمثلًا، ذات مرّة وبينما كانوا يستجوِبُونَنِـي وَجدوا معِي مالًا هو في الأساس راتبي عن وظيفتي، فعنّفني المستجوبون قائلين: "يا وغد! مِنْ أين جاءتك هذه النقود؟"؛ ومع ذلك كنتُ أخاطبهم باحترام وظَرَفٍ دائمًا، مستخدِمًا تعبيرات مثل "السيد - سيدي" دون أن أُخِلَّ بأسلوبي وتربِيَتِي في حين كانوا أنفسُهُم يُسيؤون إليّ بألفاظٍ فظّةٍ كـ"وغد" وغيرها! وقد اعتبرتُ ذلك التحقير موجهًا لنفسي الأمَّارة التي تستحقّ كلَّ تحقير، ومن يدري فربما السبب الوحيد الذي يدفعهم إلى هذه الإهانات ينبعُ من اعتبارهم الحقائق الخاصّة بعالمنا الفسيح مخالفةً لعالمهم الفكري والعَقَدي، ولذلك استولى عليهم شعورٌ بالسوء استحالَ عليهم التغلّب عليه.

وإنني أرى في الآونة الأخيرةِ أنَّ نيّةَ من يُفَكِّرُون في الشرِّ ضدَّ المسلمين ترمي -حتى وإن كان ذلك فرديًّا- إلى إهانةِ الشعورِ والفِكرِ الإسلاميّ، فإن كانت تلك الازدراءات والتزييفات تمارَسُ ضدَّ شخصِنا توجَّبَ علينا أن نكون متسامحين بقدر الاستطاعة نظرًا لأنها أمورٌ شخصيّة، أما إن كانت ضدَّ الدين فعلينا أن نُفوِّضَ الأمرَ إلى الله تعالى، ونقول كما يقول بديع الزمان النورسي: "أحيلُ ذلك الشخص إلى صاحب القرآن"، وبوسعنا أن نقول: "اَللّٰهُمَّ عَلَيْكَ بِهِمْ" بنية الدعاء على كل من يخططون ضد المسلمين ويحيكون لهم المكائد في كل مكان انطلاقًا من دعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مكّة على من وضعوا عليه سلا جزور قائلًا: **"اَللّٰهُمَّ عَلَيْكَ بِكُلِّ مُتَجَاوِزٍ وَخَائِنٍ وَمَاكِرٍ وَمُعَنِّدٍ"**[117] دون أن يصرح باسمٍ. أجل، إنه لا مكان للَّعْنِ والدعاء على الآخر في عالَمِنا بالنظر إلى هويتنا وبنيتنا الفكرية الأساسية، ولكن إحالة أمرهم إلى الله تعالى، ولو بهذا القدر، لا بُدَّ وأن تُعتَبَرَ على أنها ضرورة من ضروريّات احترامنا للدين.

---

[117] انظر: **صحيح البخاري**، الوضوء، 69، الصلاة، 109؛ **صحيح مسلم**، الجهاد، 107.

ومن جانب آخر؛ فإن الدعاءَ بالخير لإنسانٍ ما هو أكثر قبولًا من الدعاء عليه بالشرِّ؛ ولذلك فإن ثمة نوعين من الدعاء ممكنين بحقِّ الناس، فمثلًا قد يُدعى على شخصٍ بلسان العوام: "أهلكك الله.. لا حقَّقَ الله لك مرادًا.. أحرق الله بيتَكَ.. "؛ فإن كان لهذا الإنسان بعض حسنات فعلها وسابقُ معروفٍ قدّمه -كأن يكون طبيبًا مثلًا وعالَجَ كثيرًا من الناس، وتسبب في شفائهم من أمراضهم- فقد تحجُبُ هذه الحسناتُ موجاتِ الدعاءِ عليه عنه وتبطل تأثيرها، حتى وإن كان كافرًا، لكن الأفضلَ أن يُدعى له بهذه الصيغةِ فيُقال: "رغمَ أنك أسأتَ لي ولديني فإنني أسأل الله أن يمُنَّ عليك بالهداية، وأن يُمَزِّقَ ما أنتَ فيه من ظلمةٍ، وأن يُخرجَكَ إلى النور...!"، فدعاءٌ كهذا ربما يلقى القبول والإجابة مباشرةً، ولو قيل لي شخصيًّا: "لو أنَّكَ دعوتَ عليهم؛ فإن الله تعالى سوف يجتثُّهم، ويمزّقهم بسبب إساءتهم لك، ويُنهي كلَّ أعدائِك فَيَذْبلون كالأوراق التي أصابها الخريفُ، ولكن إن سامحتَ وعفوتَ فسيكونون مسلمين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (رضي الله عنهم أجمعين)، ويخدمون دينَ الإسلام المبين في المستقبل"؛ فإنني اختارُ الشِّقَّ الثاني بطيبِ نفسٍ، أي إنني أُفَضِّلُ أن نُمْسِكَ بأيدي بعضِنا ونعبرَ من الصراط المستقيم ونسير معًا يومًا ما إلى الجنة إن شاء الله.

ويمكننا أن نرى أمثلةً مختلِفَةً من هذا في صدرِ الإسلام، فمثلًا؛ لو أنَّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على عكرمة بن أبي جهل الذي كان يُخَطِّطُ دائمًا كوالدِهِ تمامًا في الإساءة لسيدنا رسول الله وصحابته؛ وأحالَ أمره إلى الله لكانت تلك عاقبةً مفجعةً بالنسبة لِعكرمة، ولماتَ وهلكَ في الكفر والضلال، بيد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو صرحُ الشفقةِ والتسامحِ- أفسحَ له مكانًا في عالم تسامُحِهِ الفسيح ذاك، ولم يدعُ عليه قط، وأمّنه حينما طلبت ذلك زوجتُه أمّ حكيم بنت الحارث... فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ هَرَبَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ أُمّ حَكِيمٍ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ امْرَأَةً عَاقِلَةً أَسْلَمَتْ، ثُمَّ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمَانَ لِزَوْجِهَا فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، فَخَرَجَتْ فِي طَلَبِهِ وَقَالَتْ لَهُ: جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ أَوْصَلِ النَّاسِ وَأَبَرِّ النَّاسِ وَخَيْرِ النَّاسِ وَقَدِ اسْتَأْمَنْتُ لَكَ فَأَمَّنَكَ، فَرَجَعَ مَعَهَا، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَكَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: **"يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهاجِرًا، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ"**، فَلَمَّا بَلَغَ بَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَبْشَرَ وَوَثَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا عَلَى رِجْلَيْهِ فَرِحًا

بِقُدُومِهِ[118]، فلمَّا أسلم قال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَا أَتْرُكُ مَقَامًا قُمْتُهُ لِيُصَدَّ بِهِ عَنْ سَبِيلِ الله إِلَّا قُمْتُ مِثْلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا أَتْرُكُ نَفَقَةً أَنْفَقْتُهَا لِيُصَدَّ بِهَا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ نَزَلَ فَتَرَجَّلَ فَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا فَقُتِلَ فَوُجِدَ بِهِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ مِنْ بَيْنِ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ وَضَرْبَةٍ[119].

ومن الواجبِ علينا عندما ندرس كلَّ هذه الأمثلة أن نُفكِّرَ جيّدًا في الشقِّ الذي سيُختارُ، وأن نختار ما هو عقلي ومنطقيّ، أليست الفكرة الأساسية في ديننا هي إنقاذ الإنسانية؟! بلى، إننا حين نعي هذه الفكرة فلن يصعب علينا كثيرًا تحديدُ طريقنا؛ لأنَّ وظيفتَنا هي إرشادُ الإنسانية إلى الطريق النوراني، وتقديم الرسالة المحمدية لهم.

فمثلًا؛ كنتُ أرغبُ كثيرًا في الحوار مع بعض الملحِدين، والواقع أن هذا الأمر ربما كان يتجاوزُنا، وربما كنّا نعجزُ عن أن نوضِّحَ لهم شيئًا ما؛ لأنهم مُسلَّحون بالثَّراءِ الفكريّ لكن لما لم يكن هناك أحدٌ يقوم بهذه الوظيفة كنت أرغبُ في الحوار معهم حتى وإن سَبُّوا القِيمَ التي نُقَدِّسُها مدى الحياة، المهمّ هو أن لا يموتوا ويرحلوا عن هذه الدنيا إلا وقد آمنوا واهتَدوا.

والحاصلُ أنه لا مكان في عالمنا للدعاء بالشر على أحدٍ.

---

118 الطبراني، **المعجم الكبير**، 373/17؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، 269/3.

119 ابن أبي شيبة: **المصنف**، 227/4.

العلاقةُ بين الإنسان والمحبة

سؤال: ما مكانة ومعيار المحبة في الإسلام؟ وهل المحبّة المفرطة لشخصٍ ما طبيعيةٌ، أم أنها نابعةٌ من الضعف؟

الجواب: المحبة بُعْدٌ مهمٌّ من أبعادِ ماهية الإنسان، بل يمكنُ اعتبار المحبة أساسًا للكون؛ وكأن الحقَّ تعالى خلقَ الكون بسببِ محبَّتِهِ للموجودات، كما وضعَ قوانين متنوّعة كي تتمكَّن تلك الموجودات من مواصلة حياتها بشكلٍ منظَّمٍ، وقد خلقَ الجنان والنيران بسبب حبِّهِ الخاص بالإنسانيّة؛ وكان مرادُ الله تعالى -وهو يَعِدُ بالجنّة ثوابًا ويُرهِبُ بالنارِ عقابًا- أن يُحَوّل الأنظارَ إلى ذاتِهِ العليا، وأرسلَ الرسلَ من أجلِ تحقيقِ هذه الغاية، إذ إنّه من خلالهم يُجَدِّدُ سُنَنَهُ وشرائِعَهُ لمواجهة الظروفِ المتغيِّرة، وعمِلَ على أن تظلَّ الأفكارُ والأحاسيسُ التي تُكنُّها القلوبُ نحوه تعالى حيّةً في كلِّ آنٍ، وحين اكتملت سلسلة الأنبياء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبقى سبحانه وتعالى على ذلك الأمر متصلًا عن طريق الأولياء والأصفياء، ومن ثمَّ فالمحبة بأحَدِ معانيها وبهذا المنظارِ؛ إنّما هي أصل كلِّ شيء.

أجل، لقد أدرج الله جلَّ جلالُهُ في فِطْرةِ الإنسان جزءًا واحدًا من هذه المحبّة العامة حتى يهتمّ ويحبَّ ما يلزمُ أن يُحَبَّ، وبهذا الحبِّ المفطورِ في نفسِهِ سوف يُحِب الإنسان أشياءَ أخرى حبًّا مجازيًّا، إلى جانب حبِّهِ اللهَ والرسولَ، إلا أنه سيعلم في حبِّهِ هذا أن المحبَّةَ للأغيار ينبغي أن تكون في إطارِ: "نحبُّ الخلق محبّة في الخالق"، ولن ينسى قطعيًّا وهو يحبُّ بستانه وحديقته ورفيق عمرِهِ وبيته ومأواه وغيرها... أن كلَّ عنصرٍ من هذه العناصر المحبوبة إنّما هو عبارةٌ عن مظهرٍ من تجلِّي أسماءِ الحقِّ تعالى، وأنها حقائق نسبية، وفي حال حدوث العكس؛ أي إنْ وضعها في نظر الاعتبار وافتتَنَ بها "بالمعنى الاسمي"[120] على حدِّ قولِ الأستاذ النورسي؛ فقد أساءَ استعمال هذا الحبّ.

---

[120] المعنى الاسمي والمعنى الحرفي مأخوذان من الاصطلاح النحوي، فالاسم لفظ يدل على معنى في نفسه، أي متى ذُكِر أدرك السامع معناه؛ أما الحرف فلا يدل على معنى في نفسه؛ لأنه ليس له معنى قائم به، فمثلًا حروف الجر كـ"الباء" و"مِن" و"إلى" و"في"، لا يُفهم منها أيّ معنى عند سماعها وحدها، فلزم أن تُتبَع باسم ليُفهم معناها. كما استخدم الأستاذ مصطلح علم المنطق "الكل والجزء" في معان مختلفة، كذلك فَعَل في اصطلاح النحويين "الاسم والحرف"، فأضفى عليهما معاني مختلفة، وجعل منهما مفاهيم مفتاحية لتفسير الوجود، يرى الأستاذ النورسي أنه من الخطإ النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب، بل ينبغي أن يُنظر إليها بالمعنى الحرفي؛ فحين تنظر إلى النعمة يجب أن يرد بخاطرك المنعمُ، وإذا نظرت إلى المخلوق يجول بخاطرك الخالقُ، وإن نظرت إلى الأسباب تذكرت المؤثِّر الحقيقي.

أجل، إنْ استخدمَ الإنسانُ الحبَّ المُدرجَ في ماهيَّتِهِ بشكل فطريٍّ، وأساء استخدام الحبِّ الممنوح لإرادته الخاصة فهذا سيُبعِده عن الله ورسوله، كما أنه سيفقد أشياء كثيرة في حياته الشخصية، وإذا ما أُضيفَ إلى كلِّ هذه الأمور أيضًا ما افتُتن وسُحِرَ به من أشياءَ دنيويّةٍ، وأنّها ستزول وتفنى واحدةً تلوَ أخرى، وأنَّ المحبَّةَ ستبقى يتيمةً دون مقابلٍ أو فائدة؛ يُصبحُ من البدهيّ القول بأنَّ صاحبَ هذه المحبّة سيتلوى أسًى وألَمًا.

ويُحْكَى أن ثَـمّةَ مَنقبةً خاصّةً بإبراهيم بن أدهم (ت: 161هـ/778م)؛ تركَ إبراهيم بن أدهم مالَهُ وملكَهُ وراءَ ظهرِهِ وذهبَ إلى مكة، وبعد مرور سنوات التقى بابنه في المطاف أثناء الحجّ... ولـمّا التقيا على الفور ضَمَّه إلى صدرِهِ بدافعٍ من شفقةِ الأبوّة، وتلك حالةٌ فطريّةٌ في شخصِهِ وشعورٌ لا يمكن لأبٍ التغلُّبُ عليه، وبهذا فإن الإنسان لا يُؤاخذ قطعيًّا بسبب موقفٍ كهذا، غير أن هذا الحال لا يليقُ بالنسبة لأحدِ المقربين الذين جعلوا أفئِدَتَهُم عرشًا لتجلّيات الحقّ تعالى، ولا سيّما وهو بجوار الكعبة، وفي تلك الأثناء هَتَف في أذن إبراهيم بن أدهم هاتفٌ بصوت خافتٍ أن: "يا إبراهيم! لا يجتمع حُبَّان في قلبٍ واحد"؛ فلمَّا وعى الهاتفَ تضرَّعَ إبراهيم لربّه على الفور قائلًا: "إلهي، بما أنّه لا يجتمع حبّان في قلبٍ واحد؛ فأَزِلْ ما يَحولُ دون محبتك!"؛ وما أن انتهى من دعائه حتى خرَّ ابنهُ عند قدميه ميتًا.

هذه منقبة مخصوصةٌ بمن أحرز ذلك المقام من الناس، وهذا أمرٌ غير ملزِمٍ لغيرِهِ من الناس الذين لم يحرزوا هذا المقام.

إلا أنَّه في نقطة كهذه يمكن القولُ إنَّ الحبَّ الذي يشعر به الإنسانُ تجاه شيءٍ ما دون تفكير في الله جلَّ جلالُهُ قد يُصبِحُ مصيبةً تحلّ به في نهاية الأمر، وينسَحِبُ هذا الأمر أيضًا على حبِّ الأولاد والعيال والمال والمنال والصديق، بل وحتى حبّ المرشد، إن المؤمن مثالٌ للتوازن؛ فيلزم عليه أن يفتش عن الاتزان في الحبِّ تمامًا كما هو الحال في كلِّ شيءٍ، فما أجملَ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا"**[121].

والحاصل أنه يلزم علينا أوَّلًا أن نجمعَ ملكةَ الحبِّ التي دَرَجها الله تعالى في فِطْرَتِنا، ونوجِّهها إليه تعالى ثم إلى جميع مخلوقاته حبًّا فيه تعالى.

---

[121] **سنن الترمذي**، البر، 53؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، 259/7؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، 357/3.

نصيحةٌ تعدِلُ الجهاد

سؤال: قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: 91/9)؛ فما هي ماهيّة النصيحة التي تعدل الجهاد؟ وما حدودها؟

الجواب: الجهادُ عبادةٌ ذات أهميّة خاصّة لا يَعدلها شيءٌ ثانٍ في ديننا، كما بيّن ذلك سيِّدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[122]، وانطلاقًا من هذا فإنني أرى أنه من الأصوب فهمُ مسألةِ النصيحة التي تعدل الجهاد على النحو الآتي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لا يستطيع أن يُحيِيَ ليلَهُ، ولا أن يقوم للتهجُّدِ يُضاعِفُ ما فاته؛ فيؤدِّيه نهارًا، راجيًا أن يكون ذلك بديلًا عن إحياء تلك الليلة[123]، وكذلك الأمر بالنسبة لمن لا يقدرون على الجهاد؛ فهم إنْ نصحوا لله ورسوله فلهم أن يرجوا الله أن يَعُدّ هذه النصيحة بديلًا عن الجِهادِ معتمدِين في ذلك على سعةِ رحمةِ الله، أمّا إن تُرِكَ الجهادُ بصِفَتِهِ فرضًا دون وجودِ عذرٍ مانعٍ على الإطلاق فإنه يستحيلُ جَبْرُ ذلك القصورِ بِنُصْحِ الناسِ للهِ ورسولِهِ!

لكن أشكالَ الجهاد تتباينُ وتتنوَّعُ وفقًا لمختلَفِ العصور والأزمان؛ فكما يكون الجهادُ بالنصيحةِ المحضةِ أحيانًا؛ يكون بإرشادِ شخصٍ ما أحيانًا أخرى، وبِأَخْذِ موقفٍ ضدَّ الكفر حينًا آخر؛ وكثيرًا ما يمكن اعتبارُ القدوة الحسنة نوعًا من أنواع الجهاد؛ فعلى سبيل المثال أُعتُبِرَتْ الهجرةُ لفترةٍ معيَّنَةٍ في عصرِ السَّعادة كالجِهادِ عينه، بل إنَّ الهجرة أُشتُرِطَتْ على مُعْظَمِ سادتنا من الصحابة الكرام رضي الله عنهم عند أوَّلِ دخولِهم في الإسلام، حتى إن مَن لم يستطِعْ الهجرةَ منهم حَزِنَ حزنًا غيرَ عاديّ[124]، وتساءَلَ في نفسِهِ مغتمًّا مهمومًا: ترى كيف يمكننا أن نملأ الفراغ الذي تحقق نتيجة عجزنا عن الهجرة؟ وكان عياش بن أبي ربيعة (رضي الله عنه) أخو أبي جهل لأمِّهِ واحدًا من هؤلاء الأشخاص الذين حزنوا لهذا. أجل، لقد قضى 20 سنة من حياته مكبلًا بالأغلال إلى أن فُتحت مكة، وكان واحدًا ممن عبَّرَ عنهم القرآن الكريم بقوله:"المستضعفين"، والحقيقة أن القرآنَ الكريم عاتَبَ من لم يكن

---

[122] روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا أَجِدُهُ"** قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟"**، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "إِنَّ فَرَسَ المُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ". (**صحيح البخاري**، الجهاد، 1؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، 110)

[123] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ، أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً". (**صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، 140)

[124] انظر: الطبري: **جامع البيان**، 15/24.

لهم عذر كعذره فقال: (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ∃ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا**) (سورة النِّسَاءِ: 4/97-98).

وهناك أمثلة أخرى في عصرِ السعادة: فبعض مِنْ هؤلاء المسلمين في ذلك العصر لم يستطع الخروج إلى الجهاد بسببِ مَرَضِهِ أو عجزِهِ، أو حاجةِ أبويهِ إلى العنايةِ والرعايةِ، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ، فَقَالَ: **"أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟"**، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **"فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ"**[125]، أي إن أمره صلى الله عليه وسلم إيّاه أن يقومَ على رعايةِ والديه، والاهتمام بهما إشارة إلى أن جهادَه هو رعايتُه والديه.

وهكذا يمكنُ اعتبارُ الآية الكريمة السالفة الذكر إشارةً إلى أنَّ من لم يُشارِكْ في الجهادِ لهذا السبب أو ما شابَهَهُ بينما غيرُهُ يُجاهِدُ في جبهاتِ الحَرْبِ؛ يمكنُهُ أن يَسُدَّ تلك الثغرة بإسدائِهِ النصحَ لِمَنْ حوله من الناس أو يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

وإنَّ للنصيحة معاني مختلفة منها: تمنّي الخير بحقّ شخصٍ ما وطلبُ الخير له وإيصالُه إلى الطريق المستقيم والتوحيد وتجهيزُ قلبِهِ بوعيِ العبادة والطاعة وتوجيهُهُ نحو وعيِ الخدمة. أجل، إن كلَّ واحد من هذه الأمور تقريبًا يُمَثِّلُ نصيحةً بِدَرَجَةٍ مختلفةٍ.

وكما تواترَ عن النبيِّ؛ فإن قوله: **"الدِّين النَّصِيحَة"**[126]؛ مفهومٌ شموليٌّ، أي إننا إن تناولنا المسألة على أنها تعريف بالله تعالى فلا بدَّ أن يكون بالشكلِ الذي يليقُ بذاتِهِ الإلهيّة، بالإضافةِ إلى أنَّ الكلامَ عنه تعالى والتحبيبَ فيه نصيحةٌ أخرى لها أبعادُها الخاصّة، والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتحبيبُ فيه جانب آخر من النصيحة.

وعند النظرِ إلى المسألةِ من هذه الزاوية يكون تمنِّي الخير لكلِّ الناسِ طمعًا في هدايَتِهم ورشدِهم ودخولهم الجنة أو سلوكهم الصراط المستقيم نصيحةً أوسع نطاقًا، وعلاوة على هذا فإن إزالة بدعةٍ مهما كانت صغيرة وإقامةَ سنَّةٍ بدلًا منها وجعلَ الفرائض الدينيّة والواجبات هي السائدة في الحياة... كلٌّ منها بحدِّ ذاتِهِ

---

125 **صحيح البخاري**، الجهاد، 127، الأدب، 3؛ **صحيح مسلم**، البر والصلة، 5.
126 **صحيح مسلم**، الإيمان، 95؛ **سنن الترمذي**، البر، 17؛ **سنن أبي داود**، الأدب، 56.

نصيحةٌ على حِدَةٍ وبِقَدْرِ اللزوم، وبقدر لزوميّة كلّ هذه النصائح تزدادُ قيمتُها وعمقها عند الله تعالى...

وفي يومنا الحاضر، لا بدَّ من التأكيدِ بصفةٍ خاصّةٍ على نصيحةِ: تثبيتِ حقيقة "الإيمان بالله" وترسيخِها في أرواحِ الناس، وإقناعِ الجميع بها، لا سيما في هذا العهد الذي اهتزَّ فيه مفهومُ التوحيد، بل إن نصيحةً كهذه هي ذروةُ النصائِحِ وأرقاها.

أما بالنسبة للثواب الذي سَيُحَصّلُ من جرّاء هذه الأفعال؛ فسيكون قدره على قدرِ أهمِّيَّةِ إحياءِ سنةٍ من السنن عند الله، والثواب الذي يتحقَّقُ عند إحياءِ فرضٍ من الفروض يكون بقدرِ قيمةِ إحياءِ هذا الفرض عند الله، غير أن التعريفَ بالله وتزيينَ القلوب والأرواح بمعرفتِهِ ومحبَّتِهِ وتطمينَها وتمكينَ القلوبِ من الوصول إلى الذوق الروحاني؛ فرضٌ يعلو كلَّ الفروض، وثوابُها في الآخرة يكونُ بِقَدْرِ عَظَمَتِها، وطلّابُ القرآن العظيم المهيَّؤُون للوارداتِ يحظَونَ بذلك القدرِ بألطافِ الحقِّ تعالى وعنايتِهِ وتقديرِهِ وتبجيلِهِ، وينبغي لمن يتبعونهم ضَبْطُ أحوالِهِم وأوضاعهم وفقًا لهذه المعايير.

القسم الرابع

المِجْهَر

من أجل أخوّة حميميّة

سؤال: تتحدَّثون كثيرًا عن مفهوم الأخوّة وتطبيقِه المتجسِّدِ في عَصْرِ السعادة؛ عصرِ صدرِ الإسلامِ، فكيف نُطبّقُ هذا الفهم في عصرنا؟

الجواب: إنَّ الأخوّة التي تصدَّرَت الإسلام في عصر السعادة انتقَلَتْ إلى التاريخ على أنها "أخوة نموذجيّة"، وأن مَنْ حقّقوها بشكلٍ حميميٍّ هم "جيلٌ نموذجي"، وللأسف فلم نشهد على مسرحِ التاريخِ بعد ذلك مَن يُمثّل هذا المستوى الملحميّ من الأخوّة الحميميّة.

وإن كانت ثمة خلافات وشقاقات جزئيّة حَدَثَتْ بينهم في عهدَي عثمان وعلي رضي الله عنهما، إلا أن من أحدث تلك الخلافات ليسوا هم النجوم الذين شكلوا "الصفّ الأول"؛ وإنما الذين جاؤوا من ورائهم ممن لا يحملون الهم مثلهم، وربما يكون معهم بعضُ السابقين القلائل.. ولكن على الرغم من كلّ شيءٍ إلا أنّه من الواضح أنّهم عاشوا حياةً متوازنةً إلى أن جادوا بأنفاسهم الأخيرة، ومن المؤسِفِ أن نرى في عصرِنا من يُنكِرُ وجودَ ابنِ سبأٍ اليهودي، أو ينكر فتنةَ عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وينسبُ الخلافَ إلى الصحابةِ أنفسِهم دون عوامل خارجيّة، وما هذا إلا محاولة للاستخفاف بما يفعله الأعداء الخارجيّون وتبرئة لهم، بل وتزكيتهم، في حين أن فكرة كهذه تعني الإساءة إلى أولئك الصحابة الذين قال القرآن الكريم عنهم: **(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** (سورة التَّوْبة: 100/9)، وثمة حقيقة تاريخية هي أن كلَّ قوى الشرِّ في تلك الفترة كانت رائدةَ العملِ في إيقاعِ الفِتَنِ وإحلالِ الخِلافات على مدار التاريخ الإسلامي.

أجل، لقد كانت الأخوّة العاطفيّةُ والمنطقيّة بالنَّظَرِ إلى المرحلة الأولى سائدةً بين هؤلاء "الأشخاص النجوم" رضي الله عنهم، بيد أن شهوةَ الدنيا اصطدَمَتْ مع هذه الأخوّة، فانكسَرَتْ الوحدةُ التي كانت بينهم انكسارًا مؤقَّتًا، ولم يعدْ ذلك الصفاءُ الأسبقُ مرّة أخرى بعد هذا الانكسار.

حسنٌ، فإن سألَ سائلٌ: "هل يمكن أن نُحْرِزَ مُجَدَّدًا أُخُوَّةً في مستوى ذلك العصرِ الذهبيِّ الذي سادت فيه مشاعر التشاركيّة فكرًا وحسًّا، ألَمًا ولذّةً على حدٍّ سواء؟"؛ نجيبُ: أنَّ ثـمَّةَ حاجة إلى عمليّة تهيئة كبيرة أولًا كي تتشكّل أخوّة على هذا النحو، و"الأخوة العاطفية" مهمّة جدًّا في هذا الموضوع؛ غير أنها ليست كافية،

فهناك "أخوّة عاطفيّة" بين الإخوة الأَشِقَّاءِ كما هو معلوم، لكنّهم ربما يتشاجرون مع بعضهم البعض أحيانًا حتى ولو في قضيّة ميراث بسيطةٍ جدًّا، بل إنهم ربما يقتلُ بعضُهم بعضًا، وإذا كان الأمر كذلك فإن "الأخوة العاطفية" العاجزة عن جمع ولو حتى الأخوة الأشقاء لن تكفي من أجل إقامة أخوّة على مستوى أخوّة الصحابة، علاوة على ذلك فإن اختلفت نقاط المنافع والمصالح لدى الجميع وأحاسيسهم ومفاهيمهم ومذاقاتهم ومشاربهم وأمزجتهم الخاصة في دائرة واسعة بهذا القدر فينبغي إضافة العناصر المنطقيّة للمسألة عند تأسيس هذه الأخوة، ومن هذه الناحية فقد أظهرَ لنا الأستاذُ بديع الزمان جوانب المسألة ومقوّماتها المنطقية الدائمة، فقال على سبيل المثال:" إن خالقَكم واحدٌ، ومالكَكم واحدٌ، ومعبودَكم واحدٌ، ورازقَكم واحدٌ.. وهكذا واحدٌ واحدٌ إلى أن تبلغ الألف.. ثم إنَّ نبيَّكم واحد، ودينَكم واحدٌ، وقبلتَكم واحدةٌ، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة.. ثم إنكم تعيشون معًا في قريةٍ واحدةٍ، تحت ظلِّ دولةٍ واحدةٍ، في بلادٍ واحدةٍ.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغَ العشرة"[127]، وفي الوقت الراهن -إن زدنا على ذلك قلنا- فإن خصمَكم واحدٌ، وعدوَّكم واحدٌ، وكارِهَكم واحدٌ، ومُعَرْقِلَ تطوُّرِكم واحدٌ.. واحد...

وإن نظرنا إلى المسألة من زاويةٍ أكثر اختلافًا لوجدنا أن توفيقَ الحقِّ تعالى مرهونٌ بوفاقنا واتّفاقنا؛ لأن الوفاقَ وسيلةٌ مهمّة جدًّا للتوفيق الإلهيّ؛ فهو يعني التوحُّد على خطٍّ واحدٍ؛ والاتّفاقُ يدلُّ على المطاوعة بمعنى أن يصيرَ الاتِّفاقُ جزءًا من طبيعة الإنسان؛ يعني أن الناسَ يجعلونه عمقًا وبُعْدًا آخرين في طبيعتهم حين يتفاهمون ويتوحَّدون، وأنا على قناعةٍ بأن عمليّةً كهذه هي أعلى قدرًا من رفع اليدين وختم مجموعة الأوراد والأدعية مرة أو مرتين، كما تُعَدُّ بمثابة دعاءٍ ومناجاةٍ مهمّةٍ إلى الله تعالى لِنَيلِ توفيقِهِ سبحانه.

أجل، إن الفوزَ بِنِعَمِ الله مُرْتَبِطٌ باتّصاف الإنسان بحزمةٍ من الأوصاف؛ فكما بيَّنَ سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[128]، والمهم من هذه الزاوية هو صفات الناس، أي إيمان الفرد فعلًا، وليس مجرَّد التظاهر به؛ وليس مجرد أدائه الصلاة وإنما توحّده معها، وليس طوافه بالكعبة وإنما تركيزه على فكرة الطواف؛ وباختصار

---

[127] بديع الزمان سعيد النُّورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثاني والعشرون، المبحث الأول، **الوجه الثاني**، ص 321.

[128] **صحيح مسلم**، البر، 34؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، 9.

فإن المهم هو حسنُ التوجُّهِ إلى الله ورسوله، وعلينا ألا ننسى أن الله جلَّ جلاله يُجري أحكامه بالنَّظَرِ إلى الأوصاف لا الأشخاص.

وعلى هذا فإنْ فكَّرَ الكافرُ بنظامٍ وانتظامٍ، وحلَّلَ الأشياء والحوادث، ولم يضيِّعْ وقتَهُ وعيًا منه بقيمته، وواظب على العمل؛ فإن الله جلَّ جلالُهُ يوفِّقُه ويُنْعِمُ عليه بالنجاح؛ لأن كلَّ واحدةٍ من هذه الأمور صفةٌ من صفات المؤمن، ومن جانب آخر فقد يُحكَمُ بالمغلوبية والهزيمة على مؤمنٍ حتى وإن طاف بالكعبة خمسين مرّة يوميًّا؛ وذلك إن كان قلبُه وباطنُه وبنيتُه الفكريّة ومنطقُ نظامِهِ فاسدًا، ويحمل مواصفات الكافر، لأنَّ مكافأةَ الإيمان تكون في الآخرة على الأكثر؛ كما أن جزاءَ الجهلِ بالشريعةِ الفطريّة وعدمَ رعايتها يكون في الدنيا على الأكثر، وحياة هذين الكتابين (كتاب الشريعة وكتاب الكون) حياة متوازنة هي السبيل الوحيد الذي يوصلنا إلى التقوى الحقيقية.

وثمة عامل آخر يضطلعُ بِدَورٍ مهمٍّ في تحقيق أخوّةٍ حميميّة كأخوّة الصحابة؛ هو الإحساسُ بِـهذه الحتميّة والشعور بِثِقَلِها في القلوب في صورة النيّة، ثم الخطوات التي ستُخطى في اتِّجاه تلك النيّة، فمثلًا؛ الجماعاتُ التي تخدمُ الإسلامَ بواسطة مناهج مختلفة يتعيَّنُ عليها أن تخطو خطوة مهمّةً، وهي أن تعترفَ كلُّ جماعةٍ بما قدّمَتْهُ الأخرى من خدمات، وأن يُشجِّعَ بعضُها البعضَ الآخر، ويُساعده ويُسانده ويقف إلى جانبِهِ.

أجل، إن السبيلَ الوحيدَ لِنَيلِ ما حَظِيَ به الصحابةُ من نِعَمٍ هو القدرة على تقديم أداءٍ يُقاربُ أداءَهم في الموضوع المراد تحصيله، والاستفادةُ من كلِّ الفُرَصِ التي تظهرُ أمامنا في هذا السبيل، فإن أمكن تطبيق هذه الأمور على الحياة؛ فمَنْ يدري**!؟** فربما يُتَوَصَّلُ إلى محاذاة الصحابة في المجال المقصود وفقا لمعنى عبارة: "قد يترجح المرجوح على الراجح".

وحاصلُ الكلام: أنه يتعيَّنُ في سبيلِ تأسيسِ أخوّة الصحابة، أن تُوضَعَ في الانتباهِ العناصرُ المنطقيّة إلى جانبِ الحِسِّ، والاتحادُ على خطِّ الوفاق والاتّفاق، والإحساسُ الدائم بثقلِ هذا في القلب، واتّخاذُ خطوات ملموسة.

الصبر والصلاة

سؤال: تذكرون في كل فرصة أن كلَّ شيءٍ في الخدمات المنجزة مرتبطٌ بالعناية الإلهيّة؛ وتبينون أن القرآن الكريم يوصي بـ "الصبر" و"الصلاة" كوسيلة لجلب العناية الإلهية؛ فكيف وبأيِّ شكلٍ ينبغي أن يسودَ الصبرُ والصلاة في حياتنا حتى نكون قد امتثَلْنا لِأَمْرِ القرآن الكريم؟

الجواب: قبل أن نشرع في بيان هذه المسألة يلزم علينا أن نُنَوّه بأمرٍ في غايةِ الأهميّة؛ وهو ألا يغفلَ جهد الإنسانِ وسعيه، وألا تنكرَ إرادتُه إلى جانب العناية الإلهية في الخدمات المنجزة.

فقد اعتبر أهلُ السنة نفي إرادة الإنسان في الأفعال المنجَزة نوعًا من "الضلال"، وعَدّوا من يُفكِّرُ على هذا النحو من "الفِرَقِ الضالة"؛ وذلك لأن نفيَ الإرادة بتمامها وإنكارَها ضربٌ من الجبر[129]، كما أن نفيَ إرادة الله تعالى في الأعمال المنجَزَةِ وعزوَ كلِّ شيءٍ لإرادةِ الإنسان، والقولَ بأن "الإنسان خالقٌ لأفعالِه" ضلالٌ آخر، وقد أُطلق في التاريخ على ممثلي هذا الفكر اسم "المعتزلة"[130].

وللإرادة أهمّيّة كبيرة في ميل الإنسان نحو الخير أو الشرّ في حدود الشَّرْطِ العاديّ، أو أن الإرادة التي يمكننا تفسيرها بأنها تفضيل أحد شيئين متساويين؛ لها مكانةٌ جدُّ مهمةٍ في توجيهِ أفعالِ الإنسان.

وبمفهومٍ آخر فإن الإرادة خطٌّ اعتباريّ حتى يمكن أن يُقال إنها غير واضحة الماهيّة والمعالم، ومع أن الأمر على هذا النحو إلا أننا نستطيع تقييمها على أنها عاملٌ وأساسٌ مهمٌّ جدًّا يُولّد قدرًا من الحقائق الواقعيّة غير الاعتبارية. أجل، إن الإرادةَ عاملٌ وأساسٌ مهمٌّ إلى حدِّ أنه لا يمكن بلوغ الجنة ومشاهدة جمال الله إلا بحسنِ استخدامها، وكما أن الإنسان بوسعه أن يفوز بالأبدية في ظلِّها؛ فإنه لا يستطيع إحراز السعادة الدنيوية والأخروية إلا في ظلها أيضًا..

والواقع أن عدمَ معرفةِ حدودِ الإرادة وعجزَنا عن معرفتها معرفةً تامةً بسبب عدم وضوح معالمها أفضلُ من المعرفة التامة بها؛ لأن مثل هذه المعرفة تُثَبِّطُ عزمَ الإنسانِ وجهدَهُ ومَيلَهُ في ذلك الموضوع، ولمزيدٍ من الإيضاحِ نقول: إن عدمَ وضوحِ معالِمِ إرادةِ الإنسان يجعلُهُ يفكِّرُ بأنه يستطيعُ بفضلِ الله وعنايتِهِ التغلُّبَ

---

[129] انظر: الأشعري: **المقالات الإسلامية**، ص 40؛ الإيجي: **كتاب المواقف**، 712/3.

[130] انظر: الأشعري: **المقالات الإسلامية**، ص 41؛ الإيجي: **كتاب المواقف**، 208/3.

على المشكلات التي تواجهه وإن بلغت الذروة في شِدّتها وضراوتها؛ ولذا فإن كونَ الإرادة شيئًا اعتباريًّا وعدمَ معرفتنا ماهيّتَها معرفةً تامةً من حيث الوجود الخارجي مصدرُ قوةٍ مهمٌ بالنسبة للإنسان. أجل، إن إرادةً على هذا النحو مصدرُ قوة وطاقة يستطيع كل إنسان من خلالها أن يتفوقَ على نفسه، وخلافًا لذلك فإن الإنسان الذي يستطيعُ أن يرفع بإرادتِهِ أشياء تَزِنُ مائة كيلو جرام -على سبيل المثال- ربما يقول حين يواجه حملًا يزن مائة وعشرة كيلو جرامات: "إنني لا أستطيع رفعَ هذا"، في حين أن الحقيقة ليست على هذا النحو إطلاقًا، فالإنسان -وفق منهج "الغموضية (Mysticisim)" وأنصار فلسفة "اليوغا"- يستطيع تحريك ذلك الشيء بقوة ميتافيزيقية تُكسب الروحَ قوتها، ويستطيع إنسان كهذا أن يرفع ليس حملًا يزن مائة وعشرة كيلو جرامات فحسب، بل أكثر من ذلك.

والحاصل؛ أن رفضَ الأسباب تمامًا إنما هو محضُ انحرافٍ، وربطَ كلِّ شيءٍ بالأسباب وتجاهلَ مسبِّبِ الأسباب بدعوى أنه: "لا شيء بلا سبب" انحرافٌ آخر في عقيدة التوحيد، أما منهجُنا نحن فهو القبولُ بأن خلق النتيجة من عند الله، مع القيام بكلِّ شيءٍ عملًا بالأسباب.

إننا نقبل بأن إرادتنا خطٌّ اعتباري، ونقطة ومعلم افتراضي. أجل، إننا نؤمن بأن الحقّ تعالى يقرِّرُ أحكامه بحقّنا وفقًا لذلك الـمَعْلم الافتراضي، ويشكِّلُها فيما نضطلع به من أعمال وفقًا لذلك، وتأثيرُ الحقِّ تعالى في أفعالنا وتدخُّله عظيم لدرجة أنه يتعذَّرُ قياسه مع تأثيرنا نحن، وعلى حدِّ قول الأستاذ النورسي: "إن الإنسان بالبداهة هو أشرف الأسباب وأوسعها اختيارًا وأشملها تصرُّفًا في الأمور، وهو في أظهر أفعالِهِ الاختياريّة، كالأكل والكلام والفِكْرِ -التي يُعتبَرُ كلٌّ منها سلسلةً عجيبةً وفي غاية الانتظام والحكمة- ليس له نصيبٌ منها إلّا واحدًا من مائة جزءٍ من السلسلة"[131]، فالحركات والأنظمة الخارجة عن الإرادة، والتي تعمل من نفسِها بشكلٍ آليٍّ وتبدأُ وتتوقَّفُ عن العمل عند اللزوم داخل الإنسان أكثرُ من حركاته الإرادية.

ومن هذه الزاوية؛ فإننا إذا تناوَلْنا مسألةَ تناوُلِ طعامٍ بسيطٍ -على سبيل المثال- فإن الإنسان بالقوّة التي منَحَهَا الله تعالى له يتناولُ الشيءَ الذي أنبته الله تعالى وأوجده على الأرض التي خَلَقَهَا، والتربةِ التي أودع القوة الإنباتية في باطنها، مستخدمًا العقل واليد والإصبع والفم الذي وهبه الله تعالى إياه، فإن تم التفكير في كل هذه الأمور فكم يا تُرى تكون نسبةُ حصّة الإنسان في هذه الأفعال؟ كذلك من

---

131 بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الكلمات**، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثاني، المقصد الأول، ص 708.

ذا الذي وهَبَنَا الفمَ الذي نضع فيه اللقمة ونمضغها، وجهَّزَ أنسجةَ البصاق في إطار نظامٍ ممتازٍ؟ ومن ذا الذي يُرسل ويحرّك الإشارات إلى المعدة بينما نمضغ اللقمة في أفواهنا ونطحنها، ومن الذي يُشغل آليّة الهضم؟

أجل، عندما يستجمِعُ الإنسانُ كلَّ هذه الأمور وينظر إليها بعين العبرة يرى أنه لا يصيبه ولو حتى العُشر في مسألة تناول طعامٍ كهذه، في حين أنه عندما يتحدّث عن هذه الأفعال يستخدم عبارات مثل: "أنا أكلت"، و"أنا جلست"، و"أنا نهضت"، "أنا... أنا..."، وبما أن ظاهر الأمر يقتضي تناول الأحداث على هذا النحو فربما يلتمس الله تعالى العذر لعباده، ويعفو عنهم، بيد أنه يتضح عند التطرق إلى تفرّعات المسائل أن كلّ واحدة من جُملِ: "أنا أكلت" و"أنا جلست" و"أنا نهضت" عبارات ملفوظة دون تفكير ورويّة.

وبالعودةِ إلى مضمونِ السؤالِ من جديد؛ فإنَّ عزوَنا حتى الأحداث البسيطة إلى أنفسنا استنادًا إلى إرادتنا أمرٌ غريبٌ وخاطئٌ؛ وإذا كان هذا خاطئًا وغريبًا فإن من الخطإ المحضِ بنفسِ القدرِ وربما أكثر؛ أن ننسبَ النتائج التي تترتب على تصرّفاتنا إلى أنفسنا في مسألةٍ مهمة جدًّا مثل: "الخدمة"؛ لأن النظام في مسألة الطعام والشراب واضحٌ، غير أن قضايا غرسِ الإيمان في قلوب الناس، بل وإثارته في قلوبهم حوادثُ غريبة وغامضة وساحرة تجري فيما وراء عالم الطبيعة، إلى حدٍّ لا يمكن أن يدّعي الإنسان أن له دخلًا فيها.

ووظيفة إزاحة الموانع التي بين الخلقِ والخالق تتمحورُ حول العناية الإلهية، غير أنها خدمةٌ إيمانيةُ الهدفِ، ولذلك فإن الحقَّ تعالى يُنعم ويَمُنُّ بنجاحات تفوقُ أُطُرَ الأسباب وقواعدها، بحيث يتبين لنا عندما ننظر إلى مختلَفِ تلك النعم والألطاف أن كلَّ مسألة تتمُّ إنّما تتمّ بالعناية ليس إلا.

فبدهي أن "الرعاية" أي المشاهدة والمتابعة تُحيطُ بالخدمات المنجزة كما تحيط بها العناية، وأن هناك من يراقب هذين ويديرهما بخلافنا، فهذا الطريق مثلًا: "هو نهرٌ من الدماء والصديد، كثيرُ المنازل، عديمُ المعابر"، وقد واجه سالكوه -وفي مقدمتهم الأنبياء (عليهم السلام)- آلافَ العراقيل وهم يسيرون فيه، أما بالنسبة لنا فمن المسلَّم به أن ما بَذَلْنَاه من سعيٍ وجهدٍ في مواجهة كثير من الخصومات التي ظهرت لنا قد أثمر ثمرَتَه، وهذا يُظهر أننا تحت عنايةٍ ورعايةٍ إلهية واضحةٍ وصريحةٍ، وأننا نحظى بتجلي سرِّ **(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 173/3)، و"**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**".

غير أن الفوز برعايةٍ وعنايةٍ كهذه يلزمه مجموعةٌ من الأسباب في نطاق الشرط العادي؛ لأن حتى ذي القرنين (عليه السلام) لم يترك الأسباب والعمل بها وهو ينسج الفتوحات الخارقة، وقولُ ربنا سبحانه **(فَأَتْبَعَ سَبَبًا)** (سورة الْكَهْفِ: 85/18)، **(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)** (سورة الْكَهْفِ: 89/18)؛ يشير إلى هذا الفهمِ والمنطِقِ العالي عند ذي القرنين (عليه السلام)، إذن بما أنَّ الأنبياء كلُّهم كانوا يأخذون بالأسباب فليسَ من المتصوَّرِ أن نتحرَّكَ نحنُ دون أخذٍ بها.

وقد تكون الأسباب ماديّة أو معنويّة، وبعد الأَخْذِ بالأسبابِ الماديّة كاملة وتحقيقها يتوجّب علينا أن نتوجّه إلى الله دائمًا ونواصلَ علاقتنا به تعالى؛ فهو الذي أنعمَ علينا بتلك العناية باسم الأسباب المعنويّة كي تستمرّ وتدوم خدمتُنا التي تحفُّها العناية الإلهيّة.

أجل، إن التوجُّهَ إليه تعالى أوَّلًا شيءٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأن المشكلات والأعمال الكبرى التي تبدو وكأنها لا تُنجز يستحيل أن تتحقَّقَ إلا بالتوجُّهِ إليه هو فحسب، ولذلك يشترط التوجهُ إلى من لا حدّ لقدرَتِهِ من أجل تحقيق كلِّ أفكارنا المثالية التي نَعُدُّها عظيمة، والتوجّه يتحقق نوعًا ما بالصبر والصلاة، وثمة تلازم بين هذين الأمرين في الأصل؛ يعني أنهما كشقين لا ينفصلان عن بعضهما؛ وذلك لأن الصلاة هي أكبر عمل بعد الإيمان يمكن القيام به تحت عنوان العبودية لله تعالى. أجل، الصلاة عبادة تجمع كل العبادات المالية والبدنية، كما يمكن أن نشهد فيها نواة بعض العبادات كالحج والصوم والزكاة، غير أن هذا يسري على الصلاة المؤداة حق الأداء، فليُنتَبَهْ إلى ذلك؛ إذ الصلاة عبادة خالصة بكلّ ما فيها، ووسيلةٌ وحيدةٌ من أجلِ العروج إلى السَّماءِ، ثم إنها هديّةٌ إلهيّةٌ مُنِحَتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المحطّة الأعلى من رحلة المعراجِ السماويّة.

لقد عرج سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلى بروح "قاب قوسين"، وفي ذلك المقام الذي عاش فيه فوق الأسباب نال هدية الصلاة التي ظلَّ طيلةَ حياتِهِ يؤدّيها على الوجهِ الأكمل، ومن الجدير بالاهتمام أن الصلاة فقط دون غيرها من الفروضِ أُهديت له خمس مرات في اليوم؛ وذلك لأنها مرتبطة برسالة الرسول تمام الارتباط. أجل، إن مهمته صلى الله عليه وسلم هي الوصول إلى ما عَجَزَ البشرُ عن الوصول إليه من مراتب، وتذوّق متعة القرب، ثمّ العودة بعدَ ذلك وتحديث الآخرين بالحقائق التي شعرَ بها وتذوَّقَها، وحملُهم أيضًا إلى تلك التلال الزمردية، إذًا فالصلاة هي هديةُ المعراج الأساسية، وهي في الوقت نفسه معراجٌ حلزونيٌّ نورانيٌّ خاصّ بالمؤمنين، ولهذا فربما ما كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم لِيَسْعَدَ ويُسَرَّ إن وُهِبَ له مليون جنّة بقدر السرور والسعادة التي شعر بها لمنحه هذا المعراج النوراني الذي يُمَدُّ تحت أقدام الآخرين.

أجل، إن الصلاةَ هديّةٌ كبرى؛ حتى إن كلًّا يحظى بنصيبه من هذه الهدية المقدسة بقدر حضورِهِ وإتقانِهِ، إذًا يلزم طلب عبادة عظيمة كهذه للفوز بتلك العناية والرعاية، فإذا كنا نبتغي صلاةً نؤدّيها على الوجه الأكمل فإن الصلواتِ التي سنؤديها حتى نبلُغَ تلك اللحظة التي ندرك فيها الصلاة بالمعنى الذي نوينا أداءها به ستكون -إن شاء الله تعالى- مقبولةً، لأن **"نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ"**[132].

والأساسُ الثاني في طلب عناية الله تعالى هو "الصبر"، والواقع أنه للحصول على عناية كتلك لا بد من الصبر من أجل الصلاة التي قدمناها على أنها الأساس الأول، ومن أجل السعي في دنيا الأسباب المادية أيضًا، ولا أريدُ أن أُطيلَ الحديث عن مسألة الصبر هذه الخفيّةِ من شدّةِ وضوحها؛ حيث تناولناها مرّات كثيرة وعديدة حتى الآن.

أجل، إن هذا السبيل يتطلّبُ صبرًا لا ملَلَ دونه؛ صبرًا على العبادةِ والطاعة... صبرًا على مواصلةِ العبوديّة برغم ثِقَلِ الظروفِ ووطأتِها... صبرًا -في انتظارِ يومِ المكافأةِ الربّانيّة- على تباطؤ الزمان الذي قد يوصل الإنسان إلى حدِّ الجنون...

وهكذا فإن الصبرَ والصلاةَ يتماثلان في موضعٍ ما، وسبيلُ طَلَبِ عنايةِ الله تعالى ومنهجه هو متابعة الخدمات بصبرٍ، وتحرِّي الخشوعِ من خلال الصلاة، وإعمالُ الفكرِ في المحبوب الحقيقيّ الذي هو الله جلَّ جلاله، وتفضيلُه على كلِّ شيءٍ.

---

[132] البيهقي: **شعب الإيمان**، 176/9.

الإنسان في مواجهة المشاكل والأزمات

سؤال: تقولون إن"كل قضية تتعلّق بمصير أمَّتنا ترتبطُ ببعض الأشخاص ارتباطًا مباشرًا" فكيف ترون بلدَنا ومستقبلَهُ، وهو يواجه العديد من المشكلات وفي مقدِّمتها المشكلاتُ السياسيّة والاقتصادية؟

الجواب: حاولتُ في مناسبات مختلفة أن أُبيِّنَ كيف أرى مستقبل أمتنا وبلدنا، ولطالما تكلمت وكتبتُ عن الأمل ردًّا على اليأس والقنوط الذي يعتري الكثيرين في هذا الموضوع، وأرى أن أنوّه هنا بمسألة مختلفة بدلًا من تكرار ذلك مجدَّدًا، إنني أرى أنه يلزم على كلِّ فردٍ البحثُ عن المستقبل بأحاسيسه ومنطِقِهِ وإدراكه ووعيه الخاص... وعليه أن ينظرَ على الأكثر إلى سعةِ وعمقِ أفكاره الشخصيّة؛ عليه أن ينظر وألا ينسى أبدًا: أن شعبَ هذا البلد هو من سيحملُها إلى المستقبَلِ، ومن ثمّ فإن انتظارَ أن يأتي غيرُنا ويحيونَنا سذاجةٌ أكثر من كونها انخداعًا، وما أجمل ما يقول "محمد عاكف"[133]:

أسكت أيها المجنون! فَسَيرُ الكون المعتادِ لا يتوقَّف.

ماذا ظننتَ؟ هل تسمعُ قوانينُ الفطرةِ الصرخةَ فتتلطَّف؟!

اليوم، عليك ألا تطلب المددَ إلا من نفسك باجتهادك

فانهض وارفع الظلم بسعيك أنت وإقدامك

وانظر كيف تنقادُ الدنيا بإذعانٍ لقانون سَعْيِك!

ماذا فعلت! وهناك **(لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)** (سورة النَّجْمِ: 39/53) *بانتظارك!؟*

أجل، إنكم مضطرُّون للعمل دائمًا إن كنتم تريدون أن تعيشوا حياةً تُوافِقُ عالمكم الفكريَّ والإيمانيّ، وأن تُقَدِّموها هديّة إلى الإنسانية، فهذه وظيفةٌ خاصّةٌ بنا، فإن أدَّيناها بحقٍّ فسوف نرى جميعًا -إن كان في العمر بقيّة- ماذا سيُنعِمُ الله تعالى به علينا.

وثمة أمرٌ آخر ذكرناه من قبلُ ونوَّه به السؤال؛ وهو "أن أيَّ حادثةٍ تتعلَّق بمصير أمّتنا، تُصِيبُ بعضَ الأشخاص بالهمّ أيضًا"... أجل، هذا صحيحٌ، بيد أن هذه مسألة ذاتيّة، فهؤلاء يَظلّون يتألّمون ويتلوّون حزنًا عند كلِّ حادثةٍ سلبيّة تلحقُ المجتمعَ طِوال حياتهم، وهذه الحالةُ التي يُمكن وصفُها بأنها حالةٌ تفوق الروحُ فيها

---

133 **محمد عاكف** (1873-1936م): من أكبر شعراء الأدب التركي المعاصر، إنه رجلُ فكرٍ ومعرفة، وإن كتاباته وترجماته لتحفل بالفوائد الجمة والخدمات الكثيرة، التحق بحركة الاستقلال، وانتخب نائبًا في البرلمان في أنقرة، أصبحت إحدى قصائده النشيد الوطني التركي، اشتهر بديوانه الشعري "صفحات".

الزمانَ ليست خاصّةً بأشخاص بعينِهم فحسب، وفي السابق فإنّ كلُّ شخصٍ رَبَطَ بين مختلَفِ الثورات وعالمه الفكريّ الخاص قد عاشَ هذه الحالةَ الروحيةَ نفسها، فظهرت على شكل أمراضٍ مادّيّة؛ فمثلًا؛ مثلما يستطيع الكثيرُ من الناس الذين يعانون آلامًا في رُكَبِهِمُ الإحساسَ مسبقًا بهطول المطر قبل نزوله كمقياس الضغط الجوي، فإن إنسانا كبديع الزمان الذي كان "همُّه أمَّتَه"؛ كان يستطيع أن يشعرَ تلقائيًّا بكثيرٍ من الأشياء المتعلّقة بمصير خدمتِهِ، وأن يضبطَ تصرُّفاته وفقًا لذلك.

إنَّ أمثاله ممّن نفديهم بأرواحنا يتأثّرون ويتألّمون انزعاجًا حين يشعرون بالحوادث التي يمكن أن تظهر مآلًا، خوفًا من عدم القدرة على الوفاء بهذه الوظيفة العظيمة؛ أي قلقًا من ألا تنهضَ الكوادر الحاليّة بقضيّة أمتها؛ فلا يستطيعون أن يجعلوها تُعبّر عن نفسها مجدّدا.

أما بالنسبة للمشكلات السياسيّة والاقتصاديّة؛ فهذه المشكلات وما شابهها لم تختفِ قطُّ على مرِّ تاريخ الإنسانية، فقد عرفت الدنيا المشكلات مع بني آدم، وحلّتْ أولى المشكلات على الأرض مع هبوط أول إنسان عليها، وقد بدأ تاريخُ المشكلات مع هبوط سيدنا آدم إلى الأرض، والحقيقة أنه لم تكن ثمة مشكلة لدى الديناصورات والأفيال ووحيدي القرن قبل مجيءِ آدم عليه السلام.. ولم يكن ثمّة مشكلة بين عُشبٍ وشجر، وما أن خُلِقَ سيدنا آدم عليه السلام حتى بدأ العديد من المشكلات في عقبه، غير أنه لا بدَّ من التذكير مجدَّدًا بأنَّ هذه المشكلة كانت بالقدر المسموح به في إطار الرسالة ويمكن النظر إليها من قَبيل: "حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ"[134]، ثم أرسل الله تعالى المرسلين إلى الأرض للقضاء على هذه المشكلات، فسعوا إلى حلِّها والقضاء عليها رغبةً في رفع الإنسان إلى سماء الإنسانيّة بواسطة الدين والتعليم والثقافة.

إن التخبُّطَ الحادِثَ في عصرنا يكمن في السعي إلى إزالة المشكلات الاقتصاديّة والسياسيّة والإداريّة والاجتماعية قبل الوصول إلى حلٍّ للمشكلات المتعلّقة بذاتِ الإنسان، بيدَ أنه لا يمكنُ إزالةُ هذه المشكلات ما لم يُصبح الإنسان بالمستوى الذي حدَّده القرآنُ الكريم، فطالما كان الإنسان ذاتُه مشكلةً، ويحمل جراثيم كجرثومة الإيدز؛ فسوف يتعذَّرُ القضاء على هذه المشكلات، وسوف ينقلها الإنسان إلى بني جنسه، وقد يعديهم ويمرضهم في كلّ وقت وحين.

---

134 انظر: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 454/5؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، 137/5.

وفي رأيي فإن حلّ جميع المشكلات لا يتحقَّقُ إلا على أيدي من تخلَّصَ من المشاكل؛ على يد وفكرِ وسعي وجهدِ أناسٍ حلّوا مشاكلهم الشخصيّة وتجاوزوها، واستطاعوا التغلُّبَ على كلّ عناصر الامتحان؛ وذلك لأن الفردَ إن عجزَ عن تجاوز مشكلاته الشخصيّة وتخطّيها فهذا يعني أنه هو بحدِّ ذاته مشكلةٌ، وبالتالي تنجم عنه شخصيًّا المشكلاتُ السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي في المجتمع.

وإنني شخصيًّا أعتقدُ أنَّ من سيمثّلُ هذه المهمّة هم رجالُ الحقِّ الذين يستطيعون تحمُّلَ كلِّ أنواع المشقّات في سبيل الله تعالى؛ والأحرى أنني أريدُ الإيمان بهذا؛ فهل نحن في هذه المرحلة الآن؟ إنني لا أستطيع قولَ شيءٍ أكيد، إن تستطيعوا تأكيدَ اجتيازكم قطعًا لِشتى المشكِلات إِذَنْ أستطيعُ أنا أيضًا أن أبوحَ ببشارتي الخاصّة بحلِّ المشكلات؛ فهل يا تُرى فعلًا استطعتُم حلَّ مشاكل حياتكم العائليّة والأسرية؟ هل تستطيعون حقًّا أن تقولوا: "ما دمتُ قد ربّيتهم تربيةً سليمةً؛ فليس من المهمّ أن أتركَ لهم مالًا ولا ثروةً؛ المهمُّ سلامةُ الأمّة، ليعملْ الواحد منهم ولو حمَّالًا في مكانٍ ما ويسعى، ويكفي نفسه مؤونتَها؟ هل بإمكانكم أن تقولوا: لا فرقَ بين أن يكون كسبي كثيرًا أو قليلًا ما دام حلالًا! إنني أبيع الكعك، أو أبيع الصحفَ في مكان ما، فأكسب وأحافظ على شرفي؛ فهذا يكفيني"؛ والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ ومتعدّدة.

وهكذا فإن كنتم تجاوزتم أنفسكم في مثل هذه المواضيع؛ فسعيتم مسلِّمين الأمرَ إلى الله تعالى، بل لو أن هذا التسليم تجلّى لديكم في شكل التوكُّلِ على الله، وتحوّلَ توكُّلُكُم إلى التفويض فإن هذا يعني أنكم مُرَشَّحون لحلِّ جميع مشكلات المجتمع، ووجودُ مجتمعٍ يتشكَّلُ من أمثال هؤلاء الأفراد حُسْنُ طالعٍ بالنسبة للإنسانيّة بِأَسْرِها؛ ولذلك فإنني إن لاقيتُ مجتمعًا كهذا قلت لأربابِهِ: "سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ الله"؛ أي "سيروا على وجه البسيطة ببركة الله تعالى وانتشِروا فيها، وأحيوا كلَّ مكانٍ تمرُّون به بأنفاسٍ كأنفاسِ المسيح عيسى عليه السلام!".

خلاصةُ القول: أن المهمّة الأصلية لِسُعداءِ الحظِّ الذين نذروا أنفسَهم للإنسانيّة هي حلُّ المشكلات التي عرفتها الدنيا مع هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، فيُخطِّطون لِحَلِّ كلِّ مشكلات الحياة في شتى مجالاتها: الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية... ثمّ ينفِّذون هذه الخطط على أرضِ الواقِعِ.

وختامًا فإنَّ مرمى قولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم: **"كَمَا تَكُونُوا يُولَّى عَلَيْكُم"**[135]؛ يعني أن هذا هو ما نستحقه من الناحية الاقتصادية والسياسيّة؛ حيث إن التقدير الإلهي بحقِّنا يتجلّى على هذا النحو، إذن علينا ألا نبحثَ عن المشكلات في خارجنا! فهي كامنة في داخلنا، وحين نحلّ المشكلات التي بداخلنا، ونوفّق إلى ذلك تُحَلُّ جميع المشكلات التي في الخارج تباعًا واحدة تلوَ الأخرى، فلا يرتابنَّ أحدٌ ولا يشكَّنَّ في ذلك...

[135] البيهقي: **شعب الإيمان**، 492/9؛ القضاعي: **مسند الشهاب**، 336/1؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، 305/3.

الأصول والفروع، وقضيّة الحجاب

سؤال: نعلمُ أنكم تناولتم قضيَّةَ الحجاب بمفهومٍ مختلِفٍ عند الحديث عن الأصول والفروع في الإسلام؛ فهل يمكنُ توضيحُ هذا الأمرِ بشكلٍ أكبر؟

الجواب: تُدرَسُ الأمورُ المنوطة بالمكلفين عقيدةً وعملًا في الدين الإسلامي على قسمين مختلفين هما: الأصول والفروع، والأسس ذات الأهمية القصوى من هذين هي تلك الأمور التي تندرج في فئة الأصول... أما بالنسبة للفروع فتُبْنَى دائمًا على تلك الأصول، ومن هذه الناحية يتسنّى القولُ: إن الحديث بشكلٍ منظّم عن الفروع لا يمكن أن يتحقَّقَ حيث تنتفي الأصول.

ووفقًا لهذا فإن سائرَ أركان الإيمان -وفي مقدمتها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"- أصولٌ في عقيدتنا الإسلامية، وهذه الأركان يُمكنُ إرجاعُها إلى أربعةِ أصول حَسبَ فَهمِ المحققين هي: الإيمان بالله، وبالآخرة، وبالأنبياء، والعبودية أو العدالة.

فالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من العبادات هي أعمالٌ مبنية على هذه الأصول، وفروعٌ بالنسبة للأصل، غير أن هذا لا يُفْهَمُ من كلمةِ "فروع" بأنه: "لا ضَيْرَ إن لم تُؤْتَ"؛ فكونُ هذه الأمور فروعًا ناتجٌ عن علاقَتِها بالأصلِ، ومقارنتِهما ببعضِهما، وباعتبار التقسيم والتصنيف الواردِ أعلاه تمامًا، وإلا فغنيٌّ عن البيان أن الإيمان بدون عبادةٍ ناقصٌ.

وحين ندرس قضية الحجاب في إطارِ هذه الأسسِ نرى أنه فُرض في العام السابع أو الثامن من الهجرة؛ أي في العام العشرين من الرسالة النبوية؛ وهذا يعني أن النساء في العِقدين الأوّلين من الإسلام كنَّ لا زِلْنَ يرتدين ملابسهنّ التي كُنَّ يرتدينها في العصرِ الجاهليّ.

وأهم ما يلفت الانتباه هنا من حيث الحكمةُ في التشريع هو أن إعطاءَ المسائلِ أولويّةً، وتقديمها على غيرها أو تأخيرَها في التشريع إنما يكون حسب أهمِّيَّتِها، وعلى هذا فقد أُعطيت الأولويّةُ لِغَرْسِ حقيقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في القلوب؛ لأنها أهم مسألة، وكلُّ الآيات التي نزلت في العهد المكي الذي دام ثلاثةَ عشرَ عامًا، والتبليغُ النبويّ بشقَّيهِ المَتْلُوِّ وغير المَتْلُوِّ كان يدور حول هذا الموضوع.

إذًا يتوجَّبُ علينا نحن كذلك أن نلفتَ الأنظارَ في التبليغِ والإرشاد -على الأكثر- إلى هذه النقطة المهمّة للغاية، فاستعظامُ ما استعظمه الله تعالى من أشياء،

واستصغارُ ما استصغره تعالى من أشياء أيضًا إنما ذلك مِنْ تقوى القلوب، والواقعُ أن هذا الأمر قاعدةٌ أساسيّةٌ من قواعدِ الدين الإسلامي المبين؛ إذ إنّ قبولَ الأشياء التي وضعها الله تعالى في إطار معاييرها الخاصّة بها، وتفعيلها في الحياة علامةٌ مهمّةٌ على الإيمان بالله والارتباطِ به.

ويجب ألا تُقدَّم قضيةُ الحجاب على الإيمان والحقائق الإيمانية، مع أنها مسألة لا تقبل النقاشَ بحسب ما تقتضيه فرضيّتها، فلا يصحّ قصرُ الحجاب على أنماط وأشكال محدّدَةٍ بعينها مع الأخذ في الاعتبار بأن كيفية الحجاب محفوظة ومعلومة؛ إذ الحجابُ شيءٌ والملحفة والطرحة أشياء أخرى، ولا شكَّ أن الملحفة أسلوبٌ من أساليب التستُّر، وهو نوع من أنواع الملابس التي شُرِع في استخدامها في بعض المناطق إبّان العصر العثماني، ويرجع ماضيها إلى تاريخ قريبٍ لا يتجاوز بضعةَ قرون، بل إن من الحقائق المعروفة أنَّ الملحفة في الوقت الذي كانت تستخدم فيه في بعض المناطق لم تكن تُستخدم في بعض المدنِ المركزيّة كدمشقَ وبغداد، فإذا كانت الحقيقة على هذا النحوِ؛ فإن الوقوفَ على نوعيّة التستُّرِ كما يُوقَفُ على المسائل الإيمانية، والنظرَ إليه باعتباره أصلًا لكلِّ شيءٍ؛ إنما يعني قلبَ الترتيبِ الإلهيّ في الأوامر الدينية رأسًا على عقبٍ، وعلى الرغمِ من أنَّ هذه المسألة ليست أصلًا في الدين إلا أنّها منافية للاعتدال الكامن في روح الدين باعتبار طرحِها على الساحة في الفترات اللاحقة وكأنها أصلٌ من أصول الاعتقاد.

بالإضافة إلى ذلك أريدُ أن أُبيِّنَ تقييمي الشخصي لمسألةِ تفسيرِ التستُّرِ والحجاب بأزياء معيّنة، حتى وإن لم يُعتَبَر تقييمًا موضوعيًّا.. فينبغي أن يكون المسلمُ في طعامِهِ وشرابِهِ، وفي قيامِهِ وقعودِهِ، ومنزلِهِ وشارعهِ وسوقِهِ على نحوٍ يعكسُ ذوقَهُ الفنّيّ، وظرافةَ روحِهِ، ورقّة قلبه، وعند النظر إلى بعض الملابس بنظرة عادية قد يصعب فهم ما فيها من ذوق جمالي.

إذًا نستطيع نحن المكلفين بالامتثال لأمر الحجاب في حياتنا أن نختارَ بإرادتنا الشخصية أيَّ طَرْزٍ من الملابس؛ سواء كان معطفًا أو ملاءةً أو عباءة، لونه أحمر أو أزرق أو أصفر أو أخضر... إلخ، بشرط عدم الخروج عن الضوابط التي وضعها الدين، أما الاتجاهُ نحو نمطٍ واحدٍ في هذه المسألة يعني قتلَ المرونة الكامنة في روح الدين؛ ومن ثم قَتلَ عالميَّتِهِ، ناهيك عن أنَّ ثمة جمالًا من نوع خاصّ يكمُنُ في التنوُّع... ولقد كان قديمًا جميعُ من في الصين يرتدون قميصًا بلا ياقة بما في

ذلك "ماو (Mao)"[136].. وكانوا بأحوالهم هذه يَبدون بمظهرٍ قبيحٍ؛ إذ إنّ الحياةَ تسيرُ وفقًا لمعيارٍ ونمطٍ محدَّدٍ كهذا، والزجُّ بها في بعض القوالب يعني في الوقت نفسه تصعيبَ الأمرِ على العامة، وهذا مناقضٌ لروحِ التيسير في الإسلام.

ومن جانب آخر فإن بعضَ ذوي المفاهيم الخاطئة تستفزهم -للأسف- بعضُ الأزياء والملابس استفزازًا لا يمكنُ للكلمات أن تُعبّرَ عنه، وعدمُ استفزازِ الآخرين ممن لا يعرفون شيئًا عن ديننا ركنٌ ركينٌ من صميم الدين، وإلّا فإن بعض الأشخاص الذين يمتلكون النفوذ والقوّة قد لا يسمحون بممارسة الأصول وإحيائِها، وليسَ الفروع فحسب، وبالنظر إلى العصر القريب نجدُ تاريخنا حافلًا بأمثلة كثيرة من هذا.

حاصل القول إن شرح المسائل المتعلّقة بالأصول والولوج إلى كلِّ وحدةٍ من وحدات الحياة في عصرِنا الذي يحتاج بشدَّةٍ إلى أن تطمئنَّ القلوب بالإيمان، والتعثُّرَ في القضايا غيرِ الأصوليّة، في إطار المقاييسِ التي عرضنا لها آنفًا، ربما يؤدِّي إلى أن يصبحَ المؤمنون أيضًا، وليس غيرهم فحسب جبهةً معارضة، ولذلك فإننا مطالَبونَ بأن نُذكِّرَ من جديدٍ أنَّنا مضطرُّون لِفَهْمِ الحقائق الإسلامية ومعايشتِها وتوضيحها دون أن نتجاهل الحقائق والواقع، ونكون على وعيٍ بظروفِ عصرِنا.

---

[136] **"ماو تونغ** (Mao Zedong)" (1893-1976م): زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ (1935م) حتى وفاته، كان سياسيًّا وقائدًا عسكريًّا صينيًّا.

خواطر حول آية (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا)

سؤال:نعلم أن نظرتكم إلى فاجعة البوسنة والهرسك[137] مختلفة انطلاقًا من الآية: (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) (سورة الأَعْرَافِ: 155/7)؛ فهلّا توضّحون فكرتكم هذه بمزيدٍ من التفصيل؟

الجواب: باديَ ذي بدءٍ لا بدّ من إيضاح سببِ نزولِ الآية الكريمة التي ذكرتموها في السؤال، فعلى الرغم من أن قوم موسى عليه السلام رأوا عشرات المعجزات على يديه نفسه، ونجوا من ظلم فرعون، وغُذّوا بالموائد السماوية فإنهم لمَّا صعد موسى (عليه السلام) جبلَ الطور لملاقاة ربه اتخذوا العجل وقالوا: "ذهب موسى، ولم يرجع.." فنادى موسى ربَّه في مواجهة فعل قومه قائلًا: **(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا)** (سورة الأَعْرَافِ: 155/7)؛ غير أن نزول الآية بشأن حادثة بعينها وإخبارها بواقعةٍ معيّنة لا يمنعُ من أن يفيد معناها العمومَ؛ إذ "العبرةُ بعموم اللفظِ لا بخصوصِ السبب"، وبهذا فثمة دروسٌ وعبرٌ أخذها البشر منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا، وستأخذُها أيضًا الأجيالُ المتعاقبةُ إلى القيامة؛ وهذا ما تقتضيه عالميّةُ القرآن.

وعليه فهناك الكثيرُ من الأشخاص تركوا الطريق المؤدّية إلى الهداية، وانحرفوا إلى الضلال؛ ليس في قوم موسى عليه السلام فحسب، بل ومنذ آدم حتى نوح عليهما السلام، ومنه حتى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فأشبهوا بضلالهم هذا من يتعجّل قدوم المصائب السماوية والأرضية، وإنني شخصيًّا لأنظرُ أحيانًا بهذه النظرة إلى الحوادث الجارية في الآونة الأخيرة في بلاد وسط آسيا، وفي البلقان، والمناطق التي يعيش فيها المسلمون؛ وأقيّمها من تلك الزاوية، حتى إنني كلما دعوتُ ربي لهم خَطَرَتْ ببالي هذه الملاحظة فأرتجفُ وأرتعشُ، وأتلوّى قلقًا منها قائلًا في نفسي: "لا رحمة تفوق الرحمة الإلهيّة".

أجل، ربما تغيرت في الآونة الراهنة الأوضاعُ التي كانت في سنوات اندلاع الحروب، فالأحوال في تغيُّرٍ دائم، فإن لم تكن لأولئك الناس علاقة -لا من قريب ولا من بعيد- بالإسلام، وبالتديُّن؛ أي بتطبيق أوامره ونواهيه في حيواتهم، بل لو أنَّ بعضَ هؤلاء يفرون من الصيانة والحماية الإلهية، ولا يلجؤون إلى الحصن الإلهي، ولا يسعَون لأن يكونوا جديرين برحمة ربي، أفلا تكون أحوالي هذه التي

---

[137] حرب "البوسنة والهرسك" هي عملية نزاع دولي مسلح حدثت في البوسنة والهرسك من مارس (1992م) حتى نوفمبر (1995م)، وحسب قول محكمة الجزاء الدولية في يوغسلافيا، فأطراف الصراع هي البوسنة والهرسك وجمهورية يوغوسلافيا وكرواتيا.

أتحرَّقُ وأتلهَّف فيها سوءَ أدبٍ مع الله؟ ليت أحدهم يجيبني فيقول لي من فوره: "لا، ليست سوء أدب...!"، إنني سأظل أدعو الله لهم -إن قيل ذلك أو لم يُقَلْ- قائلًا: "إلهي! اللهم اهدِ قلوب هؤلاء.. وألحقهم بالمقبولين الصالحين.. وارفعهم إلى مستوى الأشخاص الذين يستطيعون جلب مرحمتك، ويليقون بها". أجل، إن مجرَّدَ اكتسابِ هؤلاء الناس الرحمةَ الإلهيّة كخطوة أولى أمرٌ في غاية الأهمّيّة، فليفوزا بالرحمة الإلهية، وبعدها: "لِنَرَ ماذا يفعل المولى، فكلّ ما يفعله جميل".

وأرى أن ثمة فائدة في توضيح أمرٍ آخر هنا، ألا وهو أن البعضَ يقولون إزاءَ هذه الفكرة: "إننا نشاهد هذا في قنوات التلفزة، إن هؤلاء الناس الذين يعيشون في مختلف أنحاء الدنيا دائمًا ما ينطقون بـ"الإسلام"، وليس بوسعنا أن نقول شيئًا على هذا؛ إلا أن ثمة حقائق عملية أهمّ من المظاهر الشكليّة؛ فالشكليّاتُ والمظاهرُ الثانويّة مثلًا مهما حافظَ عليها الإنسانُ وتمسَّكَ بها فإنّها تبقى تافهةً ولا قيمةَ لها إذا فرَّطَ بالصلاة، فهناك الكثيرُ من المسائل الفرعيّة شُرعت بعد الهجرة، بينما كانت الصلاةُ في صدرِ الشعائرِ الدينيّة؛ حتى إن النسوةَ صلَّينَ وصمنَ وبعضهنّ حاسرات الرؤوس؛ إذ إن تشريعَ الحجابِ لم يكن قد جاءَ الأمرُ به إلا لاحقًا لِحِكَمٍ إلهيّة، وكذلك مسألةُ الربا؛ فهو من التكليفات التي حُرّمت تحريمًا قطعيًّا أثناء حجة الوداع[138]، أما بالنسبة للصلاة فكانت موجودة -ربما ليس بالشكل الحالي- قبل فرض الصلاة وفقًا لِبعض الروايات[139]، إذ كان يُعمَلُ ببقيّةِ دينِ إبراهيم عليه السلام في تلك الأيام، وكانت الصلاة تُؤدّى وفقًا لذلك[140]؛ لأن الصلاة تُعبِّرُ عن الطاعة والانقياد الموجود في طبيعة البشر للخالقِ الأعلى جلَّ جلاله.

والواقع أن الأمور ذاتها ساريةٌ بالنسبة لنا نحن أيضًا، فالوعيدُ الذي اشتَمَلَتْ عليه الآية الكريمة بسبب السفهاء الذين بيننا، يعني أشياء معيّنة بالنسبة لنا نحن أيضًا، والأصحُّ أنه لا بدَّ وأن يعني هذا الوعيد شيئًا بالنسبة لنا؛ فينبغي أوَّلًا لمن تيقَّظُوا على الحقائق الإسلامية من البشر أن يتَّجِهوا لتبليغِ من حولهم من أمثال هؤلاء الناس وإرشادهم قبل أن تحُلَّ عليهم المصائب، فينبّهوهم إلى تلك الحقائق أيضًا، علينا ألا ننسى قول القرآن الكريم في إحدى آياته: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ**

---

[138] انظر: **صحيح مسلم**، الحج، 147؛ **سنن أبي داود**، المناسك، 56؛ **سنن ابن ماجه**، المناسك، 76، 84.

[139] **الموسوعة الفقهية الكويتيّة**، 52/27.

[140] ابن قتيبة: **تأويل مختلف الحديث**، ص 111.

الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (سورة الأَنْفَالِ: 25/8)أي إنها لا تصيب فريقًا دون فريق، بل تقضي عليكم جميعًا.

مفخرةُ الإنسانيّة محمد (صلى الله عليه وسلم)

سؤال: تقولون إن مفخرة الإنسانية: "وُلِد، وعاش، وارتحل إلى الآخرة وهو محافظٌ على ذاتيّته في كلِّ مراحلِ حياته"؛ فماذا يعني هذا؟

الجواب: يصعب عليّ حاليًّا أن أتذكَّرَ بوضوح ملاحظاتي بشأن هذه الجملة التي كنت قلتُها قبل سنوات، ولكنني سأحاول، وبقدر ما تسمح به حالتي الروحية أن أوضّحها أكثر حسبما يرد على ذهني، ودون أن أُتبِعَها لأيِّ تصنيف على الإطلاق.

كان "نجيب فاضل"[141] عندما يتحدّث عن مفخرة الإنسانيّة صلى الله عليه وسلم يقول: "إنه السبب في وجودنا" ومهما انتُقدت هذه الفكرة إذا ما أخضعناها لمعايير الحديث؛ إلا أن معناها مُستَلْهَمٌ من: **"لولاك ما خلقت الأفلاك"**، ولعلّ الصحيح هو **"لولاك مَا خلقت الْجنَّة ولولاك مَا خلقت الدُّنْيَا"**[142]. أجل، خلقَ الله الكون من أجله، وإن كان الكونُ كتابًا يتحدَّثُ عن الله -وهو كذلك بالفعل- فإن مترجمَه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولو لم يكن موجودًا لظلَّ كتابُ الكون هذا سرًّا لا سبيل إلى قراءتِهِ أو فهمِهِ، ومن ثم نعيش فيه، ولكن دون أن نعرفَ الله، أو نصل إليه، بيد أن الله خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ؛ **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (سورة الذَّارِيَاتِ: 56/51)، وعلى حدِّ تفسيرِ ابنِ عباس رضي الله عنهما ومجاهد "إلا ليعرفون"[143]، وهذا معنى **"كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي"**[144]، أي: فخلقت الخلق ليكون مرآةً أشاهِدُ فيها جمالي[145]، ولذا يمكن القول إن الوجود كان سيبقى مجهولًا، لو لم يكن سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، وكذلك فإننا لولا الحبيب المصطفى لما عرفنا الله وما قدرناه حق قدره.

وقد تحدَّث وأخبر عنه كلُّ نبي سبقه في حدود رسالته وإطارها، وعلى سبيل المثال، وكما ورد في كتاب الشِّفاء الشريف للعالم الأندلسي الكبير القاضي عياض[146]

---

[141] **"نجيب فاضل قيصه كُورَك"** (Necip Fazıl Kısakürek) (1904-1983م): من أشهر المفكرين والشعراء والكُتّاب الأتراك في القرن العشرين، لُقب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعِه في الشعر.

[142] الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، 671/2؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، 227/5.

[143] البغوي: **معالم التنزيل**، 288/4.

[144] الألوسي: **روح المعاني**، 48/8، 25/14.

[145] بديع الزمان سعيد النورسي: **إشارات الإعجاز**، 25.

[146] **القاضي عياض** (1083-1149م): عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، وكان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ومن تصانيفه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك" و"شرح صحيح مسلم" و"مشارق الأنوار" و"الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع". (الزركلي: **الأعلام**، 99/5) (بالتصرف)

أَنَّ آدَمَ (عليه السلام) عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ قَالَ: "اللَّهُمَّ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وتقبل تَوْبَتِي"، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: **"مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ محمدًا؟"**..، قال: "رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَنَّةِ مَكْتُوبًا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَيُرْوَى: مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَكْرَمُ خَلْقِكَ عَلَيْكَ"[147]، وكان سيدنا عيسى عليه السلام أكثر من تحدث عنه في الأنبياء، فقال في نسخ الإنجيل المتوفرة: "هناك الكثير جدًّا مما سأقوله لكم؛ غير أنكم لا تطيقون حمله الآن، فلأذهب أنا كي يأتي سيِّدُ العالم الحقيقي، وروحُ الحقيقة، الذي يفرق بين الحقِّ والباطل، ويشرح كل الحقائق"[148].

وقد أخبر عنه سيدنا عيسى عليه السلام بأنه "أحمد"، وبشَّرَ البشريّةَ به؛ (**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**) (سورة الصَّفِّ: 6/61)، وكان توفيقًا إلهيًّا أن سمَّاه جدُّه عبدُ المطلب محمَّدًا قائلًا: " أردت أن يحمده الله تعالى في السماء وخلقه في الأرض"[149]، وقد فصّل الأئمة العظام من أمثال الإمام الرباني في مسألة الحقيقة الأحمدية والحقيقة المحمديّة؛ إذ كان صلى الله عليه وسلم صاحب الحقيقة الأحمدية قبل أن يشرّف الأرض، ولذلك بشّر به عيسى عليه السلام وذكره باسم أحمد، ولقد كان سيد الأنبياء من حيث نبوّته ممثّلًا لـ"الحقيقة المحمّديّة"، ومع نهاية هذا التمثيل وصل إلى "الحقيقة الأحمدية" بالفعل، أو أنه حقَّقَ الحقيقة الأحمديّة بالفعل وعاد إلى عالم يكون فيه روحُ الوجود المشار إليه باسم " أحمد".

وقد كان مجيئه الدنيا مختلفًا وذا طابعٍ خاص؛ إذ وقعت إرهاصات كثيرة إبان ولادتِهِ، ومن ذلك ارتجاسُ إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة منه، وغيضُ بحيرة ساوة، وانتكاسُ بعض الأصنام في المعابد الوثنيّة بمكة، وخمودُ نار فارس مع أنّها لم تخمد قبل ذلك بألف عام[150].

لقد عاش طفولته صلى الله عليه وسلّم محافظًا على ذاتيَّتِهِ منذ مولدِه، وحظيَ بحماية خاصّة تماشيًا مع رسالته، ومن ذلك على سبيل المثال: "لما بنيت الكعبة؛ ذهبَ النبي صلى الله عليه وسلم وعمه العبّاس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي

---

147 القاضي عياض: **الشفاء**، 338/1.

148 انظر: الكتاب المقدس العهد الجديد، **يوحنا**، الباب 18، الجملة: 1-14.

149 ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، 81/3.

150 الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، 116/2؛ البيهقي: **الاعتقاد والهداية**، 256/1؛ **دلائل النبوّة**، 127/1؛ ابن كثير: **السيرة النبويّة**، 215/1؛ ابن سيد الناس: **عيون الأثر**، 35/1.

صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق، فقال: **"إزاري إزاري فشدَّ عليه إزاره"**[151].

لقد كان العرب في الجاهليّة لا يتورَّعون عن أفظعِ الأعمالِ وأشدّها إجرامًا، حتى إنّ أحدهم ليدسَّ ابنته في التراب ويَئِدُها خوفًا من العار أو من إملاق، قال تعالى: **(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ∃ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)** (سورة التَّكْوِيرِ: 8،9/81)، وقال أيضًا: **(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)** (سورة الأَنْعَامِ: 151/6)، ورغم كلِّ ما سبقَ فقد كانوا يتّسِمون بخصالٍ حميدةٍ؛ فالكرمُ والشجاعة مثلًا خصلتان في غاية الأهمّيّة عندهم، وقد تمّ تناولُ هذين الموضوعين كثيرًا في الشعر الجاهلي، كذلك كانوا متمكِّنين من اللغة، ولهذا كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: "أستطيع أن أُلْقِي ألفَ بيت من ابن أبي الصلت في مجلسٍ واحدٍ"، وكان "ابن عباس" يستطيعُ أن يأتيَ لكلِّ كلمةٍ من القرآن ببيتٍ أو شطرٍ من الشعرِ[152]، ثم إن الأمن بينهم كان مهمًّا جدًّا، لدرجة أنه إن تُرِكَتْ لديهم فتاة في عهدِ الزواج أمانةً ما مسَّها أحدٌ بِسوءٍ قطّ.

وقد برَّ صلى الله عليه وسلم الجميعَ في كلِّ هذا، وتميَّزَ عنهم بشكلٍ حقيقيٍّ، حتى لُقِّبَ بالصادق الأمين، وبالطبع فاقَ القرآنُ الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه كلَّ أنواع البلاغة والقول، وسبقَهَا جميعًا، حتى إن الأدباء لو اجتمعوا كلهم، وتعاونوا لما استطاعوا أن يأتوا بآيةٍ من مثله **(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)** (سورة الإِسْرَاءِ: 88/17). أجل، فقد كان معجزًا في الأسلوب، والأدب والبلاغة.

لقد شُرِّف صلى الله عليه وسلم بالمعراج في أكثر وقت تعرَّضَ فيه للأذى والجفاء، وانطلق برحلة من داخل الكون إلى ما وراءه، حتى إنه سبق -بعد نقطةٍ معيَّنةٍ- جبريل الذي كان يرشده، وواصل طريقه[153]، وقيل له: "سِرْ على بركة الله فكل شيء تحت تصرفك"، وقد ورد في كتاب "مخزن الأسرار" لـ"نظامي" هذه العبارات العميقة النابضة بالحيوية:

انتظمت النجوم وكأنها أحجار رصيف في طريقه

وكانت الملائكة في انتظار تشريفه

وظلتْ نصف شهر تحت أقدام حصانه

---

[151] **صحيح البخاري**، الحج، 42، مناقب الأنصار، 25؛ **صحيح مسلم**، الحيض، 77.

[152] انظر: الطبري: **تهذيب الآثار**، 663/2.

[153] القسطلاني: **المواهب اللدنيّة**، 482/2؛ نور الدين بن برهان الدين: **السيرة الحلبية**، 565/1.

ولجأت الشمس إلى مصدر ضيائه

ووفقًا لمعنى **"قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى"** الذي عبّرَ عنه القرآن الكريم؛ فقد وصلَ إلى نقطةٍ بين الإمكانِ والوجوبِ؛ وهو ما يعني أيضًا أنه كان إنسانًا يأكل ويشرب وينام، ويتجوّل في الشوارع، غير أنه وعلى حدِّ تعبير البوصيري:

محمد بشرٌ وليسَ كالبشر

بل هو ياقوتةٌ والناسُ كالحجر

ويمكننا توضيحُ هذا بتشبيهٍ شائعٍ فعلى سبيل المثال: إنَّ كلَّ من يمرُّ بجامع السليميّة يشعرُ في نفسه بمشاعر من نوعٍ خاص: فالمعماريُّ صاحبُ الذوق السليم ينتقِلُ من متعةٍ إلى أخرى أمام ما يشاهدهُ من فنّ، والراعي يشعرُ أمامه بأشياء خاصة به.. وإن سقنا مثالًا آخر قلنا: إن أصحاب التذوُّقِ الرفيع يُميّزون بين الأطعمة تمييزًا جيّدًا، وهم مختلفون عن الأشخاص العاديّين، وهكذا كان إحساسه صلوات ربي وسلامه عليه بكل شيءٍ مختلفًا تمامًا؛ كان بالنظر إلى منظره وبنيته الخارجية يشبه أمثالنا من البشر، غير أنه كان يعيش في أبعاد مختلفة تمامًا؛ فتتمثّلُ الجنة أمامه أحيانًا حين يقف للصلاة، وكان يحدث أن يتقدّم صلى الله عليه وسلم نحوها خطوات، وكان أحيانا أخرى يتراجع إزاء تمثُّل شيء آخر فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، قَالَ: **"إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا"**[154]، وهكذا وصل بالمعراج إلى أقصى حدود البشرية؛ تلك التي يبدأ بعدها الخلود؛ فإنه أيضًا عبدٌ رسولٌ لم يحرز مقام الألوهية؛ ولهذا فقد سمى المقام الذي بلغه مقام: **"قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى"** والذي يعني ما بين "الإمكان والوجوب"، ومهما ساق علماء الكلام والمحدثون من تأويلات أخرى متنوعة بشأن سموّه إلى هذا المقام فإن الصوفية يقولون: إنه شاهد الله تعالى في المعراج محررًا من خصوصيّة الزمان والمكان وقيودِهما[155].

وقد أراد -حتى وهو في هذا المقام- العودةَ إلينا؛ إلى البسيطة؛ فعاد بالفعل، يقول أحد الأولياء العظام: "لو أنني أدركت ذلك المقام، وخُيّرتُ بين العودة والبقاء هناك فإنني والله ما كنت لأعود، ولَبقيت هناك"، بيد أنه صلى الله عليه وسلم عاد

[154] **صحيح البخاري**، الأذان، 90؛ النكاح، 87؛ **صحيح مسلم**، الكسوف، 17.

[155] انظر: علي القاري: **شرح الشفا**، 1/379-430.

ونزل بين من رأى منهم العذاب والجفاء، فَنَقَلَهُم ونَقَلَنَا نحن أيضًا إلى الجنة التي فقدناها، ونَبَّهَنا جميعًا إلى هذا الشعور على الأقل، وعلى حد قول جلال الدين الرومي لقد ظلّ بقية عمره مع الحقّ وهو بين الخلق، وكانت إحدى قدميه في الحقيقة، والأخرى بين مختلف الأمم.

كان متواضعًا لأقصى درجة، فقد رأته امرأة وقد جلس على الأرض وراح يأكل طعامه، فَقَالَتْ: انْظُرُوا إِلَيْهِ يَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَيَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"وَأَيُّ عَبْدٍ أَعْبَدُ مِنِّي"**[156].

لقد كان عبدًا لله دون سواه، ولقد جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَيه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ؛ أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: **"بَلْ عَبْدًا رَسُولًا"**[157].

وبقدر ما كان متواضعًا يوم بدأ رسالته كان أكثر تواضعًا وهو يدخل على دابّته مكّةَ فاتحًا لها، فلقد كان يركب ناقته القصواء وقد أحنى رأسه على رَحله تواضعًا، حتى كادت تمسُّ لحيتُهُ الرحلَ من شدّة التواضع، قال أحد الرواة: وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَضَعَ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا للَّه حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ الله بِهِ مِنْ الْفَتْحِ، حَتَّى إنَّ عُثْنُونَهُ[158] لَيَكَادُ يَمَسُّ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ....[159] أجل، لقد كان في قمَّة الانكسار أمام الله تعالى بسبب شعورِه بالعبودية له، ويقول أحد الغربيّين معبِّرًا عن هذا: "لقد أنهى لَحْنَ الدعوةِ بالنغمةِ نفسها التي بدأ بها ولكن بشكل مُرهفٍ".

وعندما تواجهه أيُّ مشكلةٍ فإنّه وبكلّ سهولةٍ يُقدّم لها الحلول الناجعة، ولهذا اعترف "جورج برنارد شو (George Bernard Shaw)"[160] قائلًا: "ما أحوج العالم إلى محمد لِيحلّ مشاكله وهو يحتسي فنجان قهوة".

لقد وُلِدَ، وعاشَ رسولًا محافِظًا على ذاتيَّتِهِ، فلمّا لم تبقَ إمكانيّة لارتقائِهِ أكثر في الدينا؛ رحل عنها وهو محافظٌ على ذاتيَّتِهِ أيضًا، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها

---

[156] الطبراني: **المعجم الكبير**، 200/8.

[157] **مسند الإمام أحمد**، 77/2؛ أبو يعلى الموصلي: **المسند**، 491/10؛ **صحيح ابن حبان**: 280/14.

[158] **العُثْنُونُ** : ما نَبَتَ على الذَّقَن وتحتَهُ سُفْلًا.

[159] ابن هشام: **السيرة النبوية**، 405/2.

[160] **"جورج برنارد شو** (George Bernard Shaw)" (1856-1950م)، كان أحد مفكري ومؤسسي الاشتراكية الفابية، كانت تشغله نظرية التطور والوصول إلى السوبرمان وفكريًّا كان من اللادينيين المتسامحين مع الأديان، يعد أحد أشهر الكتاب المسرحيين في العالم، وهو الوحيد الذي حاز على جائزة نوبل في الأدب للعام 1925م وجائزة الأوسكار لأحسن سيناريو (عن سيناريو بيجماليون) في العام 1938م.

قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: **"أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا"**، فَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَقُلَ، أَخَذْتُ بِيَدِهِ لِأَصْنَعَ بِهِ نَحْوَ مَا كَانَ يَصْنَعُ، فَانْتَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، ثُمَّ قَالَ: **"اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى"** قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى"[161]. أجل، لقد أكمل رحلته الروحانية في الدنيا، وهنا نختم حديثنا بما قاله "محمد عاكف":

كلُّ ما تملكه الدنيا من عطائِهِ

والمجتمعاتُ والأفرادُ جميعًا مدينون لعليائِهِ

فالبشريةُ برمَّتِهِا تدينُ لهذا المعصوم الصبورِ

اللهم! فارحمنا بهذا الإقرار يوم الحشر والنشورِ!

---

[161] **صحيح مسلم**، الآداب، 46.

حقيقة الوعي الجمعي في الإسلام

سؤال: إن مصطلحَ "الوعي الجمعي" واحدٌ من المصطلحات التي ترَدِّدونها دائمًا؛ ماذا تقصدون به؟

الجواب: الجماعة هي كيان يشكّله أناسٌ تجمّعوا عن وعيٍ حولَ شعورٍ وفكرٍ وعقيدةٍ ومبدإٍ معيّنٍ، أما الجمعية فتعني الكتلة المتجمّعةَ لتحقيق غاية معينة، والوصول إلى هدفٍ محدَّدٍ، سواء أكان بينها اتحاد في المشاعر والأفكار والمعتقدات والمبادئ أم لا؛ فقد يكون لكلِّ واحدٍ من أفرادها -مهما بدوا متَّحدين حول هدفٍ بعينِهِ- غايةٌ وفكرٌ مختلفٌ عن الآخر.. ومن المحتمل دائمًا أن تقع الفُرقةُ ويتحقَّقَ التشرذُمُ حين يتعذّر الوصول إلى تلك الغايات.

أما بالنسبة للجماعة فليس من الوارد أن يكون ثمة اختلافٌ في غايتها ومطمحِها -باستثناء الاختلافات في المسائل الاجتهاديّة- كما أنه ليس من المتوقَّع أن يحدثَ تشتُّتٌ وتفرُّقٌ فيما بينها؛ إذ إنها تمتلِك أسمى القِيَمِ وأعلاها، لأنَّ الالتحامَ والاصطفافَ حولَ المعتقداتِ واجبٌ وعبادةٌ على حدٍّ سواء؛ فمثلًا، ليس هناك مسلمٌ ينفصِلُ عن الجماعة في أثناءِ موسِمِ الحجِّ قائلًا: "لا أصعد عرفات، ولا أصلّي صلاةَ العيد في الجامع".. كما أنه ليس هناك إنسان واحد يذهب إلى هذه الأماكن لغايات مختلفة؛ وإنما هي غاية موحّدة؛ ألا وهي رضا الله تعالى. أجل، فأمرُ الله تعالى هو ما يجمعُنا هناك، كما أن الغاية من ذلك واضحة، ولا قيمةَ للدنيا ولا للأشياء الموجودة فيها بجانب هذا الأمر، ولو قدر مثقال ذرة، إلا أنه علينا أن نقول من فورنا إنَّ لكل قاعدة كلّيّة استثناءً قطعًا، ولذلك ينبغي ألا ننسى أن ثمة أشخاصًا قد يدخلون ضمن فئة المستثنى من هذه الأفكار التي تحدَّثْنا عنها عمومًا، غير أنهم لا يُمثِّلون قيمةً تُذكَرُ إلى جانب ذلك "الجمع الغفير".

لقد أَكْسَبَت الجماعةُ بنفسها ومبادئِها الفردَ والمجتمعَ أشياء كثيرةً جدًّا، وقد حازت هذه الأشياء أهمّيّة أعظم اليوم، لا سيّما في الوقت الذي صار فيه عالمنا قريةً صغيرة، يعني أنه مهما حقَّقَ الفردُ من إبداعات بذكائِهِ ودهائِهِ؛ فإنَّ الأعمال التي يتمُّ إنجازُها وتحقيقُها بفِكْرِ الجماعة وفي ظلِّ وحدتِها وتعاونِها لَتَسْبِقُهُ بكلِّ سهولة، ومن ذلك ما ورد في أحد الأمثال: "رأسان مفكّران خيرٌ من رأسٍ واحدٍ"، وبقدر ما يكثُر عدد الرؤوس أي عددُ العقول المفكّرة والأشخاص المتكاتفين المتعاونين على تطبيق القرارات المتّخَذَةِ بقدر ما يكون الوصول إلى النتيجة

المرجوّة سهلًا وممتازًا، ولا يُتصوّر أن فردًا واحدًا -مهما كان عبقريًّا- يستطيعُ النجاحَ في كلِّ هذه الأمورِ، والاضطلاعَ بها بمفردِهِ.

بالإضافة إلى أن بارقة الحقيقة تلمع في ظلِّ تصادم الأفكار وتبادلها داخل الجماعة، وتُرْفعُ في ظلِّ هذا الكثيرُ من الحجبِ الخفيَّةِ الخاصّة بحياة الإنسان وأسرار الكون، فيستفيقُ الناس على مشاعر مختلفة، ومن الصعوبة بمكان أن ترى هذه الأشياءَ مجتمعةً في شخصٍ واحد؛ بل إنه من المستحيل، فأحيانًا ما يتشبَّثُ الفردُ بشيءٍ ما، فيبدو وكأنه أسطوانة مشروخة، وكأنّه يجري وراء الهواجس التي يحسبها صحيحةً بينما هي في الواقعِ خاطئة، ولا سبيلَ إلى التخلُّصِ من هاجسٍ كهذا إلا بمحوٍ بين المسلمين؛ فالأفرادُ محكومٌ عليهم بالعجز، حتى ولو كانوا عباقرة؛ لا سيما في يومنا الحاضر الذي صار فيه عالَـمُنا قريةً صغيرةً في ظلِّ العِلم والتكنولوجيا المتطوِّرة.

وعلى هذا فإن العبقريّات الشخصيّة تستطيعُ الكشفَ عن عظمها باللجوءِ إلى همّة ومشورةِ غيرها من الناس، ومن ثم يتسنى لها أن تُثْبِتَ نفسها على الساحة، بل إنني على قناعةٍ بأن الأشخاص الذين يتمتّعون بخصائص كاريزماتية ومؤثّرة يستحيلُ عليهم النجاح على الإطلاق إن همّوا يتحركون باستقلالية، تمامًا كما حدثَ في الماضي، ولأجلِ ذلك ينبغي للشخصيّات الكاريزماتيّة أن تُلقي بأنفسِها داخلَ حوض الشخصِ المعنويّ، فتذيبُها فيه مثلما تذوب قطعةُ ثلجٍ في حوض ماء، وتندمج فيه تمامًا، إنهم إن فعلوا ذلك، أو استطاعوا فعلَ ذلك ازدادَ وقعُ تلك الكاريزميّة التي يتمتّعون بها، واتَّخَذَتْ أفكارُهم ثقلًا منقطعَ النظير في داخل المجتمع بفضل أدائهم العالي؛ وزيَّنوا أعمالهم التي يقومون بها لصالح المجتمع بنجاحات لا يستطيع الكثيرُ منّا تصوُّرها وتخيُّلها.

اسمحوا لي أن أكشف الستارَ قليلًا عن الحقيقة التالية: وهي أنه لو اجتمع حول هذه الأفكار ما بين خمسة إلى عشرة أفراد، واندمجوا بمشاعر الأخوّة والاتّفاق فقد يمتلكون مزايا تفوق ما يمتلكه أمثال كلٍّ من: أبي حنيفة ومحمد بهاء الدين النقشبندي وعبد القادر الجيلاني والإمام الغزالي وأمثالهم الذين انطلقوا بالإنسانية إلى الآفاق النورانية على مر العصور، وينبغي ألا يفهم هذا على أنه استهزاء بأولئك الأشخاص العظام أو إنكارٌ لمهامهم أو انتقاص من قيمتهم؛ بل لا بدَّ من تفسير هذا على أنه إحسانٌ إلهيٌّ من الحقِّ جلَّ جلاله خُصّتْ به الأخوّة والاتّفاق.

ولنحاول أن نستوضحَ هذه المسألة أكثر من زاوية الولاية فنقول أولًا: إنَّ مِنْ عواملِ تحقُّقِ الولاية حرصَ الإنسانِ على الطَّهارةِ، وتزيِّيه بالصفاءِ الحقيقيِّ دون

وقوعٍ في الذنوب، وأكبرُ دورٍ في حرص الإنسان على هذا النوع من العصمة التي تحدثنا عنها أو انغلاقه عليها إنما يرجع إلى إرادة الشخص، ثم إلى البيئة المحيطة به وفي مقدمتها المناخ الأسري، وأحيانًا ما يأخذ الحقُّ تعالى في كنَفِهِ وحمايته أمثالَ هؤلاء الأشخاص الذين سيُحمِّلهم مهمّةً عظيمةً في المستقبل، ومن ثَمَّ فإنني أرى التواجدَ بين قوم عشقوا القرآن نوعًا من الحرزِ والحصنِ الإلهيِّ، من دخل فيه فقد حرص على الطهارة التي هي أحد الشروط الأساسية في الارتقاء إلى مرتبة الولاية.

ثانيًا: إن الزهد الأعظم والتقوى العظمى والإخلاص الأعظم أُسُسٌ مهمّةٌ جدًّا؛ ومن الصعوبةِ بمكانٍ أن يُجسِّدَها جميعًا بأنماطِها الخاصّة شخصٌ واحدٌ. نعم، إن هذه المسألة صعبةٌ إلى هذا الحدِّ، حتى إنّ الخلفاء الراشدين أنفسهم كانوا وكأنهم تقاسموا هذه الأسسَ فيما بينهم، وتفوَّق كلُّ واحدٍ منهم أكثر في مسألةٍ ما؛ فكَوّنوا الجماعة المشتركةَ سويًّا.

إن الأشخاصَ الذين يجدون مكانًا لهم بين جماعة كهذه يستطيعون تشكيلَ بيئةٍ على هذا النحو؛ عبرَ تمثيلهم تلك الأسس الخاصّة بالأخلاق العالية، كلًّا على حدة، وبشكل مستقلّ، فمثلًا؛ ربما يبلغ أحدُهم القمّة في الزهدِ، وآخر في الإخلاص، وثالثٌ في الصدق، وهكذا تتحقَّقُ على يدِ الجماعةِ بعضُ المعاني والمراتب كالقطبيّة والغوثيّة وقطب الإرشاد... إلخ، ويمكنكم أن تُطْلِقوا على هذا "ولاية الجماعة"، وهذه الولايةُ تتقدَّمُ في يومنا الحاضر على الولايةِ الفرديةِ وتسبقها بمراحل عدّة، وأظنُّ أن الجماعات التي تمثِّلُ ولايةً بهذا المعنى تستطيع دومًا أن تضعَ أقدامَها عند منتهى بصرِها، وربما أن بعض الجماعات أدركت أفقًا لم يتمكن الخاصّةُ ولا أمثالُهم حتى الآن من الوصول إليه، بل ربما أنهم وفِّقوا إلى الانتقال خطوةً إلى ما هو أبعد.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأشخاص الذين يمثلون الولاية في صورة الجماعة لا يغترُّون ولا يتفاخرون ولا يتكبَّرون، بل إنهم لا يستطيعون الوقوعَ في مثل هذه الأحوال؛ لأن لكلِّ أفراد الجماعة الآخرين إسهامًا مهمًّا في الوصول إلى تلك الغاية وبلوغِ تلك النقطة، وربما أعلى من إسهامهم أنفسهم، وكما تبيَّن هنا؛ فإن التواجد في الجماعة في الوقت ذاته قد يقطع السبيلَ على الأخلاق السيّئة مثل: العجب والغرور والفخر.

وثمة نقطة أخرى لا بدَّ من الوقوف عليها لا محالةَ؛ ألا وهي حقيقة أن عناية الله تعالى تتجلّى على الجماعة، وهو ما يشير إليه حديث رسول الله صلى الله عليه

وسلم: **"يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ"**[162]، وهذا يعني أن الإنسان الذي يعيشُ في عجزٍ وفقرٍ كاملٍ يسيرُ ويعملُ بِعَونِ ودعمِ الله صاحب القدرة والقوة اللانهائيّة.

وعند النظر إلى حقيقة الجماعة من منظور قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ"**[163]؛ ينبغي ألا يُنسى أن نسبةَ الخطإ لدى الجماعات تكون أقلَّ بكثيرٍ منها في غيرها، وطبيعيٌّ أنه لن يستطيعَ إدراك كلِّ هذه الحقائق سوى من يَعُونَ مفهومَ "الجماعة" على أنه تعبير دينيٌّ واجتماعيٌّ مأخوذ من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وموجودٌ في جوهر الإسلام.

[162] **سنن الترمذي**، الفتن، 7؛ **صحيح** ابن حبان، 438/10.
[163] **سنن ابن ماجه**، الفتن، 8؛ عبد بن حميد: **المنتخب من المسند**، 367/1.

القسم الخامس
النوازل

مساندة الإنسان

سؤال: ما رأيكم بشأن الفعاليات المنظمة لِحماية الضحايا والتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان ؟

الجواب: الكلُّ يعلمُ أن هناك عديدًا من المنظَّمات تأسَّسَتْ في يومِنا الحاضِرِ لخدمةِ الإنسان والقِيَمِ الإنسانيّة، ومن جملةِ ذلك الأوقافُ التي أُسِّسَتْ لهذا الهدف.. وهي تخدم -بالنظر إلى معظمِها- الغاياتِ التي أُنشئت من أجلِها، كما أن هناك مؤسَّسات وهيئات تبدو وكأنها تأسَّسَتْ لخدمة الإنسانيّة على مستوى العالم، حين ننظر إلى لوائحها وأنشِطَتِها يتبيَّنُ لنا أنها لم تقدّم خدمات تتَّفق مع أهدافِ إنشائِها على الإطلاق؛ إذ إنَّ حقوقَ الأقوياءِ فحسب هي التي تُرعى وتُصان فيها، وهي من النوع الذي قال عنه محمد عاكف: "لا حقَّ لِلضّعيفِ هنا"[164]، وكما يقول سعدي[165]: "ماذا عساي أنْ أفعلَ، إنني أُسْحَقُ تحت الأقدام كالنملة؛ فلستُ نحلةً حتى أطير فوق الرؤوس"، فإن مجموعة الضعفاءِ الذين يُداسُون تحت الأقدام يمثِّلون النملَ، بينما الذين يُحلّقون فوق الرؤوس يُمثِّلون أولئك العمالقة.

هناك آلافٌ من الناس هَزَمَتْهُم القوّة، وتُرِكوا عرضةً للظُّلْمِ في تركيا وفي العالم، فمثلًا؛ نعرفُ الكثيرَ من الناس عملوا طوال حياتهم ونجحُوا في عملِهم، ونالوا تقديرًا إثْرَ تقديرٍ، إلا أنه حُطَّ من قدرهم بينما كانوا على وشكِ جَنْيِ ثمرةِ ذلك النجاح، ومع ذلك يصعُبُ علينا أن نرى أوقافًا أُنشِئَتْ من أجلِ الدفاع عن حقوق أولئك الأشخاص الذين هَزَمَتْهم القوّة برغم ما هم عليه من حقٍّ؛ لأنه قيلَ لهؤلاءِ الناسِ منذ البداية: "إنكم لا تستطيعون رفعَ شكاياتكم إلينا، فلا مجالَ للدِّفاع عن حقوقِكم هنا"، ومن ثمّ تُرِكُوا عُرْضَةً للظُّلْمِ.

وقد قال المرحوم "جميل مريج"[166]: "بينما كان الظُّلْمُ يسودُ أوروبا قديمًا؛ لم يفكّر العثمانيّون في مصطلح "حقوق الإنسان" لأنهم كانوا يعيشون هذه الحقيقة

---

[164] كتب محمد عاكف هذا الشعر 10 أبريل/نيسان (1913م) ونشر في كتابه الصفحات في القسم الثالث وأما عنوان هذا الشعر الآية الكريمة (**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا**) (سورة الأعْرَاف: 155/7).

[165] **سعدي الشيرازي** (606-690 و694هـ): هو مشرف الدين بن مصلح الدين من شعراء الصوفية الكبار، ومن أرقهم تعبيرًا، ولد في مدينة "شيراز"، قدم بغداد استكمالًا لدراساته في علوم الدين في المدرسة النظامية، كان من مريدي الشيخ عبد القادر الكيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار ونظم الشعر، وكتابه "كلستان (روضة الورد)" مشهور، ترجمه الشاعر محمد الفراتي إلى العربية.

[166] **"جميل مَريج** (Cemil Meriç)" (1916-1987): كاتب مفكّر تركيّ وشاعر مشهور، بحث في العديد من مجالات العلوم الاجتماعية خاصة اللغة والتاريخ والأدب والفلسفة وبما في ذلك علم الاجتماع وكتب العديد من المقالات، وأخذت مكانًا مهمًّا في الأدب التركي.

بالفعل؛ فكانت الدولةُ العليّةُ سرعانَ ما تهرعُ بكلِّ وحداتها، وبشكلٍ تلقائيٍّ، إلى أيِّ مكان يتطلَّبُ ذلك، ولا يُسمَحُ بانتهاكِ الحقِّ والقانون، ولا بارتكابِ ولو أصغر ظلمٍ في أيِّ مكانٍ من أنحاءِ الدنيا"، وأظنُّ أن الحكمَ العثمانيّ قد فُضِّلَ في معظمِ الأوقاتِ في أوروبا لهذا السبب، بل إن الفرنسيّين لجؤوا إلى العثمانيّن حتى عند وقوعِ الثورةِ الفرنسيّة، ولم تهمل الدولة العثمانيّة حماية اللاجئين إليها حتى وهي في أحلك الظروفِ والفترات التي واجهت فيها الفناء، فلم تمارس الدولةُ العثمانية قطُّ ازدواجيّةَ المعاييرِ كما يفعلُ من انْبَرَوا لحراسةِ العالم اليوم؛ إذ وقَفَتْ إلى جانب صاحبِ الحقِّ في كلِّ الأحوال.. أجل، وكأنَّ هذا الشعور وهذا الفِكر نُقِشَ في روح أمَّتنا وكنهِها.

أما الأوقافُ التي اجتمَعَتْ القلوبُ المؤمنةُ وأسَّسَتْها في اليوم الحاضرِ فهي مختلِفَةٌ تمامًا من حيثُ ارتباطُ فلسفَتِها الأساسيّة بِجذورِنا المعنويّة، هذه الفلسفة التي يُدافع فيها عن حق الإنسان وحقوقه حتى النهاية تَعِدُ بمستقبلٍ مشرق كما الماضي، ويجبُ أن يُضحَّى بالغالي والنفيسِ من أجلِ هذه الفلسفة، ولكن مع الإبقاءِ على احترامِ الفِكْرِ.

وإنني شخصيًّا أربُطُ القدرةَ على الوصول إلى هذا المستوى بالبنيةِ الدينيّة والفكريّة للأشخاصِ الذين يُشَكِّلونها، فمثلًا؛ إنْ كانَ أربابُ هذه المؤسّسة والقائمون عليها حسبيّين كرماء مُؤْثِرين على أَنْفُسِهم لِدَرَجَةِ أنهم يجودون بكلّ ما لديهم حين يُذكَّرُونَ بالآية الكريمة: **(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ)** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 92/3)؛ فإنهم مفعمون بمشاعر الإحياء أكثر من مشاعرِ الحياة، وهم لا يعملون من مُنْطَلَقِ "لا أستثمرُ في شيءٍ لا تراه عيني، ولا أحصلُ على نتيجته"؛ وإنما يعملون ويخدمون فكرةً مثاليّةً كالطَّودِ الشامخ ما يُرى منها أقلّ بكثيرٍ مما لا يُرى، لكنّهم يؤمنون بما لا يرون على أملِ إنجازِ هذه الغاية السامية، ولم يظهر حتى الآن من هذه القلوب المؤمنة من يقول: "ماذا يحدث**!**" لأنهم واثقون من أن ما فعلوه قد وصل مكانه، ولأنهم يعتقدون أن غيرهم من المؤمنين يعشقون الإنفاق، ويمتلئون خوفًا من الله لم يعبؤوا باتهامات الآخرين وافتراءاتهم على الإطلاق، وعلى أية حال، يبدو أن هذا هو الفرق بين الجمعيّة وبين الشخصية المعنوية التي شكَّلَها الذين نذروا أنفسهم للحقِّ.

على الرغم من كلِّ شيءٍ أتمنى أن يكونَ الهمُّ الأوَّل والشغلُ الشاغل لكلِّ فردٍ من أفرادِ الأمّة، وكلِّ مؤسّسةٍ ووقفٍ فيها هو نصرةُ فكرةِ الحقِّ والحقيقة.

الانبعاثُ في آسيا

سؤال: هلّا تشرحون لنا العلاقةَ القَدَريّة ما بينَ الزُّهَّاد الذين قَدِموا من سهوبِ آسيا الوسطى قديمًا، وأدّوا رسالةً معيّنةً؛ وبين المسافرين من الأناضول إلى آسيا الوسطى اليوم، وكذلك المهمّة التي يتحمَّلها الأناضولُ من هذه الزاوية؟

الجواب: إن الأمر المطروحَ في السؤال يُعبِّرُ عن إحدى الحقائق، ولهذا السبب فلا حرجَ في قَبولِها. أجل، يوجدُ اليوم آلافٌ من الناس يذهبون أفواجًا أفواجًا من الأناضول إلى سهوب آسيا الوسطى، وبالتالي فإن هذه الهجرةَ المقدَّسة ذاتُ علاقة حتميّة بالتجلّيات القَدَريّة الواردة في السؤال.

للإجابةِ على السؤالِ فإنني أفتَتِحُ الكلامَ أوَّلًا بالنقطة التالية من باب التطوُّرِ التاريخي، فلقد صارَ الأناضولُ في فتراتٍ زمنيّة مختلفةٍ كـ"سفينةِ نوح" بالنسبةِ للكثيرين، فمثلًا، إذا نَظَرْنا إلى تاريخنا القريبِ سَنَجِدُ أن معظمَ الدول المحيطة رغم ما يمتازون به من لغاتٍ وثقافةٍ وتاريخٍ قد انخرطت في الأنظمة والمفاهيم الأجنبية، أما الأناضول فقد تجاوز بإذن الله تعالى وعونِهِ تلك الأزمة، وفي الزمن الذي خضعت فيه مختلفُ الدول الإسلامية للضغوط الاستعمارية ظلَّ الأناضولُ حرًّا من مثل تلك الأشياء، وبالتالي اعْتُبِرَ دائمًا كسفينةِ نوح عليه السلام.

كما أنّ عنايةَ الله وحفظَهُ لفّتِ الأناضول وأدركَتْه في تلك الأيام الكارثيّة ذاتِ العواصفِ الهوجاء التي اندلَعَت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وغَمَرَتْ الإنسانيّة وكأنّها الطوفان، وكانت حربُ الاستقلال والميثاق الوطني وغيره على مستوى الأسباب من أهمّ وسائل الحماية، وهناك البعضُ ينتقدون مسؤولي الدولة في تلك الفترة انتقادات قاسية بقدر قد لا يستحقّونه؛ وذلك لأنهم لا يضعون ظروفَ ذلك العصرِ في الحسبان، في حين أن المعيارَ الأساسيّ في إجراءِ النقدِ التاريخيِّ هو وضعُ ظروفِ العصرِ في الاعتبار.

وطالما أُغفِلَ هذا الأمر؛ فإن كلَّ نوعٍ من النقدِ يتمُّ دون وضعِ ذلك في الاعتبارِ لن يكونَ موضوعيًّا، ومن ثَمَّ يستحيلُ الحصولُ على نتائج سليمة منه، وبناءً على هذا ففي تلك الحقب الزمنيّة -التي نسأله تعالى أن يحميَ هذه الأمَّةَ من رؤيتِها مرَّةً أخرى- التي تُرِكْنا فيها عرضة لحربٍ ضارية شُنّت علينا من أربع جهات اضطرّ مسؤولو تلك الفترة إلى تقديم بعض التنازلات والتراجع إلى الوراء في مواجهة الضغوط الخارجية، فأصدروا مجموعة من القرارات استنادًا إلى مبدإ "أخفِّ الضررين"، وربما أنهم قاموا ببعض التطبيقات والممارسات المختلِفَةِ انطلاقًا من

فكرة: "لِنَقِفْ على أرضٍ صلبةٍ أوَّلًا... ونستقرّ لِنَسْتعيدَ جوهَرَنا مجدَّدًا.."، انظروا إلى دُوَلِ آسيا الوسطى التي عاشت أسيرة سبعين عامًا، ثم استطاعت بعد ذلك أن تسيرَ نحوَ الاستقلال! إنني أظنُّ أن النَّظَرَ إلى ما عاشوه في فترةٍ من الزمان كافٍ لِفهم معنى الأَسرُ!

ومن جانب آخر فقد صار الأناضولُ -ليس في العصر القريبِ فقط- سفينةَ نوحٍ بالنسبةِ لأهل البيت أيضًا في العصرين الأمويّ والعباسيّ. أجل، فقد لجأ أهل البيتِ في تلك الحقب الزمنية إلى مناطق شرق الأناضول وجنوب شرقه بسبب ما لاقوه من ظلمٍ واضطهادٍ وتضييق من الحكّام آنذاك، لجؤوا إلى تلك المناطق وسكنوها، وقد كان الأناضولُ وقتها تحت حكم البيزنطيّين، لكنهم ذهبوا إلى الأماكن الوعرة في مناطق شرق وجنوب شرق الأناضول التي لا يزال الوصول إليها متعذّرًا حتى في يومنا هذا، واستوطنوا هناك، وهذا كلُّه يعني أن الأناضولَ صار سفينة نوح بالنسبة لأهل البيت أيضًا.

أجل، كان الأناضول منذ القديم وحتى اليوم موطنًا لعددٍ كبيرٍ من الأقوام؛ إذ مرَّ بالأناضولِ أوَّلًا من جاؤوا من سهوب آسيا؛ وأسّسوا لهم حضارةً عريقةً، وعبروا في أعقاب ذلك من "كوستنجه (Köstence)"، وانتشروا حتى وصلوا روما وأواسط أوروبا، ووفقا لما قرَّرَهُ علماء الاجتماع فقد أثَّرت العشائر التركية في تشكّل حضارة "مقدونيا"، بل إنّ "علي شريعتي" يقول: "إنَّ بناةَ الحضارة اليونانية هم شعبُ بلادِ ما بين النهرين القدماء الذين وَفَدُوا من آسيا."

أما في يومنا الحاضرِ فقد جاءَ الدور علينا لنذهبَ إلى وطَنِنا الأصليّ من جديد ونقوم بوظيفَتِنَا في إطار مشاعر الولاء والتقدير، وأعتقد أن كل الذاهبين إلى هناك سيؤدون وظيفةً مهمّةً عبر ممثِّليهم في كلِّ مجالات الحياة، فعلى مستثمرينا وصنّاعنا وتجّارِنا الذين خَبروا العالم الخارجيّ نتيجة اندماجهم مع الغرب، بل وصغار التجار والعمال أيضًا.. على الجميع أن يذهبوا إلى آسيا بقدر إمكانياتهم، ويقوموا بمشاريعَ استثماريّة صناعيّة وزراعيّة في سبيل حلّ مشكلة العملِ هناك.

والواقع أننا كدولةٍ نحتاجُ بِشِدَّةٍ إلى شيءٍ كهذا نظرًا للمرحلة التي نعيشُها؛ إذ إنّنا في يومِنا الذي وصل فيه السوق الداخلي إلى حدّ التشبع نحتاج أكثر من أيِّ وقتٍ مضى إلى منافذ بِكريّةٍ جديدة، وأسواق خارجيّة نستطيع أن نتنافس فيها مع العالم، وهكذا فإن آسيا الوسطى تمثِّلُ فرصةً نادرةً بالنسبة لنا في هذه المرحلة تمامًا، ولو تصرَّفَ مستثمرونا بذكاءٍ، واستغلُّوا هذه الفرصة استفادةً من مقوِّمات

مشتركةٍ بيننا كالدين والثقافة ووحدةِ التاريخِ فلن يشقَّ علينا التخلُّصُ من المأزقِ الاقتصاديّ الذي نمرُّ به، والدخول بين دول العالم الغنيّة المحدودة...

لقد بدأتُ أشرحُ هذا وما شابهه من أمورٍ على منابرِ الجوامعِ عام (1989م) الذي بدأَ فيه الاتّحادُ السوفييتي بالتفكك والانحلال، غير أنني لا أقول إننا نَجَحْنَا في هذا الشأن؛ فممّا يؤسَفُ له أن فشلًا وقع في الستِّ سنوات الأولى، وهذا الفشل يعودُ إمّا لِقِلّةِ خبرةِ رجالِ أعمالِنا، أو لِتَفْضِيلِهم التجارةَ والبيعَ والشراءَ بدلًا من الاستثمارِ؛ رغبة منهم في تحقيقِ الثراء بسرعة، أو لأنَّ دُوَلَ آسيا الوسطى لم تستطع القيامَ بأيّة تعديلات قانونية محلّيّة ودوليّة، أو لجهلِها بالإنجازات المتعلقة بهذا الأمر.. ومن ثمّ فإنه يستحيل القول إن المسافة التي قُطِعَتْ في هذا الصددِ تبلُغُ ولو حتى قدرَ نصفِ المسافةِ التي قُطِعَتْ في مجال التعليم رغم التبشير بهذا الأمر مسبقًا، فقد قيل: "آسيا مفتاحُ السعادة..." ، وقيل: "كونوا على أملٍ؛ فإنَّ صوتَ الإسلام الهادرَ هو أعظم صوتٍ مدوّ في التحوُّلات المستقبليّة.."[167].

"وأنا على يقينٍ: بأنَّ مستقبلَ آسيا بِأَرْضِها وسمائِها يستسلِمُ لِيَدِ الإسلام البيضاء"[168].

يعني أنه قيل: "إن آسيا سوف تفتحُ أبوابَ قلوبِها إلى يدِ الإسلام البيضاء المنيرة التي تنشرُ النور كَيَدِ موسى عليه السلام"، وكل هذه الأمور لا تتحقّق من تلقاءِ نفسها دون سعيٍ واجتهاد، فهذا العمل يتطلّب أمَّةً قويَّةً كأمَّتِنا تجعلُ هذه البشارات واقعًا، وتُمَثِّلُ العدالة في التوازن الدولي، فإن كان من الوارد فتحُ آسيا وانبعاثُها من جديدٍ فلا بدَّ من تجهيزٍ، وإن كان مجيءُ إسرافيل إلى هناك واردًا فهذا يقتضي أن يمرَّ الذين يمتكلون أنفاسًا كأنفاسِ إسرافيل إلى هناك ويسبقوا مجيئه، كلُّ هذا يمكن أن يَتَحَقَّقَ بالفعاليّات التعليميّة بدءًا من المدرسةِ الابتدائيّةِ وحتى المرحلةِ الجامعيّة، وإتاحةِ التعليم لكلِّ قطاعات المجتمع، ويتحقَّقُ بالتعايُشِ الكاملِ مع الشعب عبر القيام بالاستثمارات الزراعيّة والصناعيّة والتجارية، إنني شخصيًّا أؤمنُ بأن هذا الجيلَ الذهبيَّ سَيُحَقِّقُ هذا، بل إنني على قناعة بأن ذلك سيحدُثُ بشكلٍ سريعٍ بقدرِ الإخلاصِ في التمثيل. أجل، لا شيءَ على الإطلاقِ يحدُثُ من تلقاءِ نفسِهِ، وكما قال "محمد عاكف":

---

[167] بديع الزمان سعيد النُّورسي: **سيرة ذاتية**، الحياة الأولى، ص 160-161.

[168] بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الكلمات**، اللوامع، ص 817.

أسكت أيها المجنون! فَسَيرُ الكون المعتادِ لا يتوقَّف.

ماذا ظننتَ؟ هل تسمعُ قوانينُ الفطرةِ الصرخةَ فتتلطَّف؟!

اليوم، عليك ألا تطلب المددَ إلا من نفسك باجتهادك

فانهض وارفع الظلم بسعيك أنت وإقدامك

وانظر كيف تنقادُ الدنيا بإذعانٍ لِقانونِ سَعْيِك

ماذا فعلت! وهناك ***﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾*** (سورة النَّجم: 39/53) *بانتظارك!؟*

والحاصلُ أن هناك من جاؤوا بالأمسِ من آسيا الوسطى إلى الأناضول، وهناك من يذهبون اليوم من الأناضول إلى آسيا الوسطى؛ يوجد بينهم ارتباطٌ وَصِلَةٌ قَدَريّة في الوقت نفسه، ومن يعيشون في الأناضول اليوم حتّى وإن لم يكونوا يعوا ذلك فَهُمْ يتحمَّلون يقينًا مهمّةً تاريخيّة، أرجو الله أن يُدْرِكوا ويَعوا هذا الأمرَ جيِّدًا، ويحاوِلُوا بكلِّ إخلاصٍ وتفانٍ تحقيقَ تلك المبادرات المختلِفة.

تنظيم النسل

سؤال: ما رأيكم في تنظيم النسل؟

الجواب: لا شكَّ أن مشكلةَ "تنظيم النسل" واحدةٌ من كُبرى نوازلِ السَّنوات الأخيرة، وقد اعتبر العالم الغربيُّ هذه المسألةَ أهمّ مشكلةٍ بالنسبة للبشريّة جمعاء، وطوّر العديد من النظريّات من أجل حلِّها، ثم شَكَّلَ منظَّمات متنوِّعةً في سبيلِ تطبيقِ هذه النظريّات على واقعِ الحياةِ.

وقبل الدخول في الموضوع أريد هنا لَفْتَ انتباهكم بصفة خاصة إلى بضعة أمور؛ **أوّلها**: أن الغرب يكيل بمكيالين في هذا الموضوع؛ كما هو ديدانُه في سائر الأمور، يعني أنه لا يضع البرامج والخطط المطروحة من أجل تنظيم الأسرة وتحديد النسل موضع التطبيق في عالمه الخاصّ، بل دعكم من التطبيق، إنه على العكس من ذلك تمامًا يُشَجِّعُ على الإنجاب تشجيعًا كبيرًا؛ فيُعطي الأسرَ مكافآتٍ ماديّةً بِعَدَدِ ما ينجبون من الأولاد، بل إنه يوفّرُ تسهيلاتٍ كبيرةً جدًّا للسيدات الحاملات العاملات، وفوق هذا كله يقوّي بما يصدره من قوانين اللوائحَ المتعلقة بعمليّة الإنجاب في شتّى مراحِلِها؛ ابتداءً مما قبل، ومرورًا بفترةِ الحملِ والحضانةِ، وانتهاءً بالبرامجِ الدراسيّة للأطفال، يعني أن الدول الغربية تتناول هذه المسألة باعتبارِها سياسة دولة، وحين يكون الأمر على هذا النحو لا تتغير هذه السياسات على الإطلاق حتى وإن تغيرت السلطة الحاكمة.

وعلى هذا يمكن القول إن العالم الغربي يشعرُ بِقَلَقٍ من تزايُدِ عددِ سكَّان العالم الإسلاميِّ أكثر من شعوره بالقلق من تناقصِ عدد سكّانه، فالأمر وفقًا لآرائهم أن ثـمّةَ زيادة سكّانيّة في العالم الإسلاميّ يستحيلُ التصدّي لها، وهذه الزيادة ستُشكِّلُ في المستقبَلِ مصيبةً عليهم أنفسهم، لأنّهم يرون أن العالم الإسلامي سيصبح القوّة الوحيدة في العالم باعتبار الأبعاد الكمّيّة لتلك الزيادة السكانية.

الأمر الثاني: أن ديننا يُشجِّعُ أتباعَهُ على إنجابِ الكثير من الأطفال بقدرٍ معقولٍ؛ حيث يوصي رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم بالزواج من المرأة الولود، قال صلوات الله عليه: **"تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يوم القيامة"**[169]، وكما نرى فإنّه يلفت أنظارنا إلى أنه سيفتخر بكثرة أمته يومَ القيامة، غير أنه من الخطإ تناوُلُ هذه المسألةِ وتقييمُها على أن سيدنا رسولَ الله صلى الله

---

[169] **سنن أبي داود**، النكاح، 4؛ **سنن النسائي**، النكاح، 11؛ **سنن ابن ماجه**، النكاح، 8؛ البيهقي: **السنن الصغرى**، 10/3 (واللفظُ له).

عليه وسلم سيفتخر بكثرةِ أمَّتِهِ فحسب، لأن هذا يعني تضييقًا لِواسعِ المحتوى الذي عبَّرَ عنه هذا الحديث الشريفُ تضييقًا شديدًا، بالإضافة إلى أن المسألة لو كانت مسألةَ فخرٍ فحسب لأعطت صورةً بأن هناك نوعًا من التناقضِ في الأُسُسِ الإسلامية؛ إذ إن من الحقائق المعروفة جيِّدًا قولُ رسولِنا صلى الله عليه وسلم في كثيرٍ من أحادثيه: **"وَلَا فَخْرَ"**[170].

ومن المسلّم به أنه **(لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)** (سورة النِّسَاءِ: 141/4)؛ ذلك أن أهمَّ وظيفةٍ تقعُ على عاتقِ المؤمنين هنا هي تحقيقهم الكمّيّة، أي الكثرة العددية التي تُعدّ الشرط الأول لِعَدَمِ الدخول تحت سيطرة الآخرين ومنعِ تحقيقِ سيادتهم علينا، ومن المحقَّقِ أن جميع التدابير التي ستُتَّخَذُ، والاستراتيجيات الأخرى التي سيُلجأ إليها لن تؤثِّرَ كثيرًا في مواجهة العالم ما لم يحقق المؤمنون بإرادتهم الخاصّة هذا الأمرَ البالغَ الأهمّيّة في موضوع السيادة، ومن هذه الزاوية فإنني على قناعةٍ بضرورة عدم إغفالِ هذه النقطة التي حاولتُ العرضَ لها عند تقييم كثرة الأمّة المذكورة في ذلك الحديث النبويّ الشريف.

وثمة **أمرٌ ثالث:** هو الوضع الاقتصادي الذي يتردَّدُ الحديث عنه باستمرار في تحديد النسل. أجل، لو تناوَلْنا المسألة من هذا المنطَلَقِ ونظرنا إلى أحوال تركيا آنذك فسنَجِدُ الغالبية العظمى من شعب بلدِنا البالغ تعداده اليوم ما بين ستين وخمسةٍ وستين مليونًا تعيشُ في أزمات اقتصاديّة، بيد أن تركيا كانت تعيش الأزمات نفسَها قبل سنوات من هذا، لكن دولةً كألمانيا التي هي أقلّ مساحةً جغرافية، وأكثر تعدادًا سكّانيا منا تعيشُ أكثر رفاهيةً منا؛ فمعاييرهم المعيشيّة مرتفعةٌ بدرجةٍ تستحيلُ مقارنتُها مع معاييرنا المعيشيّة.

وهذا يعني أن المسألة لا علاقةَ لها بكثرةِ عَدَدِ السُّكان فحسب؛ إذ إنها تَكْمُنُ في مجموعةٍ من النّقاط الخاصّة بسياسة الدولة مثل القدرة على استغلالِ الثروات المكنوزة في باطِنِ الأرض وظاهرها، واستخدامِ المناهج الحديثة في الزراعة، والحصولِ على ناتجٍ مضاعف، والقيام باستثمارات خاصة بالمجتمع الصناعي، وغير ذلك، فقد أدركت دولٌ مثل ألمانيا أو اليابان هذه الحقيقة مبكِّرًا جدًّا، واتَّخَذَتْ تدابيرَها؛ فما وَقَعَتْ فيما وَقَعْنَا فيه نحن اليوم من أزمات، ناهيكم عن الأزمة، لقد اسْتَقْطَبَت هذه الدولُ العُمّال من تركيا والمغرب واليونان، وهيَّأَت السبل لاستعمال شعوب العالم الثالث هذه.

---

[170] انظر: **سنن الترمذي**، التفسير، 18، المناقب، 2؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، 37.

ولو أن تركيا استطاعت مواصلة الفترات الذهبية التي كانت في عهد كل من: مندرس (1950-1954م)، ودميرال (1963-1967م)، وأوزال (1983-1987م)؛ لكانت اليوم في وضعٍ مختلِفٍ تمامًا، لكن لم ينتهِ الأمر بعدُ... فلو أن تركيا -بموقعها الاستراتيجيّ المتميِّزِ- استَثْمَرَت واقتنصَت الفُرَصَ التي تظهر أمامها خارجيًّا، ولجأت في الداخل إلى سياسات منطقيّة للاستفادة القصوى من مواردِها الخاصّة؛ فستستطيع أن تغذي ولو حتى مائةً وعشرين مليون نسمة.. تستطيع أن تغذيهم، وتتفوق على ألمانيا من حيث المعايير الحياتيّة، وفي هذا الإطار تُمَثِّلُ آسيا الوسطى بالنسبةِ لنا سبيلًا جديدًا وينبوعًا صافيًا للثراء.. كما تُمَثِّلُ في الوقت نفسه جسرًا بالنسبة لتركيا تنفتِحُ من خلاله على كل أنحاءِ العالم، ولن نُكَرِّرَ آراءَنا في هذا الموضوع مجدَّدًا هنا؛ حيث أعرَبْنا عنها في مناسبات مختلفة من قبلُ.

والحاصل؛ أنني أرى أنه ينبغي للعالم الإسلامي -بدءًا من مصر وتونس والجزائر والصومال حتى باكستان؛ ومن كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان حتى المسلمين الذين يعيشون في أوروبا وأمريكا- ألا يفكر في تحديد النسل، وإنما عليه أن ينتَبِهَ من جانبٍ إلى حقيقة قوله صلى الله عليه وسلم "**تَنَاكَحُوا؛ تَكْثُرُوا**"[171]، فيتكاثر ويستفيدُ من جانب آخر من الإمكانيات العظيمة التي منّ الله تعالى بها عليه، وألا يسمح للعالم الغربي قطعيًّا أن يستغلَّه، ولا يُتيحُ له أيَّ فرصةٍ لِفِعْلِ ذلك.

---

[171] انظر: عبد الرزاق: **المصنف**، 173/6؛ البيهقي: **معرفة السنن والآثار**، 16/10.

نحوَ مجتمعٍ نظيفٍ

وقَعَتْ في الآونة الأخيرة بعضُ الحوادث؛ كثُرَ بسببها الحديثُ في كلِّ محفلٍ من محافل حياتِنا اليوميّة عن مفاهيم مثل: "العصابة" و"المافيا" و"الغلاديو" و"مكافحة التمرّد"، وصارت هذه المفاهيم وسيلة لأن تُتَداوَلَ مرة أخرى تلك الأفكارُ التي يُعبَّر عنها بشعار "المجتمع النظيف"، والآن يتكلَّمُ الجميعُ تقريبًا؛ ممن له صلة بالأمر، أو لا صلةَ له به، المسؤول وغيره، المؤيّدُ والمحايِدُ، ولهذا السبب وإزاءَ ما يجري من تطوُّراتٍ حاليّة أرى أنه من المفيدِ أن أعرضَ النقاطَ التالية على صورةِ مَوادَّ:

1. هناك من يرغبون في التستُّرِ على العلاقات القائمة بين العصابات والمافيا -التي انفضَحَ أمرُها- وبين الدولة، بيد أن مساعيهم هذه لا تغيبُ عن أعينِ الرأيِ العام، في حين أن ما يجبُ فعلُهُ في هذا الموضوع -ولا سيما أن الفرصةَ التاريخيّةَ قد سَنَحَتْ وحانت- هو التدخُّلُ اللازِمُ من أجل التخلُّصِ من هذه النوعية من المشكلات في إطار التعاون بين المجتمع والدولة، أما إن كانت هذه العلاقات المنحرِفة صحيحةً كما يزعمون؛ فإنني لا أظنُّ أن هذا سيعودُ بالنفع على أمَّتِنا، ولا على دولتِنا، لا على المدى القريب ولا على المدى البعيد؛ على العكس إنني على قناعةٍ بأنه سوف يتسبَّبُ في أن نفقدَ احترامنا ومصداقيَّتنا.

2. من المهمّ للغاية أن تكون النيَّةُ خالصةً حين ننكأُ جرحًا كهذا، فإن كانت التصرُّفات التي تطبِّقُ هذه النية الخالصة على الواقع تصرُّفاتٍ فاسدةً فلن يُفيدَ إخلاصُ النيّة في أيِّ شيءٍ على الإطلاق، ووفقًا لمضمونِ **"إنما الأعمال بالنيات"**[172]؛ فإنَّ فوزَ الإنسان بشيءٍ في الدنيا والعقبى مرتبطٌ بوضعه نيَّتَهُ هذه موضعَ العمل والحركة والفعل، لكن اختيارَ الأسلوبِ الجيِّد هنا مهمٌّ بقدرِ أهميّة إخلاص النية على الأقل.

وإذا ما نظرنا إلى التطوُّرات الراهنة من زاوية هذا الدستور الاجتماعي المهم جدًّا فإنني على قناعةٍ بأن التحاملَ على الأحداث بهذا الشكل خطأٌ عظيم، ولا يُظنُّ أنه سيأتي بحلٍّ جذريٍّ لهذه المشكلة.

وما يجب أخذه في الاعتبار حيالَ هذا الموضوع هو عزَّتُنا وكرمتنا، فبالنَّظَرِ إلى الماضي والحاضر نرى تركيا تعيشُ اليوم وضعًا يُرشّحها لأن تكون دولةً

---

[172] **صحيح البخاري**، بدء الوحي، 1، الأيمان، 23؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، 155.

عظمى، ويمكن القولُ إن جمهوريات آسيا الوسطى والعديدَ من بلاد العالم الإسلامي أيضًا يثقون بتركيا ثقةً عالية، فلو رسمنا لأنفسِنا صورةَ دولةٍ غير مستقرّةٍ ضعيفةٍ تَغَلْغَلَت الأدناسُ في بنيتِها لمَهّدَ هذا لأنْ نفقد ثقةَ البلاد التي تُعَلِّقُ علينا الأملَ، وتنظرُ إلينا بثقةٍ واعتماد، وقد تستغرقُ هذه الثقةُ وهذا الاعتبارُ المفقودُ زمنًا طويلًا جدًّا حتى نستطيع اكتسابها من جديد، والحالُ أن تركيا لا تتحمَّلُ على الإطلاق أن تفقدَ زمنًا ولا مكانةً على هذا النحو.

دع عنك زعزعة ثقة العالم الخارجي، فإن كان أسلوبٌ على هذه الشاكلة يؤدي إلى اختلالِ ثقة البسطاء الذين يُشَكِّلُون قاعدةَ المجتمع، وقولِـهم: "لقد سيطر -عذرًا- الأربعون حرامي على الدولة"؛ فهذه نتيجة سلبية تُنذِرُ بأخطارٍ محقّقةٍ.

وأرى أنه لا بدَّ من إعادة النظر مرّةً أخرى في الأسلوب الذي يتبع لِـحَلِّ مثل هذه الحوادث، فقاعدةُ هذه الأمة في أعلى مراتبِ السلامة، وأرضيتها في غايةِ القوّة والصلابة، والتعميم السلبيُّ انطلاقًا من بعض المفاسد والأخطاء الإداريّة وإصدارُ حكمٍ على الجميعِ من قبيلِ "هذا هو المجتمع التركيُّ، وهذه هي تركيا"؛ خطأٌ إلى حدٍّ كبيرٍ.

3. إن استخدام هذه النوعية من الأحداث كمادَّة سياسية، أي تَسْيِيسُهَا خطأٌ عظيمٌ وضررٌ بالغٌ، فالواقع أن حساسية المجتمع في هذه المواضيع قد اتّضَحَت تمامًا بما أظهرَهُ من ردود فعل، وأرى أنه من الممكن تَشبيهُ هذه الردود بارتفاعِ حرارةِ الجسمِ بسببِ بعضِ الأمراضِ، ومقاومته المرض بهذا الشكل، وتصرفٌ أو تطورٌ كهذا أمر مفرحٌ؛ غير أن تَسْيِيسَ ردود الفعل هذه، واستخدامَها مادة سياسية والسعيَ من أجل الوصول إلى بعض الأهداف بواسطتها خطأٌ جسيم، فإن كانت ثمة مشكلة على الساحة؛ وجبَ على السلطةِ والمعارضةِ والجيشِ والشرطة ومنظمات المجتمع المدني وغيرها وكلِّ مؤسّسات الدولة وطبقات المجتمع أن تتعاون بكلِّ إخلاص، وأن تعمل حتمًا على حلِّها.

كما أنه يستحيل على الناس التصرُّفُ باتِّزانٍ عند حدوثِ تدخُّلات بهذه العقليّة، أي التي تتمُّ بطمعٍ وجَشَعٍ رغبةً في تولّي السلطة، في حين أن الحقّ يعلو و لا يُعلى عليه، ولا يُستعاضُ عنه بأيِّ شيءٍ مهما كلّف الأمر.

وهنا أقولُ إن الإبقاءَ على البلاد تعيش دائمًا في جو الانتخابات أمرٌ خطيرٌ جدًّا، فمن المؤكّد أن هذا الجوّ سَيُؤَثِّرُ سلبيًّا على طبقةِ السياسيِّين والبيروقراطيّين

القائمة على إدارة البلاد، وطبقةِ المستثمرين صناعيًّا وزراعيًّا وتجاريًّا داخلَ الوطنِ وخارجه، وجموعِ الشعب التي اهتزَّت ثقتُه؛ فَيَئِسَتْ من أن يسود الاستقرار.

4. ثمة نقطة أخرى يتوجَّبُ التيقُّظُ إليها في مرحلة حلِّ المشكلات؛ ألا وهي بنيةُ الدولة... فالتحجُّجُ بهذه الحوادث ونسجُ الحيل والألعاب حول بنيةِ الدولة قد يتسبَّبُ في ظهورِ أفكارٍ مختلفةٍ غير مرغوب فيها على الإطلاق، ومهما يكن فإنه ينبغي ألا يلحقَ الضررُ مشروعيّةَ الدولة، وإلا فإنه لا مفر من أن تتعرض الديمقراطية للانقطاع، وهو ما لا يعتبر بادرةَ خيرٍ على الإطلاق بالنسبة لتركيا التي تعيش في أزمة؛ فالتدخُّلات المنافية للديمقراطية التي شاهدناها في الماضي لم تُحقِّقْ أيَّةَ فائدةٍ لِبَلَدِنَا على الإطلاقِ لا داخليًّا ولا خارجيًّا، بل إنها تعني أننا تعجَّلْنا في حلِّ المشكلة، فإن كانت ثمة ثقةٌ بأنَّ الديمقراطيَّة ذاتُ نظامٍ إداريٍّ متكاملٍ في هذا الصدد؛ فلا بدَّ من أن يُوضع في الاعتبار كذلك أن لكلِّ نظامٍ جوانبَ معرَّضة وقابلةً لِإساءةِ الاستغلال، ومن ثَمَّ فلا بدَّ من السعيِ إلى حلِّ المشكلات في إطارِ النظام، والصبرِ عليها وتحمُّلِها، وعدمِ اللجوءِ قطعيًّا إلى الطرق المنافية للديمقراطيّة.

5. وثمة حقيقةٌ أخرى كثيرًا ما حاولْتُ التعبيرَ عنها، هي أن الخيرَ يُولِّد خيرًا، والشرَّ شرًّا، فهذا الأمر الذي تحدَّثْنا عنه في الإطار الذي أطلْقنا عليه اسم الدائرة الفاسدة والصالحة، والمقتبس من الآيات والأحاديث حقيقةٌ كونيةٌ، ولذلك فإن أيَّ خطإٍ يُرتكب بالتدخل ربما يكون وسيلةً لأن تتولَّدَ منه سلسلة من الأخطاء الأخرى، والحلُّ الأكثر جذريَّةً هو الخالي من الخطإ أو نادرُ الخطإ، حتى ولو كان بطبيعتِهِ يستغرقُ زمنًا طويلًا، ولذلك فإنه ينبغي عدم اللجوء أبدًا إلى الطرق القصيرة الخاطئة من أجل التوصُّل إلى نتيجةٍ عاجلةٍ.

6. إن سلوكَ وسائل الاتصال والإعلام المرئيّة والمكتوبة والمسموعة في مواجهة هذه النوعية من الأحداث مهمٌّ جدًّا، وعلينا أوَّلًا أن نُذَكِّرَ أن هذه الوسائل نعمٌ مَنَّ الله تعالى بها علينا، غير أنه ينبغي استخدامُها في موضعها المناسب وفي الاتجاهِ الذي يمكّننا من الوصول إلى الحقيقة مهما كلَّفَ الأمر، فإن استُخْدِمَتْ هذه الوسائل وفقًا للملاحظات السياسيّة والمصالح الشخصيّة والعلاقات الفرديّة وشُوِّهَتْ الحقائق؛ فقد وُجّهت السلطاتُ المختصةُ توجيهًا خاطئًا، ومن ثَمَّ يطول وقت الحصولِ على نتيجة، وتهتزُّ آمالُ الرأيِ العام تمامًا، ومن هنا أرى أن أجملَ شيءٍ

يمكن فعلُهُ هو كشف الحقائق مع الالتزام التامِّ بالصدق والحيادية والتوافق مع مبادئنا.

بالإضافة إلى ذلك فإنني أعتقدُ أنه من الضروري عرضُ الحلول البديلةِ وتقديمُها إلى السلطات المختصّة عند الإعلان عن الأحداث وكشف خلفيّاتها، أي عند إعداد تقريرٍ حول الواقعة. أجل، إن رفعَ تقريرٍ بالوقائع ونقدَها، ونقلَ مساوئها في صفحاتٍ مطوّلةٍ في الصُّحُفِ أو لِساعاتٍ عديدة على شاشات التلفاز حسب طبيعة العرض والطلبِ أمرٌ سهل، لكن الصعبَ هو القدرةُ على التحرُّرِ من الكَسَلِ الفكريِّ، والتمكّنُ من طرحِ حلولٍ بديلةٍ.

7. ويلاحظ أن الحوادثَ تنبثِقُ عن الأشخاصِ بدءًا من العاديّين وصولًا إلى مَن هم في أعلى مناصب الدولة، وكلَّ شيء يدور حول المادة تقريبًا، فإن كان مسؤولونا يُشاركوننا هذا الطرحَ، وكانوا صادقين راغبين في فكرةِ المجتمعِ النظيفِ؛ فلا بدَّ على كلِّ من وردَ اسمه في الأحداث أن يهبَ كلَّ ما يملك من ثروات إلى هذه الأمة؛ تمامًا كما حدثَ في حربِ الاستقلالِ، فيغدو طاهرًا نقيًّا في نظر المجتمع، وهؤلاء عليهم ألّا يحتفظوا إلا بما يسدُّ حاجتهم فقط، ثمَّ يتبرَّعوا بما زاد عن ذلك من أموالهم إلى الأوقاف، كما يمكنهم تأسيس أوقافٍ خاصّة، وبهذه الطريقة يتطهَّرون حقًّا في نظرِ المجتمع، ويتوَّجُون على الرؤوس؛ إذ إنّ هذه الأمة وفيّةٌ، وليفعل الإداريُّون شيئًا كهذا، حينها سيجدون الأمَّةَ تَرُدُّ لهم ضعفَ ما أعطوه عشر مرات، ومن ثمَّ يُستردُّ الاعتبارُ المفقودُ في تلك الأثناء.

8. وثمة خطأٌ آخر أيضًا يُرتكب عند محاولةِ منعِ هذه النوعية من الحوادث، ألا وهو البحث عن الحلّ المحلّيِّ وترك الحلِّ الجذريّ؛ أي إنه أينما ظهَرَ العطل جرى التحرّك نحوه، في حين يُشترط في الحلّ النزولُ إلى جذر المرض وأساسه، فمثلًا إن كان الألم الذي في الساقين منشؤُهُ الانزلاقُ الغضروفيّ جرى التدخُّل في الغضروف، ولا يُتَدخَّلُ في الساقِ رغمَ أنّها هي التي تُعاني الألمَ وليسَ الغضروف، فهذه القاعدة الصالحة لِجِسْمِ الإنسان صالحةٌ أيضًا بالنسبةِ للمجتمَعِ في الحياة الاجتماعيّة، وعلى هذا فإننا إن نَظَرْنا إلى المسائل من هذه الزاوية وَجَدْنا أن ثمَّةَ أشياء عدّة تُشَكِّلُ أساس هذا الخطإ الذي يجري ارتكابه، منها البعد عن قيمنا الذاتية الخالصة، وعدم التعمق التام في مسألة الإيمان بالله وبالآخرة، وعدم تلاحم المجتمع مع هذه القيم؛ كما يقول محمد عاكف: "إن الشعور بالفضيلة نابعٌ من خوف الناس من الله"؛ فإن لم يكن هذا الخوف موجودًا فلا أثر حينذاك للوجدان والعرفان، إذن

يكمنُ الحلُّ الجذريُّ في استثارة هذه العاطفة لدى إنساننا مجدَّدًا، وإن أمكن تحقيق شيء كهذا سلكَ الناس طريق "الإنسان الكامل"، أو إنسان المراقبة والمحاسبة، والتي عندها تزول تمامًا -إن شاء الله- كلُّ الأشياء التي تُمثِّلُ مشكلةً في الوقتِ الراهن، غير أن هذا طريق يتطلَّبُ وقتًا طويلًا جدًّا؛ ربما يستغرق جيلًا أو جيلين أو ربما ثلاثة.

أجل، إن الدين من المقوّمات المهمّة لحياة الإنسان والمجتمعِ، لدرجةِ أنه ليس ثمة شيءٌ آخر على الإطلاق يمكنُهُ أن يملأَ مكانه، يقول المرحوم أحمد حمدي آقسكي: "إن لم ينضبط الإنسانُ بالدين، فليسَ من الممكن السيطرة عليه ولو حتى بالقوّات المسلّحة الخاصّة"[173]، ولا سيّما أنه لا يمكن ربطُ أمّة ذكية بمكان ما بواسطة العقوبات الجنائية الدنيوية، فإذا لم يضع الناسُ الآخرةَ بحسبانهم فإنّهم يستطيعون بذكائهم أن يعثروا على ثغراتِ القوانين الوضعيّة فيتملّصوا من ستين أو سبعين بالمائة منها.. إذن لا بدَّ من الاهتمامِ والعنايةِ بتوجيهِ الأجيالِ إلى الدِّين، وإلى القِيَمِ الدينيّة النبيلة، حتى وإن استغرقَ الأمرُ زمانًا طويلًا، ولا بدَّ من تنشِئةِ أجيالٍ تجعلُ المجتمعَ حقًّا مجتمعًا نظيفًا وطاهِرًا.

9. وأخيرًا، فعلى الجميع ألا ييأَسَ بسببِ الأحداث التي وقعت وتقعُ حتى يومنا هذا، ولا بِسَبَبِ ما سَيَقَعُ لاحقًا أيضًا؛ لأنَّ هذه الأحداثَ وما شابهها تحدُثُ في كلِّ المجتمعات أيضًا على نطاقٍ صغيرٍ أو كبير؛ فاليأسيحولُ دون بلوغ كل أنواع الكمال، وثمة حقيقةٌ لا يُمكن إنكارها وهي إعادة بناء المجتمع أو كما عبَّرَ عنها نجيب فاضل "البعث بعد الموت" أو "الانبعاث" على حدِّ تعبير "سزائي قاراقوج"، فعلى الذين لم يتملَّكْهم اليأسُ أن يُلْقُوا بذورَ مجتمعٍ يستطيعُ النهوض بناءً على مقوّماته الروحية، وأن ينتظروا النتيجة على الأمدِ البعيدِ.

ولقد تبرعمتِ اليوم هذه البذور، وبدأت تشقُّ الأرض شقًّا، ولسوف تعلو في المستقبل القريب العاجل نحو الآفاق؛ لذلك ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يبذلَ جهدَهُ كي يُسْهِمَ في تسريعِ هذه المرحلة، وأن يأخذَ مكانه في هذه القافلة باعتبارِ خصائصِهِ الماديّة والمعنويّة، كمهندس فكرٍ أو عامل فكر أو مموّل أو خادم أو أيِّ موقعٍ كان فيها... وتمثيلُ الديمقراطية والجمهورية إنما يتحقَّقُ بالأشخاص، فلو كان هؤلاء الأشخاص الذين يمثلونهما كاملين، يرتبطون بالقِيَمِ الدينيّة والأخلاقية، ويقومون في الوقت ذاته بمحاسبة النفسِ والضمير ومراقبتهما؛ حينها لن تكون هناك أيّة واحدة من هذه

173 انظر: أحمد حمدي آقسكي، الدين الإسلامي، ص 8.

الأنواع من المشكِلات، وبهذه الطريقة ستُحافظُ أمّتُنا ودولتُنا على الاحترام داخليًّا وخارجيًّا.. لقدَ كانت السلبيَّات التي عايشناها مؤخَّرًا شديدةَ الوقعِ علي، فلقد أرْهِقتُ خوفًا على الأمّة؛ حتى إنني صرتُ أشعرُ وكأنَّ دمائي قد تجمَّدت في عروقي، بل إنني رغم أنني أريد الانزواء في ركنٍ والبكاء فيه إلا أنني عجزتُ عن البكاء كأمِّنا عائشة رضي الله عنها[174].

وخلاصةُ القولِ فإنني على يقينٍ بأنَّنا كدولةٍ وأمّة سوف نتجاوز هذه المصيبة على كلِّ حال إن شاء الله.

---

[174] انظر: **صحيح البخاري**، الشهادات، 15، المغازي، 36؛ **صحيح مسلم**، التوبة، 56.

الجن والكُهّان

سؤال: هل هناك علاقةٌ بين الكهانة المنتشِرةِ كثيرًا في السنوات الأخيرة وبين الجنّ؟

الجواب: الجنُّ يمتلكون قدرةً على النفوذ إلى كلِّ جهةٍ في الجسمِ لأنهم مخلوقات تشبه الأشعّة والحرارة، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيطان: **"إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ"**[175]، والشيطانُ أصلُه من الجنّ؛ قال تعالى: **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)** (سورة الْكَهْفِ: 50/18)، فالآية تدل على أنَّ الشيطان أصله جنّيّ، والحديثُ يبيّن أن هذه المخلوقات تستطيعُ النفاذَ إلى أكثر أعضاء الجسد عمقًا، وهناك ربما يتسبّبون في حدوث بعض الأمراض أو الوقوف حيالها، غير أن استخدامهم في أمور مثل التداوي بنيّة الاستفادة من خصائصهم تلك قد يكون أمرًا خطيرًا جدًّا؛ لأن هذا الموضوعَ ذو مناهجَ ومعاييرَ خاصّة بعوالِمِهم الميتافيزيقيّة.

فالجنُّ وكما أخبر بذلك القرآن الكريم يحاولون الاطّلاع على ما جاء في "اللوح المحفوظ"؛ ويَسْتَرِقُون المعلومات التي تستطيعُ أنظارهم الوصولَ إلى أطرافها، ويُحاولون استغلالَها والاستفادة منها لاحقًا وفقًا لحساباتهم الخاصة، فيهمسون أحيانًا في آذان الأشخاص المهيَّئِين لهم بما استَرَقُوهُ من أشياء على هذا النحو؛ فيُضلون الكثيرين منهم؛ لأن أغلبَ هذه المعلومات مملوءةٌ بأكاذيب يُضيفونها من قِبَلِ أنفسهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَيْسُوا بِشَيْءٍ"** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ**[176]**، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ"**[177]. أجل، ربما واحدٌ من مائةٍ ممّا يقولونه صحيحٌ؛ ومن ثم يُصبح مرجعيّة للأكاذيب الأخرى... وهناك آياتٌ كثيرةٌ وردت في القرآن الكريم تقصُّ موقفَ الجنِّ هذا، نذكر بعضًا منها هنا:

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ∃ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ∃ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) (سورة الْحِجْرِ: 15/16-18)

---

[175] **صحيح البخاري**، الاعتكاف، 11-12، بدء الخلق، 11، الأحكام، 21؛ **صحيح مسلم**، الأداب، 23-24.

[176] **قر الدجاجة**: كصوتها إذا قطعته، والقرُّ ترديدُ الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه.

[177] **صحيح البخاري**، الأدب، 117؛ **صحيح مسلم**، الآداب، 123.

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ∃ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ∃ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ∃ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ∃ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) (سورة الصَّافَّات: 37/6-10).

فالجنُّ بكلِّ خصائصهم هذه جاهزون دائمًا لتضليلِ البشرِ وخداعِهم... حيث إنّنا حين ننظرُ إلى التاريخ نشاهدُ عديدًا من الوقائع بدءًا من استخدام الأخبار التي جاءت بها المخلوقات الجنّيّة وسيلةً للابتزاز، ووصولًا بِسَوقِ الناس إلى تفسيرات مختلفة، وانتهاءً بالتسلُّلِ كما تتسلَّلُ الفيروسات إلى أكثر أعضاء جسمِ الإنسان حساسيّة والتسبّب في الجنون. أجل، قد حاولوا خداع البشر بكلِّ الوسائل؛ ونتيجةً لذلك أزاغوا مشاعر البشرِ وقَلَبُوا أفكارهم الدينيّةَ رأسًا على عَقِبٍ، كما خيّلوا لبعض الناس أنفسهم على خلافِ الحقيقةِ فدفعوهم إلى أن يزعمَ كلُّ واحدٍ منهم أنه المجدِّدُ أو المهديّ المنتَظَرُ أو المسيح عيسى عليه السلام؛ وأضلّوا بهم كثيرين غيرهم، ومن هنا فإنه تنبغي الاستعاذة بالله تعالى دائمًا من خداعهم وتضليلِهم، وألا يُبالى أبدًا بما يقدّمونه من أخبار تتعلّق بالغيب.

وربما يكون الإخبار عن الغيب بالكهانة أيضًا وهو حادثة مختلفةٌ قليلًا، فالكهانةُ بشكلِها المشاهَدِ في يومِنا الحاضِرِ ليست شيئًا آخر سوى الاتّصال بالجنّ، ونقل ما يُخبرون به من أمور، والأساسُ أن الكهانة تعني في معناها الحقيقيِّ اتخاذَ وضعٍ يتجاوزُ الزمان والمكان، وهذا يُفضي إلى رؤية الأمسِ والغَدِ سويًّا مع اليوم، والكاهن الذي في هذا المستوى ربما يُخْبَرُ مسبقًا ببعض الحوادث أو يقصُّ ما وقع في السابق منها، غير أن الأخبار التي قدموها وقد يقدمونها لا قيمةَ لها لأنها لا تخلو من الالتباس.

مصادر

الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (ت: 631هـ)؛ **الإحكام في أصول الأحكام**؛ تحقيق: عبد الرزاق عفيفي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، لبنان، 1-4.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: 275هـ)؛ **سنن أبي داود** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-3)؛ دار السلام، الرياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي (ت: 307هـ)؛ **المسند**؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، 1-13، ط 2، (1404هـ/1984م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: 430هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ دار السعادة، مصر، 1-10، ط 1، (1394هـ/1974م). [ثم صورتها عدة دور منها: 1- دار الكتاب العربي، بيروت، 2- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 3- دار الكتب العلمية، بيروت (طبعة (1409هـ) بدون تحقيق)].

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: 235هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، 1-7، ط 1، (1409هـ/1989م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: 213هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، 1-2، ط 2، (1375هـ/1955م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: 354هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، 1-18، بيروت، ط 1، (1408هـ/1988م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1-4، (1395هـ/1976م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: 273هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-6)؛ دار السلام، الرياض.

ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (ت: 734هـ)؛ **عيون الأثر**؛ دار القلم، بيروت، 1-2، ط 1، (1414هـ/1993م).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: 571هـ)؛ **تاريخ دمشق**؛ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي؛ دار الفكر، 1-80، ط 1، (1415هـ/1995م).

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ)؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، 1-6.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)؛ **تأويل مختلف الحديث**؛ المكتب الاسلامي، مؤسسة الإشراق، 1، ط 2، (1419هـ/1999م).

الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي (ت: 756هـ)؛ **كتاب المواقف**؛ تحقيق: عبد الرحمن عميرة؛ دار الجيل، لبنان، بيروت، 1- 3، ط 1، (1417هـ/ 1997م).

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)؛ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**؛ تحقيق: علي عبد الباري عطية؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-16، ط 1، (1415هـ).

الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (ت: 535هـ)؛ **الترغيب والترهيب لقوام السنة**؛ تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان؛ دار الحديث، القاهرة، 1-3، ط 1، (1414هـ/1993م).

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (ت: 324هـ)؛ **مقالات الإسلاميين**؛ تحقيق: نعيم زرزور؛ المكتبة العصرية، 1-2، ط 1، (1426هـ/2005م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: 458هـ)؛ **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، 1-14، (1423هـ/2003م).

_____، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، (1424هـ/2003م).

_____، **السنن الصغرى**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، 1-4، ط 1، (1410هـ/1989م).

_____، **الزهد الكبير**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط 3، (1423هـ/1996م).

_____، **دلائل النبوة**؛ تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، 1-7، ط 1، (1408هـ/ 1988م).

_____، **معرفة السنن والآثار**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، باكستان؛ دار قتيبة، دمشق، بيروت؛ دار الوعي، حلب، دمشق؛ دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، 1-15، ط 1، (1412هـ/1991م).

_____، **الاعتقاد والهداية** إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث؛ تحقيق: أحمد عصام الكاتب؛ دار الآفاق الجديدة، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: 256هـ/870م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-1)؛ دار السلام، الرياض.

البغوي، عبد الله بن أحمد بن علي الزيد البغوي؛ **معالم التنزيل**؛ دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 1، ط 1، (1416هـ).

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: 255هـ)؛ **مسند الدارمي** (سنن الدارمي)؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1-4، ط 1، (1412هـ/ 2000م).

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: 509هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-5، (1406هـ/1986م).

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)؛ **الأعلام**؛ دار العلم للملايين، ط 15، (2002م).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: 405هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-4، ط 1، (1411هـ/1990م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: 360هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

_____، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1-25، ط 1، (1415هـ/1994م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 369هـ)؛ **تاريخ الطبري** (تاريخ الرسل والملوك)؛ دار التراث، بيروت، 1-11، ط 2، (1387هـ/1958م).

_____، **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، 1-24، ط 1، (1420هـ/2000م).

_____، **تهذيب الآثار**؛ تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا؛ دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، 1، ط 1، (1416هـ/1995م).

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت: 204هـ)؛ **مسند أبي داود الطيالسي**؛ تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي؛ دار هجر ، مصر، 1-4، ط 1، (1419هـ/1999م).

الكاندهلوي، محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (ت: 1384هـ)؛ **حياة الصحابة**؛ تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف؛ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1-5، ط 1، (1420هـ/ 1999م).

الكَشّي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي (ت: 249هـ)؛ **المنتخب من مسند عبد بن حميد**؛ تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي؛ مكتبة السنة، القاهرة، ط 1، (1408هـ/1988م).

الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة (من 1404-1427هـ)، ..الأجزاء 1-23: ط 2، دار السلاسل، الكويت؛ ..الأجزاء 24-38: ط1، مطابع دار الصفوة، مصر؛ ..الأجزاء 39-45: ط 2، طبع الوزارة، 1-45.

محمد فتح الله كُولن، التلال الزمرّدية نحو حياة القلب والروح؛ دار النيل، القاهرة، ط 4، (1432هـ-2011م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-2)؛ دار السلام، الرياض.

معمر بن راشد، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم (ت: 153هـ)؛ **الجامع**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، 1-2، ط 2، (1403هـ).

نور الدين الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (ت: 1044هـ)؛ **السيرة الحلبية** (إنسان العيون) في سيرة الأمين المأمون؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-3، ط 2، (1427هـ).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : 303هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-2)؛ دار السلام، الرياض.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)؛ **الجامع الصغير**؛ تحقيق: يوسف النبهاني؛ دار الفكر، بيروت، لبنان، 1- 3، ط 1، (1423هـ/2003م).

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: 1960م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **المثنوي العربي النوري**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **صيقل الإسلام**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **إشارات الإعجاز في مَظَانِّ الإيجاز**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432ه/2011م).

_____، من كليات رسائل النور: **سيرة ذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)؛ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**؛ تحقيق: محمد عثمان الخشت؛ دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، (1405ه/1985م).

عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: 211هـ)؛ **مصنف عبد الرزاق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، 1-11، ط 2، (1403هـ).

علي القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: 1014هـ)؛ **شرح الشفا**؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-2، ط 1، (1421هـ).

العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (ت: 1329هـ)؛ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-14، ط 2، (1415هـ).

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (ت: 544هـ)؛ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**؛ دار الفيحاء، عمان، 1-2، ط 2، (1407هـ).

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت: 821هـ)؛ **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-15.

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت: 923هـ)؛ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**؛ المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، 1-3.

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت: 454هـ)؛ **مسند الشهاب**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، 1-2، ط 1، (1407هـ/1986م).

الرازي، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: 370هـ)؛ **شرح بدء الأمالي**؛ تحقيق: عمر عبد الرحيم؛ دار الكتب العلمية، بيروت.

الإمام الرباني، أحمد السرهندي الفاروقي (ت: 1034هـ)؛ **المكتوبات**؛ وقف الإخلاص، إسطنبول، 1-4، (1423هـ/2002م).

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت: 790هـ)؛ **الموافقات**؛ تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان؛ دار ابن عفان، 1-7، ط 1، (1417هـ/1997م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: 279هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-4)؛ دار السلام، الرياض.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت: 463هـ)؛ **تاريخ بغداد**؛ تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1-16، ط 1، (1422هـ/2002م).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: 505هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت، 1-4، بدون تاريخ.